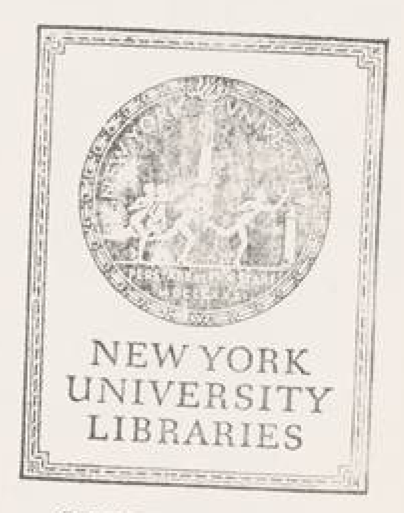
نقولا زيادة

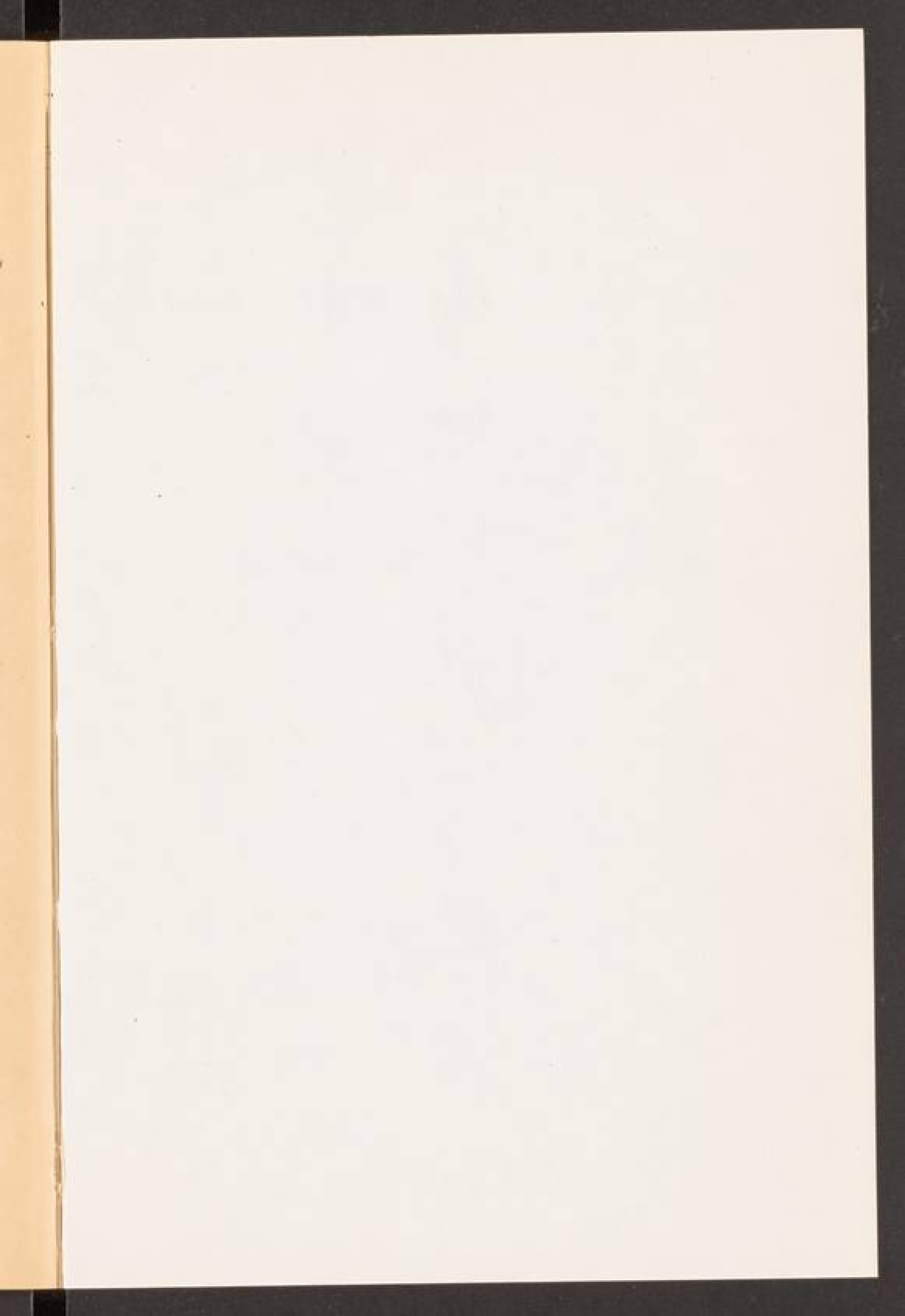
صور من التاريخ العربي

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر


BOBST LIBRARY
3 1142 02824 4757


NEW YORK
UNIVERSITY
LIBRARIES





صور من التاريخ العربي



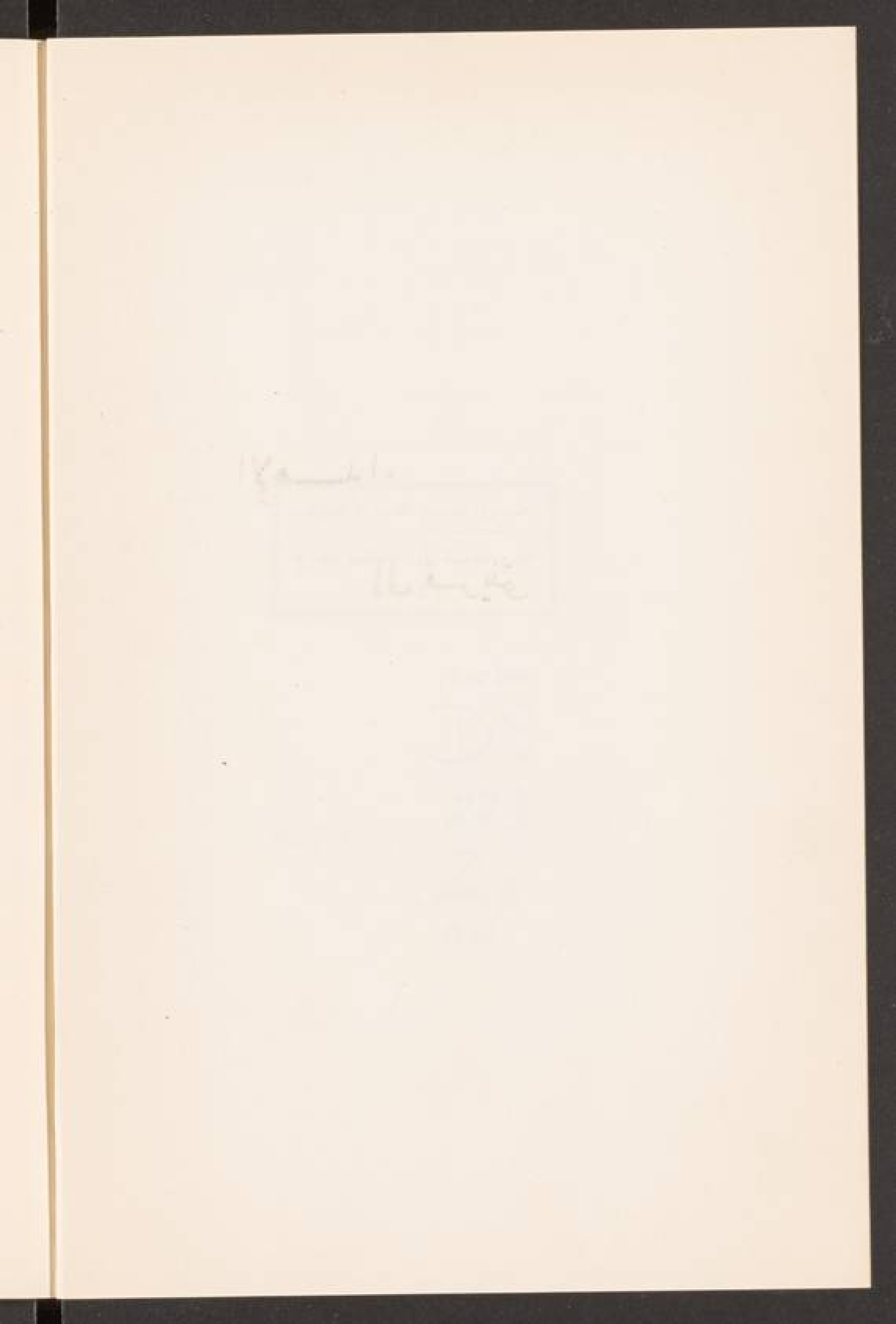
ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر
١٩٤٦



طبع بمطبعة دار الكتب المصرية
١٩٤٦

الإهـــداء

إلى قــرينتي



ايها القارئ الكريم

فى التاريخ العربى قاعات قل داخلوها، وسبل قل طارقوها، وزوايا قل والجوها . وفى هذه القاعات والسبل والزوايا خير كثير، لو أنصفها الناس .

وهـذه الصور التى أقدمها لك هى ثمرة جهد بذل فى سبيل التعرف إلى تلك النواحى المهجورة من تاريخنا .

ولقد لقيت فى جمعها متعة ولذة، رأيت أن لا أحرمك منهما . وآمل أن أوفق إلى إثارة رغبتك فى الكشف عن صور مماثلة لها ، وما أكثرها ؟

نقولا زيادة

بيت المقدس
٣١ آب (أغسطس) ١٩٤٦

صور من التاريخ العربى

المجتمع العربى

(١) مع ابن بطلان . (٢) ليلة فى الرقة . (٣) مجلس أطباء . (٤) مؤتمر مدرسين . (٥) كتاب . (٦) عزلة الإمام الغزالى ببيت المقدس

١ — مع ابن بطلان

كنا نجوب أنحاء أنطاكية .

وشعرت وصديقى أن الحرّ قد اشتد ، فأوينا إلى دير قريب من الطريق ، فأضافنا رئيسه . وجلسنا فى بهو واسع نستمتع ساعة ، وجاء بعض الرهبان يتحدثون فقال قائلهم " فى هذا الدير أقام ابن بطلان فى أواخر أيامه " وكنت أنا قد اعتمدت قاعدة أسطوانة فى البهو الكبير ، وأقبل الكرى على عينى يراودهما ، فكانت كلمات الراهب آخر ما سمعت قبل أن أقصانى النوم عن الجماعة .

فما لبثت حتى رأيت رجلا واقفا أمامى . حاولت أن أتعرف هذا الأسود القبيح الخلقة الذى فاجأنى فلم أهتد . لكنه لم يسمح لى بأن يطول اغترابى فيه فقال « أنا ابن بطلان الطبيب . ألم تكن تسأل عنى فها قد جئتك بنفسى » .

وامتلأت نفسى سرورا . فها أنا بصحبة الطبيب البغدادى الكبير . ولكن أين نحن؟ وأدرك ابن بطلان ما بنفسى فلفت نظرى إلى ما حولى ودلنى على معالم المكان ، فاذا نحن بالكرخ حيث دار الطبيب وصحبه وتلامذته ومرضاه . وأردت ابن بطلان على أن يطوف بى فى بغداد عاصمة العرب . لكن الرجل همس فى أذنى أن بغداد فيها فوضى واضطراب . فالبويهيون أصبحت

أيامهم معـدودة وأولاد سلجوق يجمعـون فى الشرق جموعهم و رجال الدولة كثيرو الشك والريبة فى كل من يهبط البـلد من الغرباء، فخير لى أن أستغنى عن هذه الزيارة . ثم أضاف قائلا "وها أنا على أهبة السفر من بغداد فهل لك فى أن ترافقنى . وثق أن سفرتنا ستكون ماتعة حقا". فقبلت، وخرجنا معا إلى أقرب خان فاكترينا دابتين وحزمنا أمتعة قليلة وخرجنا لنلحق بالقافلة التى كانت تعتزم السير إلى شمال سوريا بطريق الجزيرة . وقبل أن نخرج دوّن ابن بطلان فى مفكرته أنه غادر بغداد فى مستهل شهر رمضان سنة ٤٤٠ للهجرة .

وكان رفيق سفرى هذا يعنى بكل شاردة و واردة تقع عليها عينه أو تطرق سمعه، سواء فى ذلك أوصاف الحيوان وفوائد النبات وأخبار الناس و بارع النكتة و رائق الشعر. لذلك عرجنا على مشايخ البلاد فكان يستمليهم ما عندهم . وقضينا تسع عشرة مرحلة حتى وصلنا الأنبـار وقد صعدنا نهـر عيسى . فبهرنا من الأنبار طيبها وتنـوّع فواكهها بحيث أننا عددنا تسعة عشرة نوعا من الأعناب .

فما كان منا إلا أن تمتعنا فيها بعـد سفرة بعضها موحش، ثم تابعنا سيرنا أربعة أيام حتى حللنا الرصافة . فما قمنا بعض الوقت حـول قصرها حيث ضرب رجال القافلة خيامهم واجتمع إليهم الناس يبادلونهم المتاجر. واغتنمنا نحن فرصة انشغال النـاس عنا، ولم يكن لنا تجارة ولا بيع ، وأخذنا نطوف بين ما تبق من آثار قسطنطين فى بيعته وهشام بن عبد الملك أيام جدّد الرصافة وسكنها فكان يفزع اليها طلبا للراحة والاستجمام . وأعجبنا فيها صهريج كبير يختزن فيـه القوم ماء المطر . وأهل هـذا الحصن بالبادية يعيشون من تخفير القوافل وجلب المتاع .

وآن للقافلة أن تعود سيرتها الأولى فآن لنا أن نفارق الرصافة ، ففعلنا ذلك ونحن نتحسر على ما آل إليه أمرها منذ أن هجرها الأمويون فاقفرت. وكان أمامنا رحلات أربع حتى نصل حلب . فقضيناها نتحدث عن شتى الشؤون وابن بطلان المحدث وأنا السائل أو المصغى . وكان الرجل من رحابة الصدر بحيث أنه لم يمتنع عن رواية بيتين من الشعر قيلا فى وصف خلقته الدميمة . بل أنه أضاف لى أنه ذكرهما فى كتابه المسمى بدعوة الأطباء. أما البيتان فهما :

فلما تبدى للقوابل وجهه ... نكصن على أعقابهن من الندم
وقلن ، وأخفين الكلام تسترا ، ... ألا ليتنا كنا تركناه فى الرحم

هبطنا حلب وكان حاكمها ابن مرداس الذى شمل نفوذه الرقعة كلها . وانصرف الناس إلى تجارتهم واصطحبنى ابن بطلان فى أنحاء المدينة ينقب عن الفوائد والأنباء والأخبار و يدونها . وكان تصرفه تصرف العالم الحريص. فلم يغفل حقيقة أو أسطورة . فقد سمع البعض يقول أنه لما هبط ابراهيم الخليل حلب كان يخبئ غنمه فى مغارة فاذا حلبها أضاف الناس بلبنها فكان الناس يتساءلون حلب أم لا فسميت المدينة « حلبا » لذلك . فقيد هذا . لكنه سأل عن مساجد المدينة و بيعها وشرب أهلها والنهر المار بها المسمى قويق . وكتب ابن بطلان فى مفكرته أن بالمدينة " فى قيسارية البزعشرين دكانا للوكلاء يبيعون فيها كل يوم متاعا قدره عشرون ألف دينار يعتبر ذلك منذ عشرين سنة وإلى الآن " ودون فى مناسبة أخرى أنه ليس فى حلب موضع خراب أصلا . واهتم بحلب على أنها ملتقى طرق تصلها بأمهات المدن فى الجزيرة والشام والساحل ، فالرقة وقنسرين وحماة وأنطاكية وغيرها تنتهى طرقها إلى حلب .

وأعجب ابن بطلان فى حلب بدار تتوسط البلدة فلما سأل عنها قيل له أنها دار علوة صاحبة البحترى فرقص لذلك طربا . ثم قادنى إلى مجلس فيه أنس وطرب فتعرفنا هناك إلى أبى الفتح بن أبى حصينة الشاعر فاستنشده صاحبى شعرا فأنشده قوله :

ولما التقينا للــوداع ودمعها ودمعى يفيضان الصبابة والوجدا
بكت لؤلؤا رطبا ففاضت مدامعى عقيقا فصار الكل فى نحرها عقدا

ووجدنا أن أهل القافلة سيقضون فى حلب وقتا طويلا ، فتركناهم وسرنا ، وقد جمعنا ما استطعنا من الأخبار والأشعار والفوائد والفرائد، ونحن نقصد أنطاكية . وبعد ما بين البلدين يوم وليلة ، والمسافة متصلة القرى مزهرة الرياض متفجرة المياه كثيرة الشعير والحنطة والزيتون يقطعها المسافر فى رضى وأمن وسكون . فكان ذلك من دواعى سرورنا بعد أن كنا نتنقل فيما يكاد يكون صحراء قبل هبوطنا حلب .

وأعجبنا بأنطاكية واتساع رقعتها إذ أن سورها يرتفع إلى قمة الجبل المبنية على سطحه ، وراقنا نهرها المقلوب . ولاحظنا أن الشمس تشرق فى أنطاكية متأخرة لأن الجبل الشرقى كان يسترها عنا .

وقضينا يومنا الأول نستريح ثم درنا فى المدينة . وكان ابن بطلان لا يكل من التنقل ولا يمل من السؤال . فزرنا آثار دار قسيان وأرانا أحد الحراس مكان فنجان الساعات . وقادنا أحد أهل المدينة الى كنائسها الجميلة المعمولة بالجص المذهب والزجاج الملون والبلاط المجزع . ثم أرشدنا الى بيمارستان حيث يراعى البطريق المرضى فيه بنفسه . وأردنا أن ننعم بلذاذة من لذاذات الدنيا ، فلما أظهرنا رغبتنا إلى صاحب الخان الذى كنا فيه دلنا على

حمام وقوده من الآس وماؤه سيح . وقد عرفنا بعد أن جميع حمامات المدينة مثله . فحسدنا أهل أنطاكية على طيب مدينتهم وكثرة نعمها وخيراتها وتنوع متاجرها التي تحمل اليها من مينائها السويدية ومن حلب وغيرهما . لكن ساءنا أن هذه المدينة يحرسها أربعة آلاف رجل ينفذون إليها من القسطنطينية من حضرة الملك فيقضون فى حراستها سنة ثم يستبدل بهم فى الثانية . ساءنا ذلك لأنها مدينة مثل حلب ودمشق و بغداد جزء من العالم العربى وقلنا فى نفوسنا لابد من عودة .

وقد أنسنا فى أنطاكية بلقاء أبى نصر بن العطاء وهو قاضى قضاتها ، فأفدنا من غزير علمه ومليح حديثه وبارع أخباره ما أكد لنا أملنا وقوى عقيدتنا بأن الرابطة بيننا وبين أهلها وثيقة لا تنفصم .

وانتقلنا من أنطاكية إلى اللاذقية ، وهى راكبة البحر ، تابعة للروم ولكن فيها قاض للمسلمين وجامع يصلون فيه . وقد رأينا فيها أشياء غريبة ، وبلغنا أن فى البلد من الحبساء والزهاد فى الصوامع والجبال كل فاضل لم يتسع وقتنا لزيارتهم والتعرف اليهم .

كان ابن بطلان يقصد مصر ، لأنه يريد أن يقابل ابن رضوان الطبيب المصرى الشهير ولم تكن لى رغبة فى مرافقته إليها . فسار هو إلى مصر وعدت أنا إلى أنطاكية .

رأيت هذا الرجل الأسود اللون ذا الخلقة الدميمة الذى وقف أمامى وقد أخذت صورته تختفى رويدا فناديته أن قف فلم يمتنع وسألته إن كان له شعر فقال احفظ عنى :

ولا أحد إن مت يبكى لميتتى ... سوى مجلسى فى الطب والكتب باكيا

ولعل التعب الذى كان قد حملنى إلى عالم الأحلام قد فارقنى فرأيتنى تنفتح عيناى شيئا فشيئا، ورأيتنى أعود إلى تقرى ما حولى ومن حولى. فاذا أنا مسند ظهرى إلى قاعدة الأسطوانة الكبيرة فى بهو الدير، وإذا بالراهب لا يزال يحدث الجماعة، وكان ما سمعته منه قوله :

وتوفى ابن بطلان ولم يتخذ امرأة ولا خلف ولدا ولذلك يقول :

ولا أحد إن مت يبكى لميتتى — سوى مجلسى فى الطب والكتب باكيا

وأصلحت جلستى فضحك القوم من نومى. ولم نلبث، أنا وصاحبى، أن غادرنا الدير وأتممنا سيرنا فى أنحاء أنطاكية.

٢ — ليلة فى الرقة

لى صاحب كثير التجوال بعيد الأسفار. نزل الرقة فى أواخر القرن الرابع للهجرة، وكان فى طريقه من حمص إلى بغداد. وكانت الرقة بلدة صغيرة من بلدان الحدود، فأعجبته دورها الصغيرة المنتشرة على شاطئ الفرات، فرأى أن يتخلف عن القافلة ليقضى فيها يوما و بعض اليوم يستجم من وعثاء السفر الطويل ويستمتع بصحبة أهل هذه المدينة. فودّع رجال القافلة وقصد خانا صغيرا أعدّ لنزول المسافرين فأودع ما معه من متاجر قليلة ودابته القاعة الكبيرة فى الطابق الأرضى المعدّة لحفظ هذه الأشياء. واستأجر غرفة صغيرة تطل نافذتها على الفرات. ولما استراح قليلا غير لباسه، وخرج إلى شوارع البلدة يتقصى أخبارها و يتعرّف معالمها و يستطلع ما فيها.

كانت البلدة صغيرة ولكثرة من يمرّ بها من الغرباء والمسافرين اعتاد أهلها أن يلمحوا النزيل بينهم. فما سار صاحبي إلا قليلا حتى اقترب منه

رجل عليه سيماء الاحترام والمهابة فحياه ودعاه إلى مرافقته فى بلدته ، فقبل صاحبي ذلك ، وسار الاثنان ، وقد آذنت الشمس بالمغيب قليلا حتى أفضى بهما السير إلى حصن الرقة . فأشار إليه الرقى وقال : " بلدتنا هذه ، على صغرها ، مركز هام من مراكز الحياة السياسية والعسكرية والاقتصادية فى هذه الناحية . فنحن على طريق المسافرين . فأكثر من يقصد بغداد من شمال بلاد الشام يعبر بنا . وفضلا عن ذلك فنحن على سيف الصحراء ، ومن ثم كان لبلدتنا هذا المركز الإدارى الهام فى نظر الخليفة ورجاله .

وأعجب صاحبي بالحصن . فقد كان ضخما متينا قويا يرتفع مائة ذراع أو يزيد ويشرف على البلدة وأرباضها وسواقيها . ووقف يتأمله وقد رأى فيه منعة الدولة وعزها وإشرافها على شؤون الرعية وسهرها على أمورها . فلما رأى رفيقه هذه العناية دعاه إلى الصعود ، فصعدا إلى سطح الحصن ومن هناك دله على ما يقع تحت نفوذ صاحب الحصن وأشار إليه أن يمتع نفسه برؤية القافلة الكبيرة على نهر الفرات . وكان المنظر ساحرا . فقد غطست الشمس خلف الأفق ، وخلفت اصفرارا مشربا بحمرة منتشرا فى الجو فوق رمال الصحراء وماء الفرات إلى مسافات شاسعة . فطرب صاحبي للمنظر ، وهتف " إنها بلاد العرب ، بلاد الجمال والجلال والبهاء " .

وهمّ صاحبي بالعودة . لكن رفيقه تلطف به ودعاه لتناول طعام العشاء معه ، فما يجوز ، فى عرف بلدته ، أن يخرج غريب من الدار قبل أن يشارك أصحابها زادهم . وعندها أدرك صاحبي أن رفيقه إنما هو ماسك القلعة وصاحب جند الخليفة فى الرقة . فقبل الدعوة شاكرا . فهو أراد أن يتعرف إلى البلدة أثناء إقامته ، فإذا بالمصادفات توقعه بين يدى صاحب جندها .

وانحدر الاثنان إلى داخل الحصن ، ودخلا قاعة كبيرة أحاطت بها الطنافس ووضعت فى وسطها مائدة كبيرة صفت عليها صحون الفاكهة . وما كاد يستقر المقام بالرجلين حتى أعلن صاحب الدار أن بالباب جماعة قد استأذنوا عليه فخرج لاستقبالهم بنفسه، ثم دخل الجميع فحيوا وجلسوا وعندها ذكر صاحب الجند لصاحبي أن الداخلين كانوا قاضى البلدة ومتولى الضياع السلطانية فيها والبندار وصاحب البريد. فبلغ السرور بصاحبي حدًا لم يستطع معه أن يعبر عما خالجه وهو الكاتب البليغ والشاعر المبدع . فأى باعث كان يدفعه إلى قضاء هذه الليلة فى الرقة ؟

وتنقل القوم وعبثوا ببعض الفاكهة،ثم أقبل الخدم يحملون صحاف الطعام وقصاع المآكل ، فصفوها على المائدة ، فأخذ كل منها بنصيبه . وكان صاحبي جائعا فأكل منها شبعه .

ولكن الأمر الذى استمتع به صاحبي أكثر من الأكل هو هذا الحديث الذى دار بين الموجودين أثناء الأكل وبعده . فكأن هؤلاء الناس أحسوا بما رغب فيه ضيفهم ، فما قصروا فى ذكر أخبار بلدتهم وأعمالهم هم . وكان أول من تحدث صاحب البريد . فقد كان كثير الدل بمنزلته وعمله ، أليس هو عين الخليفة فى بقاع الأرض النائية وصاحب خبره فى أنحاء ملكه البعيدة ؟ هكذا أوصاه صاحب ديوان البريد فى بغداد لما وكل إليه الأمر. فقد قص على الحاضرين أن صاحب الديوان ذكره بأنه يتحتم عليه أن يراقب طرق التجار وسيرهم ويتحرى شؤون العمال ويتجسس على الأعداء ويستطلع أسعار الحاجيات من قمح وحبوب وأدم ومأكولات ثم يكتب بخبر ذلك كله إلى الديوان البغدادى ، وبذلك يعرف الخليفة خفايا الأمور ودخائلها

فى كل جزء من أجزاء مملكته . ولم يفت صاحب البريد أن يذكر الحضور بأنه يوجد تحت تصرفه مجموعة من الحمام الزاجل تحمل رسائله إلى بغداد وبذلك تصل أخباره بسرعة كبيرة . وكأن صاحب البريد خشى أن يكون قد ساور الضيف شىء من الريبة فيما قال ، فما أسرع ما تناول من كمه الواسع رقا ملفوفا لفا محكما ثم فتحه بين يديه وقرأ فيه ما يأتى : "هذا عهد بما يجب على صاحب البريد" عليه أن يعرف حال عمال الخراج والضياع فيما يجرى عليه أمرهم ويتتبع ذلك تتبعا شافيا ويستشفه استشفافا بليغا وينهيه على حقه وصدقه ، وعليه أن يعرف حال عمارة البلاد وما هى عليه من الكمال والاختلال وما يجرى فى أمور الرعية فيكتب به مشروحا . وأن يعرف ما عليه الحكام فى حكمهم وسيرهم وسائر مذاهبهم وطرائقهم . وأن يعرف حال دار الضرب وما يضرب فيها من العين والورق وما يلزمه المورِّدون من الكلف والمؤن ويكتب بذلك على حقه وصدقه . وأن يعرض المرتبين لحمل الخرائط فى عمله ويكتب بعددهم وأسمائهم ومبالغ أرزاقهم وعدد السكك فى جميع عمله وأميالها ومواضعها . وأن يوعز إلى الموقتين بإثبات المواقيت وضبطها حتى لا يتأخر أحد عن الأوقات التى سبيله أن يرد السكة فيها . وأن يفرد لكل ما يكتب من أصناف الأخبار كتبا بأعيانها" . ولما فرغ من قراءة هذا العهد ، لفه بأحكام وأعاده مكانه وعاد إلى حديثه فقال : إنه قد يتفق له أن يكتب فى اليوم الواحد كتابين إلى بغداد . فإذا صلى العشاء كتب بأخبار النهار ، وإذا صلى الفجر كتب بأنباء الليل . ويغلب هذا أيام كثرة المتنقلين فى مواسم الأسواق والتجارة ، وعندما تبدو فى الجو ثورة أو عصيان أو تغير على الحمى قبائل من الصحراء . فيترتب عليه فى هذه

الأحوال أن ينبئ الخليفة بالأخبار بأسرع ما يتيسر له حتى يتمكن هذا من التصرف فى الأمر بالسرعة والشدّة التى تتطلبها المناسبة .

وأعجب صاحبي بهذا العمل ، وحسب أنه من حق صاحب البريد أن يفخر بمنصبه . لكن ما كاد هذا ينتهى من حديثه حتى تقدّم البندار ينافره ويفاخره . أليس هو الوكيل على مال الجمارك والخراج ؟ أليس هو المكلف بتقدير أثمان المتاجر والسلع وتعيين ما يتوجب على أصحابها دفعه لديوان المال؟ ولما كانت الرقة مركزا كبيرا للتجارة ومحطة للقوافل فقد أصبح منصبه ذا قيمة خاصة . فقد يزيد ما يدفعه التجار فى اليوم الواحد عن مئات الدنانير ، وإن كان هذا ليس مستمرا كل يوم . قال هذا وتناول روزنامجه ، وهو كتاب اليوم ، وعدّ فيه أوراقا ، واحدة بعد أخرى ، فوجد أنه قد قبض هذا المبلغ الكبير عشر مرات فى عشرة أيام فى الموسم الحاضر . ثم التفت إلى صاحب الجند وذكره بأنه احتاج إلى بعض جنده ليحرسوا الجامع لكثرة الأموال المودعة فيه ريثما يأتى عمال الخليفة فيقبضوها .

وكأن الجهد الذى بذله فى الدفاع عن منصبه نال منه ، فأقبل على قصعة يلتهم ما فيها من الطعام ليعوّض عما فاته وهو يتكلم . فاغتنم صاحب البريد الفرصة ونال منه بنكتة لاذعة فقال "أن البندار جشع فى أكله مثله فى عمله فلا يرضى إلا باللقمة الكبيرة ، ولا يتحدث إلا عن المال الكثير" فضحك الحاضرون حتى استلقوا . أما البندار فاستمر يأكل كأن لم يكن المقصود بذلك .

وتقدّم متولى السواقى فى أدب وتواضع وأشار إلى أن عمله دون صاحب البريد والبندار . فإنه يترتب عليه أن يشرف على ضياع الخليفة وأرضه وهى الأملاك التى تعود على الدولة بشىء كثير من المال .

والسواق فى الرقة كثيرة واسعة ، ذلك أن كثيرين من أهل تلك الجهة ألجأوا أراضيهم وأملاكهم للخليفة ليضمنوا تعهدها وحمايتها . فضلا عن أن أيام الرخاء التى مرت بالدولة قبل سنين يسرت لها ابتياع عدد كبير من الضياع المحيطة بالفرات . وعليه — أى متولى السواق — أن يقوم بالرقابة الفعلية على جميع الشؤون المتصلة بالزراعة والرى من بناء القنوات وترميمها وغير ذلك مما يتوقف عليه غلة الدولة ودخلها .

وأعجب صاحبى بهذا الشاب الهادئ الذى يعنى بهذه الشؤون المتصلة بالحياة إلى هذا الحد ومع ذلك فهو لا يتبجح وأدرك أنه لا بدّ له من مستقبل زاهر . وهمّ بسؤال صاحب الجند عن عمله ، ولكن هذا كان أسرع من صاحبى إذ قال للجماعة " لقد تحدثتم كل عما يقوم به من أعمال . ولست أريد أنا أن أطيل ولكننى أودّ أن أذكركم أن هذا الحصن الذى نجلس فيه إنما هو طوع أمرى وتحت تصرفى بما فيه من جند وشرطة . وأنا المسؤول عن حفظ الأمن فى هذه الأنحاء كلها . وأى إخلال بالنظام إنما تقع مسؤوليته على عاتقى وحدى . وإن كنتم ترون الأمور على خير فى هذه الجهة فاذكروا أن الفضل فى ذلك يرجع إلى أننى هنا منذ أربع سنوات وقد استطعت أن أؤمن السبل وأنشر الأمن وأنظم التنقل . وقد قمعت منذ سنتين ثورة قام بها أحد الناقمين على سلطان الخليفة وتم ذلك فى مدة قصيرة ودون خسارة فى الأرواح حتى أن الخليفة نفسه أثنى علىّ" .

وكان ثمة رجل واحد فى المجلس قد حافظ على اتزانه . كان يرتدى طيلسانا أسود ويعتم بعمة مهيبة ، ولم يكن فى تصرفه فى المساء كله ما يؤخذ عليه . ذلك هو القاضى ، وكان صاحبى يودّ لو يسمعه . ولكنه خيب

أمله . على أن البندار استقضاه فى هـذه الخصومة البريئة التى قامت بين الجماعة ، وطلب إليه أن ينصف بين المتفاخرين . وعندها شاعت فى وجهه ابتسامة عريضة فبدأ حديثه بقوله " إنكم إذ تقدمتم إلى للفصل فيما بينكم ، إنما اعترفتم بأنى عادل ، وهـذه صفة رئيسية يجب أن يتحلى القاضى بها . وأحمد الله على أن أمير المؤمنين اختارنى وولانى هنا القضاء والحسبة . فأنا هنا أقوم بالفصـل بين المتخاصمين على أسس الشرع الشريف وأرعى تصرف الناس وآدابهم على ماتقتضيه قواعد المحتسب . فأنا أرقب السوق فى الصباح وأتأكد من صحـة الكيل والميزان وأستوثق من أن أصحاب الحوانيت لا يبسطون متاعهم بحيث يعترض المـارّة ويعوقهم . فإذا ارتفعت الشمس جلست للفصل فى الخصومات . وقـد يعرض لى أن يتظلم أحد النـاس من صاحب السلطان ، فإما اقتنعت بصحة دعواه انتصفت له ، وعندها أمثل صاحب المظالم . وقد جعلت مرشدى فى عملى وصـية الخليفة الطائع إلى قاضى القضاة فى أيامنا هـذه إذ أوصاه أن لا يقبـل رشوة ولا يلتمس جعلا وأن يبحث عن أمانات الشهود ويضبط ما يجرى فى عمله ويحتاط على أموال الأيتام وأن يرد أحكامه إلى كتاب الله " .

وخشى صاحبي أن يقف القاضى عند هذا الحدّ فلا يصدر حكمه فى الخصومة التى شجرت بين الحاضرين ، لكن القاضى استمرّ قائلا " أما فيما يختص بهذا الذى أنتم فيـه ، فإنى والله لو عرفتكم جادين لأجريت عليكم الحدّ ، فـما يجوز لأحد أن يمنّ على بلده وجماعته وأمته لأنه يقوم بواجبه ، ولكننى أعرف أنكم مازحون ، وأن كل واحد منكم إنما وضع شعاره الذى يهتدى به " وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان " .

وهنا جمع صاحبي كل قوته وشجاعته، واستأذن فى أن يروى لهم ما أثر عن المنصـور ، فأذنوا له فقال إنه يؤثر عن الخليفـة الكبير أنه كان يقول "ما كان أحوجنى إلى أن يكون على بابى أربعـة نفر ، هم أركان الملك . أما أحدهم فقاض لا تأخذه فى الله لومة لائم، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى ، والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية فإنى عن ظلمها غنى، والرابع صاحب بريد يكتب إلىّ بخبر هؤلاء على الصحة". ثم قال صاحبي "وما تمناه المنصور ببغداد وجده الطائع فى الرقة . فإنكم والله أولئك النفر الذين أرادهم" .

قص على صاحبي قصته فسألته وماذا حدث لك بعـد ذلك ؟ قال : "لا أدرى فقـد وقع الغطاء عنى ، فأحسست بالبرد وأفقت من حلمى الجميـــل" .

٣ — مجلس أطباء فى القرن الخامس للهجرة

هبطت دمشق وكانت بى علة فسألت أهلهـا عن طبيب أعتمد عليـه فى شفاء ما بى، فقال قائلهم : عليك باليبرودى، ففتشت عنه حتى اهتديت إلى داره بسوق جيرون فدخلت عليه فسلمت فردّ السلام وأمرنى بالجلوس، فشرحت له حالتى، ففحصنى فحصا دقيقا ليعرف كل شىء عنى، ثم وصف لى الدواء اللازم لى . وهممت بالانصراف لولا أن دخل عليه ساعتها جماعة من المشتغلين بالطب وغيره من أهل دمشق ، فرأيت أن أقيم لعلى أسمع من طرائف أخبارهم ما لم يكن لى به علم . ولعل اليبرودى أدرك ما بى فابتسم وقال لى "لا عليك يا هذا ، امكث حيث أنت ، لعلك تصيب من حديثنا ما يهوّن عليك بعض ما بك" فظللت حيث كنت .

واستقر بالجماعة المجلس وتجاذبوا أطراف الحديث فخاضوا فى شتى المباحث والشؤون ، وانتهى بهم الأمر الى سؤال البيرودى عن تعلمه الطب . فأطرق الرجل ساعة ، كأنه يستعيد حلما رآه من زمن بعيد ، ثم رفع رأسه وقد علت وجهه ابتسامة وانطلق يقص عليهم خبره قال " كنت فى صباى أحمل الشيح من ضيعتى يبرود وأبيعه فى دمشق ، وكنت يوما أقود دابتى وعليها حملها من الشيح . فمررت بالفاصد أبى الخير وقد فصد شابا فوقعت الفصدة فى الشريان فتحير وتبلد وطلب قطع الدم فلم يقدر على ذلك فاجتمع الناس عليه . فلما رأيته على تلك الحال أشرت عليه بأن يفصده فى اليد الأخرى و يسدّ الفصد الأوّل ، ثم يعود للثانى فيسدّه ففعل ووقف الدم . فتشبث أبو الخير بى وسألنى عما أمرته به ، فأخبرته أننى أرى أبى فى وقت سق الكرم إذا انفتح شق من النهر وخرج منه الماء لا يقدر على إمساكه حتى يفتح فتحا آخر ينقص به الماء الأوّل الواصل الى ذلك الشق ثم يسدّه بعد ذلك . فلما سمع أبو الخير ذلك منعنى من بيع الشيح واقتطعنى وعلمنى صناعة الطب . فلما تبصرت فى أشياء منها وصارت لى معرفة بالقوانين العلمية أردت أن أستزيد من أحد ثقات الأطباء فدلونى على أبى الفرج وكان ببغداد ، فتأهبت للسفر وأخذت سوارا كان لأمى وتوجهت إلى بغداد وصرت أنفق على نفسى ما يقوم بأودى واشتغلت على أبى الفرج حتى مهرت فى الصناعة فعدت إلى دمشق وها أنا لا أزال فيها .

فطرب الحاضرون لهذه القصة وقال أحدهم ، وكان شيخا جليلا اشتعل رأسه شيبا " الشىء بالشىء يذكر ، فقد اتصل بى أن طبيب مصر الكبير ابن رضوان لقى فى حداثته صعوبات فى تعلم الطب . فقد أسلم نفسه لتعليم

الطب لما بلغ الرابعة عشرة من عمره ولم يكن له مال ينفق منه فعرضت له فى التعليم صعوبة ومشقة فكان مرة يتكسب بصناعة الطب ومرة بالتعليم ولم يزل كذلك حتى بلغ الثانية والثلاثين ” .

وسأل آخرعن السبب الذى يدفع الكثيرين الى الطب ودراسته فأجاب أحدهم وكان من رجال الطب ، بأنه لما كان ينبغى لكل إنسان أليق الصنائع ولما كانت صناعة الطب تتاخم الفلسفة لأنها تكامل الفضائل كلها ، لذلك أقبل عليها الكثيرون طاعة لله عز وجل . وقادهم هذا السؤال إلى التحدث عن صفات الطبيب . فتحدث فى ذلك كل المشتغلين بالطب وانتهى الأمر بهم جميعا الى أن الطبيب هو الشخص الذى تجتمع فيه الخصال التالية :

الأولى — أن يكون تام الخلق صحيح الأعضاء حسن الذكاء جيد الرواية عاقلا ذكورا خير الطبع .

الثانية — أن يكون حسن الملبس طيب الرائحة نظيف البدن والثوب .

الثالثة — أن يكون كتوما لأسرار المرضى لا يبوح بشىء من أمراضهم

الرابعة — أن تكون رغبته فى إبراء المرضى أكثر من رغبته فيما يلتمسه من الأجرة ورغبته فى علاج الفقراء أكثر من رغبته فى علاج الأغنياء .

الخامسة — أن يكون حريصا على التعليم والمبالغة فى منافع الناس .

السادسة — أن يكون سليم القلب عفيف النظر صادق اللهجة . لا يخطر بباله شىء من أمور النساء والأموال التى شاهدها فى منازل الأعلاء فضلا عن أن يتعرض إلى شىء منها .

السابعة — أن يكون مأمونا ثقة على الأرواح والأموال لا يصف دواء قتالا ولا يعلمه ولا دواء يسقط الأجنة . يعالج عدوه بنيـة صادقة كما يعالج حبيبـه .

وما إن بلغوا هـذه الغاية من حديثهم حتى تناول اليبرودى كتابا قريبا منه على يمينه وقلب أوراقه ثم قـرأ للموجودين ما يلى " أن الطبيب هو من تكاملت فيـه الفضائل كلهـا : التى هى العـلم التعليمى والطبيعى والإلهى وصـناعة المنطق والطب وصالح الأعمـال ومحاسن الأخلاق . إن من كان كاملا فى الطب وناقصا فى واحد منها فهو يعدّ متطبب لا طبيب ، ومن لم تتكامل فيه صناعة الطب فهو متعلم لم يبلغ بعد إلى أن يسمى بالمتطبب " . ولمـا سأله أحدهم عن صاحب هذه الحكمة أجابه أنه جالينوس أبو الطب اليونانى . والظاهر أنه كان بين الجماعة متعلم فى الطب فنظر إلى اليبرودى وسأله نصيحة يحفظها عنـه ، فقال اليبرودى " نصيحتى إليك هى نصيحة قرأتها بخط ابن رضـوان المصرى إذ قال : إذا دعيت الى مريض فأعطـه مما لا يضره إلى أن تعرف علته فتعالجها عند ذلك". فشكر المتعلم له نصحه.

وراقنى المجلس . فقـد جئت أستشفى فاذا بى أقضى ساعة ماتعـة . وتذكرت ما سمعته قبلا من أن الأطباء الحقيقيين فى بلادى العربية شديدو المحافظة على سمعتهم الطبية وكثيرو العناية بشرف المهنة ، ولذلك لم أستغرب لمـا رأيت اليبرودى ، وهو ما عرفت علما وسـعة اطلاع ، لا يرى عارا فى أن يروى نصيحة عن ابن رضوان ، أمانة فى النقل ، واعترافا بالفضل .

وخشيت أن تفلت الفرصـة دون أن أسمع شيئا عن نوادر الطب والأطباء ، والمجلس الذى أنا فيه ، الدهر بمثله ضنين ، فجمعت كل ما عندى

من جرأة وطلبت إلى الحاضرين أن يرووا شيئا مما جرى لهم . وكنت آمل أن لا يبخل اليبرودى نفسه بأن يقص علينا نوادره . ولم يخيب أملى . فقد استوى فى جلسته وابتسم وقال : عبرت يوما فى سوق جيرون فى هذه المدينة فرأيت إنسانا وقد بايع على أن يأكل أرطالا من لحم فرس مسلوق مما يباع فى الأسواق . فلما رأيته وقد أمعن فى أكله بأكثر مما تحتمله قواه، ثم شرب بعده فقاعا كثيرا وماء بثلج واضطربت أحواله تفرست فيه أنه لا بد أن يغمى عليه وأن يبقى فى حالة يكون الموت فيها أقرب اليه إن لم يتلاحق . فتبعته إلى المنزل الذى له واستشرفت إلى ماذا يؤول أمره ، فلم يكن إلا أيسر وقت وأهله يصيحون و يضجون بالبكاء و يذيعون أنه قد مات . فأتيت إليهم وقلت إنى أبرئه . ثم إنى أخذته إلى حمام قريب وفتحت فكيه كرها ثم ثقبت فى حلقه ماء مغليا وقد أضفت اليه أدوية مقيئة، وقيأته برفق ثم عالجته وتلطفت فى مداواته حتى أفاق وعاد إلى صحته . فتعجب الناس منى واشتهرت عنى هذه القضية . وكنت أرمى بطبيعة الحال إلى اختبار رأيى فيما يمكن أن يحدث له و إنجاده مما يقع فيه ، وقد صدق حدسى .

واستزدنا اليبرودى فقص علينا أنه حدث أن رجلا خبازا بينما هو يخبز فى تنوره بمدينتنا هذه إذ عبر عليه رجل يبيع المشمش فاشترى منه وجعل يأكله بالخبز الحار، فلما فرغ سقط مغشيا عليه فنظروا فإذا هو ميت . فجعلوا يتربصون به و يحملون له الأطباء فيلتمسون دلائله ومواضع الحياة فيه فلم يجدوا . فقضوا بموته فغسل وكفن وصلى عليه وخرجوا به إلى الجبانة . فبينما هم فى الطريق على باب البلد استقبلتهم فسمعت الناس

يلهجون بقضيته فسألتهم عنه فقصوا على قصته فقلت حطوه حتى أراه فحطوه فجعلت أقلبه وأنظر فى أمارات الحياة ثم فتحت فمه وسقيته شيئا مقيئا فاندفع ما هنالك فإذا الرجل فتح عينيه وتكلم وعاد بعد حين كما كان إلى حانوته .

فقال أحد الحضور معقبا على قصة البيرودى " لقد قرأت فى كتاب الغاذى والمغتذى لابن أبي الأشعث الطبيب أنه رأى يوما إنسانا وقد بايع أن يأكل جزرا كثيرا . فحضر الأشعثى أكله ليرى إيراد الغذاء على المعدة قسرا إلى ماذا يؤول . فرآه يأكل و يضاحك من حوله حتى اذا مر على الأكثر مما كان بين يديه رأى الجزر يخرج من حلقه ممضوغا ملتفا متحبلا متعجنا بريقه ، وقد جحظت عيناه وانقطع نفسه واحمر لونه ودرت ودجاه وعروق رأسه واربد وكمد وجهه وعرض له من التهوع أكثر مما عرض له من القذف حتى رمى من ذلك الذى أكله شيئا كثيرا . و بمثل هذه المناسبات كان الأشعثى يدرس الغذاء وأحواله . وعندها تقدم شخص آخر من الحضور وذكرنا بأن الأشعثى هذا شرح سبعا حيا بعد أن سقاه ماء كثيرا ليثبت أن المعدة متى امتلأت قسرا امتدت الطبقة الداخلة حتى صار سطحها مستويا .

وكان آخر ما تحدث به القوم ذكرهم المتطببين وأدعياء الطب . فقد ذكر أحدهم أن تسامح شيوخهم فى التسمى بالمتطبب شجع المتعلمين على استعمال هذه التسمية و إن لم يستحق هذه الرتبة . والذى سمى نفسه طبيبا ولما تكامل فيه صناعة الطب أى دون اجتياز امتحانها فهو كذاب أحمق. ولفت البيرودى نظرهم إلى أن من كبار الأطباء من حرم العمل لأنه أساء

السيرة مثل ابن بكس الذى أبعد عن البيمارستان وتحامى طبـه الناس لثلاث خلال لفساد عقله بمواصلة السهر وارتعاش يده من تعامل المجس وامتناع بصره عن رؤية القوارير .

كانت ساعات النهار قد ولت وقد أوقدت الخادم السرج ونحن بعد جلوس ، فرأت الجماعة أن نتفرق ، فقاموا وحيوا وخرجوا . وما كادوا يصلون إلى السوق حتى وجدوها فى هرج ومرج فسألوا عن ذلك فذكروا بأن الغد هو يوم الوقوف بعرفات من سنة ٤٣١ للهجرة ، وكانوا قد نسوا ذلك لانشغالهم بأمور الطب والتحدّث عنها .

ورأيت وقد تركت الجماعة ، أولادا يقتربون منى فرحين ، ولما وصلوا إلى زحمونى بحيث شعرت كأنّ أضلاعى تكسرت . فأفقت من نومى وكانت تباشير الصباح قد آذنت بانتهاء موعد النوم .

فنفضت عنى الغطاء ، ونهضت من الفراش ، وأنا أفكر بهذا الحلم اللذيذ ، وبما كانت عليه الطبابة فى عصور العرب الزاهرة و بما كان يعنى به أطباؤهم من محافظة على شرفهم واهتمام بشؤون المرضى ورعاية لحقوق المهنة . فكرت بهذا كله فشعرت بأننى أعتز بهم وأفخر ، وقلت فى نفسى " فلأقص حديثى هذا على الناس ، فلعل فيه ما ينفع ، وذكر " إن نفعت الذكرى " .

٤ — مؤتمر مدرّسين

وجدتنى وصاحبي نذرع صحنا واسعا فى دار فخمة جميلة ، ولم ندر ما الذى جاء بنا ذلك المكان ، ولم نجد ثمة من نسأله عن الدار وأهلها . فاتجهنا نحو أحد الأروقة المعمّدة المحيطة بفناء الساحة الواسعة وتبينا بابا يؤدّى إلى غرفة

صغيرة فوقفنا عليه فرأينا فى ركن من الغرفة شابا بين يديه كراريس كثيرة فسلمت عليه وسألته عن المكان الذى نحن فيه . فردّ التحية بأحسن منها ثم قال (أنتما فى المدرسة العادلية و إذن نحن فى دمشق وفى المدرسة العادلية ؟

وجذبنى صاحبي وهم بالخروج لكننى تلكأت وكان ذلك من حسن حظنا . فقد لفت نظرى أن أفرادا من أصحاب العمائم يتجهون نحو باب كبير فى آخر الصحن الواسع . فاقترحت أن نتجه نحوه وقبل صاحبي فذهبنا ، وكانت ثمة قاعة كبيرة مفروشة بالسجاد تدو ر بها طنافس ووسائد والناس يدخلونها و يتخذ كل مقعدا . فدخلنا مع الداخلين وجلسنا فى ركن من أركانها بحيث نرى كل شيء دون أن نلفت النظر إلى وجودنا .

والتأم المجلس وكان فيه عشرات من الناس . لكن خمسة أشخاص انتبذوا من دون الباقين مكانا مرتفعا . وأخذنا نتأمل الحاضرين جميعهم لكن تأملنا لم يطل ، فقد ارتفع صوت من المكان المرتفع بذكر الفاتحة فخشع الجميع يقرأونها . وما أن انتهوا حتى عاد الصوت نفسه إلى الكلام فقال : نحن نجتمع الساعة هنا للنظر فى شؤون المدارس والتعليم . فكل واحد بيننا عمل على نشر المعرفة بين أبناء قومه . ولكننا نرى أن حالة التعليم أخذت تنحط بيننا لذلك اجتمعنا لنبحث القضية بحثا خالصا لوجه الله تعالى . فأشدّ ما أخشاه أن نكون قد اتجهنا نحن بالتعليم اتجاها شوّه غايته و باعد بين أصله ومرماه . وصمت الشيخ الجليل عند ما تقدّم أحد الجالسين على المنصة فتناول من كمه الواسع رقا ملفوفا ففتحه وحمد الله وأثنى عليه ثم قال : عنى العرب بادئ ذى بدء بالقرآن وعلوم الشريعة فتناولوها فى مدارسهم بدقة . فلما تعرّفوا إلى نتاج القرائح اليونانية نقلوه إلى لغتهم فصار جزءا من تفكيرهم

وعندها دخلت الرياضيات والطب والفلك دور العلم وانتشرت هذه فى العواصم وكبرى المدن . وكان المسجد أول دار للعلم فى الدولة لكن منذ القرن الرابع للهجرة خرج الناس إلى دور خاصة بعضها أنشأها الخلفاء والأمراء كبيت الحكمة البغدادى ودار العلم القاهرية ، وبعضها مما ينفق عليه الأفراد مثل المدرسة التى أسسها الفقيه الموصلى فى بلده وجعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم ووقفها على طلاب العلم فلم يمنع أحد من دخولها وكان هو نفسه يعلم فيها .

لكن لما وقعت بلادنا تحت سيطرة الأتراك السلاجقة اتخذوا من المدرسة سبيلا لنشر دعايتهم السياسية وبذلك تغلبت النزعة الدينية السياسية على الحياة العلمية الفكرية الخالصة . ومع أن هذا ليس شأن جميع المتغلبين فقد وضع أولئك بذور هذه الفكرة . ولعل بعض ما نعانى اليوم هو من آثار هذا التغلب .

وأثار هذا الخطاب القصير نقاشا طويلا لكنه ظل هادئا ، فقد لفت نظر المتحدث إلى أن هذا التعميم فيه خطأ فاضح ،وأشار كثيرون إلى الفضل الذى أدته المدارس العديدة للعرب وللإسلام . وتناول أحد الحضور رحلة ابن جبير من بين كراريسه وقرأ للمجتمعين وصف الرحالة لمجلس حضره فى المدرسة النظامية ببغداد للشيخ القزوينى رئيس الشافعية وفقيه المدرسة ، وقد جاء فى هذا الوصف أنه بعد أن خطب الشيخ خطبة سكون ووقار وعلم صحيح رشقه الطلاب والفقهاء بالمسائل من كل صوب فأجاب عليها كلها حتى حان المساء فتفرق الجميع . وأيد آخرون هذه الدعوى دحضا لحجة الخطيب الأول . وعاد هذا إلى الكلام ولكن بغير رق يخرجه من كمه

فقال : لقد عرضت للأمر من ناحيته التاريخية . وقد أكون مخطئا فى الأمر الذى وصلت إليه وعلى كل فإن لم يكن اللوم يقع على الأحوال فانه يقع على الرجال . وإذا كانت السلطة بريئة مما عزى إليها فالحق كله على المعلم الذى وكل إليه الأمر فلم يحسن القيام به ، ولنرجع إلى هذا المعلم إلى نقومنا لنرى موضع التقصير .

وكأن هذا التحدى من المتكلم قد لمس موضعا حساسا فى نفوس القوم فأمنوا على قوله واتفق رأيهم على أن ينظروا الأمر من هذه الناحية . وكان أول ما بدا لهم من المسائل هو الغاية التى يجب أن يرمى اليها من التعليم ؟ وتحدث فى ذلك كثيرون وخرجوا من نقاش طويل هادئ إلى أن الغايات التى يجب أن يضعها أمامه المعلم والمتعلم هى ثلاث : أولاها أن ينوى المتعلم بطلب العلم رضا الله تعالى والآخرة . وثانيها أن يكون العلم جمالا للغنى ومالا للفقير، على حد ما قاله عبد الملك بن مروان . وثالثها أن ينال المتعلم من علمه لذة عقلية إذ أن الغرض من العلوم الاطلاع على الحقائق وتهذيب الأخلاق .

فلما انتهى المجتمعون من تقرير هذه الناحية عادوا إلى فحص نفوسهم كمعلمين ليروا مسؤوليتهم فى التدهور الذى أصاب التعليم فى أيامهم ، وكانت النواحى التى تحدثوا عنها هى الصفات التى يجب أن تتوفر فيهم ليحق لهم أن يكونوا المشرفين على تربية النشء وتهذيبه ليصلوا به إلى هذه الغايات التى أقروها ، وكان بين الحضور شخص قد لزم الصمت الوقت كله فتقدم الآن للكلام فقال : روى ابن حوقل أنه لما زار بلرم عاصمة صقلية سنة ٣٦٢هـ وجد فيها ثلاثمائة معلم ولما استكثر العدد وسأل عن سبب هذه الكثرة قيل له إن الكثيرين يتخذون التعليم مهنة لأنه ينقذهم من الغزو ويبعدهم عن الجندية .

ونحن لا نريد هذا النوع من المعلمين . إنما نريد أن نكون نحن عند وصف ابن الكنانى إذ قال : يجب أن يكون المعيـد، وهو معلم أيضا، من الصلحاء الفضلاء صبورا على اختلاف الطلبة حريصا على إفادتهم قائما بوظيفة اشتغالهم . وقـد لايستطيع كل معـلم أن يكون إماما فى موضوعه لكنه يجب أن يكون قد أجازه شيوخه . والمهم فى هذه المسألة هو أن يكون قد أخلص لله تعالى فقـدم طهارة النفس على رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف . نحن بحاجة إلى قوم لم يبخلوا بشىء فى سبيل الحصول على المعرفة قبل أن يعطوهالغيرهم . وصمت المتكلم قليلا كأنه يستريح من العناء الذى ناله ثم استمر قائلا (إن سبيل التعليم هـو أن يلحق الطالب بالمعـلم حيث كان . أتدرون لمـاذا نبه شأن أمثال التبريزى والمعرى وغيره؟ اسمعوا أقص عليكم حكاية الخطيب التبريزى وما ناله فى سبيل العـلم . حصلت له نسـخة من كتاب الأزهرى المسمى التهذيب فى اللغـة وأراد تحقيق مافى الكتاب ، فدل على المعـرى ، فجعل الكتاب، وهو فى مجلدات، فى مخلاة وحملها على كتفه من تبريز إلى المعرة ، ولم يكن له مايستأجر به مركوبا وسار أربعين يوما حتى وصل معرة النعمان . وقد نفـذ العرق من ظهره اليها فأثر فيها البلل . هـذا أيها السادة هو المثال الذى يجب أن نحتذيه فى طلبنا العلم) . وأعجب الحاضرون بقصة التبريزى، الذين كانوا يعرفونها قبلا مثل الذين كانوا يجهلونها، فدوى المكان بتصفيقهم .

وأقر المجلس بعـد حديث طويل أنه لا يجوز لمن لم ينل من العلم حظا وافرا ومن لم يتحمل المشقة فى سبيله ولم يأخذه عن أئمته أن يتولى التعليم .

وتبين لنـا أن إعداد المعلمين كان دائما موضع عناية خاصـة ذلك لأن المهم فى حياة المدرسة العربية كان دائما المعلم أو الأسـتاذ . فلم يكن طلبة

العلم يعنون بأن يقولوا أنهم تعلموا فى مكان كذا ولكن أنهم قرأوا على الشيخ الفلانى وأجازهم الإمام الفلانى . ومن ثم كان الأستاذ هو عماد الحياة الفكرية ، فمن قلت بضاعته كسدت سوقه وحكم الناس عليه بالهجر .

وتناول الحاضرون بعد ذلك العلوم التى يجب أن يلقنوها طلابهم . وهنا ظهر اتجاهان يكادان يكونان متناقضين . فقد أصر القلائل على الاكتفاء بالقرآن الكريم وعلوم الشرع واللغة والشعر والأخبار فى المدارس . وقال كثيرون بوجوب ضم حساب الهندسة والجبر والمقابلة لتكون معرفة الطالب وافية بالعلوم العقلية والنقلية على أن يختار بعدها الطالب سبيله فى التخصص فيكون عالما فى الشريعة أو فى اللغة أو راوية للأخبار أوطبيبا أو مهندسا . وهذه تتم كلها فى المدارس الفنية . فالبيمارستان يلجأ اليه طالب الطب ومدرسة الهندسة ، كتلك التى فى دمشق ، يقصدها طلاب المعمار ومن اليهم . وقد تكلم فى هذا الموضوع كثيرون وطال التحدّث فيه . وأخيرا تغلب أصحاب الرأى العلمى على الآخرين فأقرت الجماعة وجوب تعليم المباحث المختلفة فى دور العلم حتى لا يبلى شبابنا بمعرفة ناقصة .

هنا أعلن صاحب الصوت الذى افتتح الكلام بأن آخر ما بين أيدى المجتمعين هو بحث العلاقة بين المعلم وطلابه . وعندها تقدم ثلاثة لمعالجة الموضوع . فتكلم الأول عن أجرة المعلم ، وتكلم الثانى عن طريقة التعليم وتحدّث الثالث عن العلاقة الشخصية بين المعلم والمتعلم .

فأما الأول فقد أشار إلى أن المعلم بحاجة إلى كسب العيش إلا من توفر له من المال ما يكفيه . وقد أكد أن الشرع لم يمنع أخذ الأجرة على التعليم ولو على تعليم القرآن . فقد سئل الغزالى فى ذلك فقال إنه للمدرّس أن

يأخذ ما يكفيه ليتفرغ قلبه عن المعيشة ليتجرّد لنشر العلم، وأشار المتكلم إلى أن هذه القاعدة النظرية طبقت عمليا فى الأندلس وفى المشرق . فضلا عن أن المدارس النظامية التى كانت تقوم الحكومات عليها كان يعطى فيها للعلمين مرتبات . وقد أعطيت المرتبات هـذه حتى للطلبة فى المستنصرية وغيرها من المدارس . ويظهر من هذا كله أن لا بأس بأخذ الأجرة إذا دعت الحاجة إليها .

وأما الثانى فقد تناول بحثه أساليب التدريس وطرق التعليم ، فأشار إلى أن لكل صاحب صناعة طريقة خاصة به . ولما كان التعليم من جملة الصنائع فانه أصبح لكل إمام من الأئمة المشاهير اصطلاح فى التعليم يختص به شأن الصنائع كلها ، فقد يلجأ الأستاذ إلى دروسه فيذكرها دون أن يتلعثم ، وهو النوع الصالح للمعاهد العلمية المتقدمة ، وقد يفضل المدرّس أسلوب المناقشة والمناظرة . والمهم فى هذا كله هو أن يكون الشرح أوّلا على سبيل الإجمال ، يراعى فيه استعداد الطالب ثم يستوفى الشرح والبيان بحيث يخرج عن الاجمال ، فإذا تم له ذلك عمِد إلى التفصيل الدقيق الذى لايترك عويصا ولا مبهما ولا مغلقا إلا وضحه وفتح مقفله . أما الطالب فعليه أن يعنى بأمرين: الأوّل أن يحفظ ما أعطيه ويعيه ثم عليه أن ينمى الملكة العلمية . فان الطالب الذى تكون عنايته بالحفظ أكثر من عنايته بتحصيل الملكة لا يحصل على طائل من ملكةِ التصرف فى العلم ولا يحصل شيئا من الفن . والمقصود من العلم أن يصل المتعلم إلى ملكة الاستخراج والاستنباط وسرعة الانتقال والاستحضار .

وتكلم الثالث عن وظيفة المعلم المرشد بالنسبة إلى طلابه ، وكان هـذا الرجل ممن تأثر بالغـزالى إلى حد كبير، فبعد أن أمن على أقوال زميله عن

الأسلوب المؤدى إلى خلق الملكة العلمية قال : عند ما أقلب صفحات الكتب التى حض فيها أصحابها على طلب العلم أجد فيها نصائح كثيرة تدور حول ما يتوجب على المتعلم والمعلم . ولكنى أرى أن نظرات الإمام الغزالى فى هذه المسئلة هى التى يجب أن تكون شعارنا نحن الذين نريد أن نشرف على تربية نشئنا وتقويمه . ذلك لأن هذا الإمام كان يرى أن التلاميذ بالنسبة إلى المعلم أبناؤه، فعليه أن يجريهم مجراهم . فإذا صح ذلك فليس يجوز للعلم أن يدع من نصح المتعلم شيئا وعليه أن يتأكد من إتقانه العلوم الجلية قبل الانتقال إلى العلوم الخفية . فاذا تعرض المتعلم لسوء الأخلاق كان زجره بطريق التعريض والرحمة لا يصرخ ولا يوبخ، وقد خشى الغزالى أن يعمد المتكفل ببعض العلوم تقبيح العلوم الأخرى فنهى عن ذلك . وكان الغزالى يكره القائلين دون أن يعملوا بالقول فأوصى المعلمين بوجوب موافقة القول للعمل فلا يكذب القول الفعل وكان هذا الرجل شديد العناية بأن ينشأ الصغار من الطلاب خاصة تنشئة صحيحة فأوجب على معلميهم أن يمنعوهم من التنعم والزينة وأن يعودوهم الخشونة فى المفرش والملبس والمطعم .

إنتهى الثالث من خطابه، وبذلك انتهت أعمال المؤتمر. وأخذ الحاضرون يخرجون من القاعة وقد بحثوا شؤونهم بحثا وافيا نزيها .

وخرجت وصاحبي فيمن خرج، ولما صرنا فى الشارع اتفقنا على أن هذه المباحثات البعيدة عن الهوى تؤدى ولا شك إلى فهم الأمراض الاجتماعية ومعرفة طرق الإصلاح .

ورأينا فى الشارع قوما يتراكضون فسألنا ما الخبر؟ فقيل لنا : إن تيمورلنك على أبواب دمشق وأنه مزمع أن يحاصر المدينة حتى تدفع له

غرامة كبيرة، فقلنا فى أنفسنا عاد الغريب يزعج بلادنا وأبناءنا وشعبنا، ليته يتركنا لنصلح شؤوننا . ولكن ليت لم تنفعنا، فان تيمور لم يلبث أياما حتى دخل المدينة وفعل فيها الشر الكثير وتركها طعمة للنهب والسلب. لكن آثار مؤتمر المعلمين تغلبت حتى على غزوة تيمور .

٥ — كُتَّاب

انقطع صاحبي عنى فترة طويلة من الزمن ، فلم تصلنى أخباره ولم أدر ماذا جرى له . مرت على ذلك سنوات حتى هبطت قاهرة المعز فى شتاء السنة ٨٠٠ للهجرة، وحللت فى أحد الفنادق الكبيرة. وكنت فى أحد جالسا فى غرفتى أفكر بشئونى نخطر ببالى صاحبي فتمنَّيتُ على الله أن أقابله إن كان فى مصر . وما كدت أعرض لهذه الأمنية حتى شعرت بدافع يقودنى إلى الخروج، فلبيت نداءه . ووجدتنى بعد ساعة أسير فى شوارع القاهرة على غير هدى حتى وصلت مسجد السلطان حسن. فراعتنى ضخامته، حتى لكأننى أراه لأول مرة، فدخلته لأمتع نفسى برؤية هذا الأثر النفيس . فلم أكد أصعد درجاته الخارجية حتى رأيتنى وجها لوجه مع صاحبي . وحسبتنى باديءَ ذى بدء فى حلم، لكننى أدركت أننى فى يقظة . فسلمنا وتحدثنا قليلا ونحن وقوف، ثم قادنى إلى داره فدخلتها، فإذا بها رحبة واسعة فيها فرش جميل وأثاث أنيق ، وقد لفت نظرى مظهرصاحبي قبلا ، فأنا لم أكن أراه إلا مشعث الرأس أغبر الوجه تبدو عليه أمائر التنقل والأسفار، أما اليوم فإنه يرتدى طيلسانا واسع الأردان ويعتم بعمة أنيقة وثيابه نظيفة ويفوح منه بدل رائحة التراب عبيرالمسك . لكن شوقى إلى صاحبي وتطلعى إلى معرفة أخباره منعانى من التسآل عن مظهره .

واستقر بنا المجلس فى داره فدعا بشراب هو عصير فواكه ساخن ، وأخذ يسألنى عن حالى وغايتى وقصدى وخبرى حتى استقصى كل ما يريد ، وكان الظلام قد هبط على المدينة فاستأذنت صاحبى فأقسم ألا أقمت عنده ضيفا ما دمت فى مصر . وكنت أحب ذلك ، فلم أمانع . وجاء بالطعام المنوّع الأشكال المتعدّد الألوان فأكلنا شبعنا ثم تنقلنا وتفكهنا بالفاكهة والأخبار . فلما تم ذلك كله ، نظرت إلى صاحبى وفى نفسى سؤال . لكنه لم يمهلنى . فقد بدأ هو الحديث بقوله "لعلك تريد أن تعرف سر ما أنا فيه من نعمة"؟ فابتسمت ولم أقل شيئا . فصمت لحظة ثم قال " أنا يا أخى اليوم كاتب فى ديوان الإنشاء . ولى مرتب شهرى قرابة ثلاثين دينارا " ولم أكتم أننى استغربت ذلك ولكن صاحبى طيب خاطرى بقوله " إن العمل فى ديوان الإنشاء عمل كبير الخطر ، وأنا إنما قبلته لأننى أستطيع عن طريقه أن أقوم بخدمة لبلادى وأمتى . فلا تحسبنى أنى موظف قبلت العمل لا أملك شروى نقير ، فأنت تعرف أنى بحمد الله كنت أحصل من تجارتى ما لا يقل عن أجرى . ولكن لى حكاية تتعلق بعملى فى الديوان لعل فى قصها عليك تطييبا لخاطرك" . فقلت هات ، فاعتدل صاحبى فى جلسته وحدّثنى قائلا :

" أودّ قبل كل شىء أن أذكرك بالعمل الذى يقوم به ديوان الإنشاء بالنسبة للدولة والإدارة الحكومية ، فلعلك لانقطاعك إلى كتب الفلسفة نسيت ما فى الدنيا وغيرها من شؤون . فاعلم يا أخى أن صاحب الديوان تمرّ من تحت يديه الأمور التالية : التعيين والتوقيع والإشراف على الكتب والعناية بالبريد والحمام واختيار العيون الذين يوافون السلطان بأنباء أعدائه وتعهد المناور والمحرقات فى أنحاء المملكة . فأنت ترى من هذا أنه لا يستطيع أن

يغفل شيئا من وسائل توصيل الأخبار إلى الحكام أو الحصول على الأخبار منهم ".

فإذا وثقت من خطر هذا الديوان انتقلت بك إلى رواية القصة المتعلقة بعملى هنا ، فأمنت على كلامه وعندها استمرّ فى حديثه "كنت فى إحدى سفراتى بين غزة والإسكندرية فى مركب للجنويين . وكان فيه عدد كبير من الركاب ، على عادة هذه المراكب ، فلفت نظرى منهم ثلاثة لم يكونوا فى هيئة من التجار ولا زى الحجاج، ورأيتهم ينفقون عن سعة ، فأخذت نفسى بمراقبتهم. وفى ليلة صفا جوّها وطاب هواؤها خرجت إلى ظهر المركب لأستمتع بالمنظر فرأيت الثلاثة فى زاوية يتهامسون . فاضطربوا لظهورى لكنهم لم يلبثوا أن عاودهم هدوءهم وعادوا إلى حديثهم . فلعلهم اطمأنوا إلى أنى لا أفهمهم . وهنا كان خطأهم . فإننى قد تعلمت شيئا من هذه اللغة لكثرة ما سافرت وتنقلت ، وفهمت من حديثهم أنهم عيون للأجانب يريدون أن يهبطوا بلادنا ويتعرّفوا شؤونها وأمورها . فصمت وراقبتهم كثيرا دون أن يلحظوا ذلك ، حتى انتهت الرحلة فنزلنا فى الاسكندرية وعرفت أى فندق قصدوا فأسرعت إلى صاحب الثغر فأخبرته بالأمر فقبض عليهم وبعث بهم إلى عاصمة السلطنة وجئت معهم . وهناك نظر فى أمرهم فثبتت التهمة عليهم وحوكموا، وسجنوا ".

" وكان من الطبيعى أن أتصل بصاحب ديوان الإنشاء لأنه المعنى بالعيون والجواسيس وما يحملون من الأخبار . وقد تحدّثنا كثيرا حول أنواع مختلفة من الأعمال التى يجوز أن تتم فى الديوان . وعندها عرض علىّ أن أعمل فى ديوانه . وقد تردّدت بادئ ذى بدء لأننى لا أريد أن أتقيد بمكان

وزمان وعمل . فأنا أحب التنقل والسفر والحرية . لكن صاحب الديوان قال لى على سبيل الإقناع "أنت تعرف لغة أجنبية و بذلك تستطيع أن تتعرف إلى هؤلاء الناس الذين يصلون إلى بلادنا بحجة الرحلة والحج وهم عيون للعدو علينا وقد كثر عددهم مؤخرا . وأنت كثير الأسفار لذلك تعرف الطرق والأماكن فيمكنك أن تؤدّى لنا خدمة كبيرة فى شؤون البريد، فليس يسيرا علينا أن يكون فى ديواننا من يعرف هذا كله . وأنت بعد كاتب بليغ فنحن نأمن زلة من قلمك ، ولا ريب فى أن اشتغالك بالتجارة وتقلك أطلعك على شؤون كثيرة للصناعة وموادها وأسعارها و رسومها و جماركها وجعلها ، ولذلك تمكن من الإشراف على ناحية من نواحى المالية فى ديواننا". وكانت كلمات صاحب الديوان هذه مغرية فوعدته بالتفكير، وبعد أن أعملت الفكرة قبلت فما يجوز لأمرئ أن يتقاعد عن أداء واجب لقومه وبلاده . وها قد مرت على أربع سنوات وأنا أعمل فى هذا الديوان . وأؤكد لك أن العمل فيه لذيذ".

كان الليل قد امتدّ بنا ولكنى لم أشعر بتعب ، ولم يشعر صاحبي به ، فعدنا إلى التحدّث . وأردت أن أعرف عن الديوان أشياء وأشياء فسألت صاحبي فأجاب وما بخل . واتفقنا على أن الكتابة بحدّ ذاتها صناعة عقلية تتفق والميول الأدبية فمادتها ألفاظ يتخيلها الكاتب و يضم بعضها إلى بعض فتصوّر صورا تامة هى بنات أفكاره، وغايتها انتظام جمهور المعاون والمرافق العظيمة العائدة بالفائدة الجسيمة . ورأينا أن الملك تنتظم أموره فى ثلاثة أشياء : أولها رسم ما يجب أن يرسم للعمال والمكاتبين . وثانيها استخراج الأموال من وجوهها واستيفاء الحقوق السلطانية فيها . وثالثها تفريق الأموال فى مستحقها من أعوان الدولة وأوليائها ، وهذه الأعمال كلها يقوم بها الكتّاب ، ولا تتم بدون كتّاب ماهرين .

وسألت صاحبي عن الصفات المرجوة فيمن يتولى عملا من أعمال الكتابة الخطيرة فأطرق صاحبي كأنما يستعيد شيئا مر به، ثم قال : يذكرني سؤالك هذا بمحادثة مرت فى الديوان . ذلك أن أحد كبار المشتغلين بصناعة العلم ومن أصحاب العلم الواسع تقدم للعمل فى الديوان ، ولكن حالت صفاته الخلقية دون قبوله . فالعمل فى الديوان يتطلب صفات خاصة ، فمنها أن يكون عدلا . فالعدالة لازمة لمن يحكم فى أرواح الناس وأموالهم ، ويجب أن يتوفر فى الكاتب الرأى الجزل والعقل ، فيعرف كيف يضع الأمور فى مواضعها والمسائل فى حدودها . وعليه أن يكون كفوءا لما يتولاه . فإن العاجز يدخل الوهن فى أمر قومه ويدخل الضرر على المملكة . هذا فيما يخص صفاته العقلية والخلقية ، وثمة صفات عرفية يجدر به أن يتحلى بها كدقة الحس وجودة الحدس وحلاوة اللسان والشمائل وملاحقة الزى ونظافة المجلس ورقة الحاشية . و إلى هذا كله فإنه ينتظر منه أن يكون حسن السيرة شريف المذهب يعتمد تقوى الله فى الأسرار والاعلان و يضمر صلاح النية لما يتولاه من أمور السلطان وقصد النفع العام و يتجنب الريب ويتنزه عنها و يلزم العفاف والصيانة فيما يتولاه من أعمال السلطان . وقد يعرض للكاتب أن يعاشر من هم فوقه ومن هم أكفاؤه ومن هم دونه . فعليه أن يعرف لكل عشير حقه وأن يضع علاقاته معهم فى مواضعها . فيكتم السر إن بيح له به ويشكر عند الشكر ويفى عند الحاجة و يتجنب الأدلال . فأنت ترى من هذا أن من يكتب فى الديوان يجب أن يتحلى بالكثير من الخلال الفاضلة والصفات الطيبة .

وهممت بالاكتفاء ولكن صاحبي أصر على أن نتابع الحديث ، فهذه ليلة قد لا تعود ، فقد يشغل صاحبي أياما بلياليها فى عمله إذا تأزمت الأمور

واشتدّت ، سيما وأن العـدوّ محيط بنا من نواح كثيرة ، فالتتار يهدّدون شمال سوريا والإفرنج يهدّدوننا من البحر . فقبلت من صاحبي طلبـه ، وجدت عليه بسؤال عما ينتظر من الكاتب أن يعرفه حتى يتسنى له أن يعين فى عمل من الأعمال فى ديوان الإنشاء . فأجاب صاحبي " الكتّاب على أنواع وكل نوع منهم بحاجة إلى نوع من المعرفة يتناسب مع عمله . فأعمال ديوان الإنشاء على ما تعرفها اليوم على سبعة أنواع كلها كتّابية : فثمة كاتب ينشئ ما يكتب فى المكاتبات والولايات ، وهناك كاتب يتولى مكاتبات الملوك عن ملكه . وثالث يكتب إلى أهل الدولة وكبرائها وولاتها ووجوهها . ورابع يكتب المناشير والكتب اللطاف والنسخ . وخامس عمله أن يبيض ما ينشئه المنشئ . وسادس يتصفح ما يكتب فى الديوان . وسابع يكتب التـذاكر والدفاتر ، وأنت ترى التفاوت بين هذه الأنواع . ومن ثم كان ما يجب أن يعرفه كل واحد يختلف اختلافا كبيرا عما يعرفه الآخر ".

وخشيت أن يصمت صاحبي فأخجل من تكرار السؤال فلا أصـل إلى بغيتي . لكنه لم يصمت إلا ليستريح قليلا ، ثم عاد إلى الكلام فقال : على أنه ثمة بضعة أمور يجب أن يعرفها جميع الكتّاب ثم يعنى كل بناحية خاصة من نواحي حياته . لكن الواقع أن صاحب ديوان الانشاء فى هـذا البلد يجب أن يحيط كل عامل فى ديوانه بشعاب المسائل ليتمكن من القيام بأى عمل يعهد إليه به ، دون أن يضطرب أو يحار ، وهو فى هـذا يجرى على سنن السلف الصالح .

فابن قتيبة مثلا يجب أن تتوفر فى الكاتب معرفة أمور اللغة والتصريف والنظر فى الأشكال لمساحة الأرضين والزوايا والمثلثات والمربعات ، ويجب

على رأيه أن تمتحن معرفة الكاتب بالعمل فى الأرضين لا فى الكتابة بالدفاتر. ومن الضرورى أن يعرف الكاتب إجراء المياه وحفر فرض المشارب وردم المهاوى ومجارى الأيام ودوران الشمس وحال القمر ونصب القناطر والجسور والنواعير، وإلا نقصت كتابته. أما الوزير ضياء الدين بن الأثير فزاد على ذلك بأن صاحب صناعة الكتابة يحتاج إلى معرفة ماتقوله النادبة بين النساء والماشطة عند جلوة العروس وما يقوله المنادى فى السوق على السلعة.

ومن الواضح أنه ثمة فرق بين استعمال الكاتب لأنواع المعرفة، فاللغة والبيان سبيله فى كل أمر، فهو محتاج إليهما بطريق الذات. أما العلوم الأخرى فإنما يحتاج إليهما بطريق العرض كالطب والهندسة والهيئة ونحوها من المباحث، فإذا تناول عمله العناية بشؤون الجند أو الرماة أصبح من الضرورى أن يعرف مصطلح رماة البندق وما إلى ذلك.

" إلا أنه مما لا ريب فيه أن الكاتب يجب أن تكون له معرفة بالعلوم الشرعية، لأنها قوام الدولة ".

كان الليل قد انتصف أو كاد، وكنا قد أدركنا النعاس، ولكن قبل أن نأوى إلى الفراش إذا بطارق ليل ففتح صاحبي له فدخل شاب يحمل بين يديه دفاتر كثيرة. فقلبها صاحبي وأعجب بتنظيمها ثم التفت إلىّ وقال: (كنت أعتزم أن أصحبك غدا إلى الديوان لترى بعض ما يعمل فيه، ولكن جزءا من الديوان نفسه جاء إليك. فهذا الكاتب كلف أن يتم عملا كان قد تركه سلفه الذى أرسل إلى دمشق قبل أسبوعين وهاهو قد أتمه وحمل الدفاتر إلىّ لأراها. فانظر).

قال صاحبي هذا و بسط بين يدى الدفتر الأول فإذا به يحوى ألقاب الولاة وغيرهم من ذوى الخدم وأسماءهم وترتيب مخاطباتهم. ثم طواه وفتح

الثانى فإذا فيه تذاكر تشتمل على مهمات الأمور التى تنهى فى ضمن الكتب وبذلك يسهل الرجـوع إليها بدل التفتيش عنها فى الأضابير . فلما انتهينا إلى الدفتر الثالث وجدت فيه الحوادث العظيمة مما يجرى فى المملكة ، ثم جاء دور الدفتر الرابع فإذا به يحوى فهرستا للكتب الصادرة والواردة مفصلا مسانهة ومشاهرة ومياومة . وكان فى الدفتر الخامس فهرست للانشاءات والتقاليد وما إليها . ولكن لما وصلت إلى الدفتر الأخير وجدت شيئا أثار دهشتى حقا . فقد كان فيه فهرست لترجمة الكتب التى تردّ على الديوان بغير اللسان العربى من الرومى والفرنجى وغيرهما . ومع كل كتاب معناه واسم مترجمه .

أعجبت بهذا الذى رأيت ، فنظر إلىّ صاحبى مزهوا وقال " بمثل هذه التنظيمات استطاع ديوان الانشاء هنا أن تضبط أموره ومن ثم أمور الدولة " .

فقلت لصاحبى " لقد كنت أعرف من قبل أن ديوان الانشاء له قيمة فى حياة الدولة وأنه له نظام يسير عليه ، لكننى ما كنت أعرف أنه بلغ هذه الدرجة من الدقة . فما أكبر الفـرق بين نظام الديوان البسيط كما وضـعه عمر بن الخطاب وبين هذا التركيب والتعقيد الذى نراه فى ديواننا هذه الأيام " .

فابتسم صاحبى كأنه أراد بابتسامته أن ينال منى لجهلى ، على زعمـه ، ثم قال " لعلك لم تنس أنه قد مرت قرابة ثمانى مائة سـنة على ذلك العهد ، وقد اختبر الناس من شـؤون الدولة والحكم الشىء الكثير . ولا يجـوز أن تذهب اختبارات الناس عبثا . فدواوين دمشق وبغداد وقرطبة والقاهرة وتونس كلها كانت لها أنظمة وقوانين وهـذا ابن مماتى قد كتب كتابا سماه قوانين الدواوين . والذى أريد أن أذكرك به هو أن تنظيم ديواننا هو خلاصة لكل ما عرفه هؤلاء الحكام وزبدته " .

وجمع صاحبي الدفاتر ليناولها للشاب الذى كان هنا فسقط منها واحد على رجلى فآلمنى ومددت يدى أتحسس موضع الألم فوجدت رجلى متخدّرة ووجدتنى مكبا على مكتبي وقد غلبنى النعاس وأمامى كتاب صبح الأعشى للقلقشندى فقرأت فيه .

لما كان أرباب الأمور وولاتها من الخلفاء فمن دونهم ينقدون مايكتب به الكتّاب عنهم وما يرد عليهم من الكتب ويناقشون على ما يقع فيها من خطأ أو يدخلها من خلل ويقدّمون الفاضل ويرفعون درجته ويؤخرون الجاهل ويحطون رتبته كان الكتّاب يتبارون على اقتناء الفضيلة ويترفعون عن أدنى رذيلة ويجهدون فى تحسين ألفاظهم وتزيين مكاتباتهم .

" أما الآن فقد انعكست القضية . فقدّم من غلط بهم الزمان وغفل عنهم الحدثان واستولت عليهم شرة الجهل ونفرت منهم أوانس الفضل وصار العالم لديهم حشفا والأديب محارفا والمعرفة منكرة والفضيلة منقصة والصمت لكنة والفصاحة هجنة اجتنبت الآداب اجتناب المحارم وهجرت العلوم هجر كبار المآتم " .

قرأت هذا وفكرت ثم قلت فى نفسى " ما أشبه الليلة بالبارحة " .

٦ — عزلة الإمام الغزالى ببيت المقدس

جاءنى صاحبي وقد قارب وقت أذان العصر، وقال دون أن يجلس ، (هيا بنا نحضر حلقة الوعظ ودرس التفسير فى المسجد الأقصى) وكان من عادتنا ، إذا جاء رمضان ، أن نواظب على حضور هذه الحلقات لما فيها من علم وموعظة ، فقلت له (استرح قليلا ، فالوقت أمامنا بعد متسع) .

ولكن صاحبي أبى أن يجلس وألح على بالذهاب حالا ، فقد بلغه أن حلقة الوعظ حظيت اليوم بإمام كبير ولا شك أن الزحام سيكون شديدا ، لأن الكل حريص على أن يفيد من علمه . ورأيت صاحبي، وهو الهادئ عادة، مضطربا راغبا فى الإسراع فأسرعت بارتداء ملابسى وخرجنا معا . وقد حدث ما توقعه صاحبي ، فلم نكد ندخل ساحة الحرم حتى رأينا الناس يتراكضون نحو إيوان المسجد الكبير، فأسرعنا الخطى ، ويسر لنا هذا أن نجلس فى الصفوف الأمامية . لكن الإمام الكبير لم يكن قد دخل المكان، فأخذ الناس يتحدثون عنه وعن غزارة علمه . وكان إلى جانبنا رجل عليه سيماء المهابة والجلال ، يزينهما هدوء . فالتفت إليه وسألته إن كان يعرف هذا الإمام الذى ننتظر ، وهذا العالم الكبير الذى سيحدثنا . فأجاب أنه عرف عنه الكثير . فهو أبو حامد الغزالى، ولد بطوس ودرس بالنظامية ببغداد فكان له فيها ثلاثمائة من الطلاب ، ثم مالت نفسه إلى ترك العمل هناك والاعتزال لنتعرف إلى الطرق العملية للصوفية فرحل إلى دمشق ثم جاء بيت المقدس فكان يدخل منارة جامع دمشق ويقضى فيها سحابة نهاره . أما فى بيت المقدس فكان يدخل قبة الصخرة ، فيغلق عليه بابها ساعات طويلة يتأمل ويذكر ، وقد مرت عليه شهور وهو على هذه الحال ، لكنه لم يعقد حلقة وعظ ولم يشهد له الناس درسا ، ولا يعرفه إلا القلائل ممن يثابرون على المجىء إلى هذه الأماكن المقدسة .

بدأ الإمام حديثه بذكر الله والثناء عليه، ثم قرأ الاية الكريمة ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ . وروى أنه لما سئل النبى الكريم عن معنى قوله تعالى هذا أجاب « هو نور يقذفه الله تعالى فى القلب » .

فقيل : وما علامته ، فقال «التجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود» . فلما انتهى من رواية الآية الكريمة والحديث الشريف انتقل إلى تفسيرهما . وكان أساس تفسيره اختياراته الشخصية . فإنه ، على ما فهمنا منه سلخ زمنا طويلا من عمره وهو يقاسى الصعوبات فى سبيل استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق . وقد خاض لجة هذا البحر خوض الجسور لا خوض الحذور ، وتوغل فى مدلهمه وتهجم على كل مشكلة وتقحم كل ورطة . وقد كانت المشكلة الأولى التى عرضت له هى تخليص حقيقة الفطرة الأصلية من حقيقة العقائد العارضة . ففتش عن علومه ومعرفته فشك فيها ، شك فى المحسوسات ، وشك فى المعقولات ، وشك فى وسائل هذه وتلك . وانحصرت أصناف طالبي الحق عنده فى أربع فرق هم المتكلمون والباطنية والفلاسفة والصوفية . وتناول أصحاب هذه الفرق وذكر كيف درس أبحاثهم وعرف طرائقهم ، وكان المتكلمون أول من هاجمهم . فقد طالع كتبهم فصادف علمهم غير واف بمقصوده ، فتركهم وتركه ، وانتقل إلى الفلاسفة .

كان الغزالى إلى الساعة يتكلم بهدوء ، فلما وصل إلى الفلاسفة أخذته حماسة الخصومة . فقد كلفته دراسة الفلسفة كثيرا من الجهد ، ذلك أنه أقبل عليها وهو مبتلى بالتدريس والإفادة ببغداد ، فكان يختلس من أوقات فراغه على قلتها ، ساعات يقرأ فيها كتبهم ، فوجدهم أنهم موصوفون بالكفر مشمولون به ، على اختلاف أصنافهم . أما علومهم فهى علوم حسية سواء فى ذلك رياضياتهم ومنطقياتهم وطبيعياتهم وإلهياتهم . ولذلك يجب تحذير الكافة من قراءة كتبهم والعمل على الرد عليهم وذكر المحدث أنه ألف مقاصد الفلاسفة وتهافت الفلاسفة ليثبت بطلان آرائهم وسقم تفكيرهم .

وأما التعليميون فلم يهتم بهم كثيرا ، فهم على رأيه ، لا حاصل عندهم ، واكتفى بأن أشار على من يريد أن يعرف بطلان رأيهم وزيفه أن يقرأ ما كتبه هو ضدّهم من أمثال المستظهرى وحجة الحق والجداول والقسطاس المستقيم .

كان الجهد قد بلغ من محدّثنا درجة كبيرة ، فصمت دقيقة أو اثنين كأنه يستعيد نشاطه ، أو يراجع ذاكرته ، ثم استانف كلامه . وكأنه أحس أن المستمعين شعروا أنه بعد عن الآية . والحديث وتفسيرهما ، فاستماحهم عذرا على الاطالة ، وذكرهم أنه إنما يفسر عن شعور واختيار شخصى لا عن علم تقليدى ، لكن الحاضرين لم يملوا لأن كلامه كان طليا عذبا ، وكان يتدفق فى حديثه كالسيل ، ذلك لأنه يحدّث عما مر به ولا ينقل شيئا مما قاله السلف ، ولو أنه صالح .

عاد إلى حديثه فقال : ثم إنى لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتى على طريق الصوفية ، وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل ، وكان حاصل عملهم قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله . ووصف كيف أنه قرأ كتبهم واطلع على كنه مقاصدهم وحصل ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعليم والسماع وأدرك أنهم أرباب الأحوال أصحاب الأقوال ، وأن الذوق والحال هو سبيلهم الى العلم . وأدرك الغزالى ، على ما اعترف هو ، أن أسس الإيمان عنده ثلاثة حصل عليها بالشعور والحس وهى الايمان اليقينى بالله تعالى و بالنبوّة و باليوم الآخر .

وهنا أقبل الغزالى على الحاضرين يصف لهم كيف تصادمت فى نفسه رغباته القلبية برغبات الدنيا ، وكيف تشاد الزهد والحياة الناعمة فى أعماق

روحه ، فهو يطمع فى سعادة الآخرة ويعرف أن التقوى وكف النفس عن الهوى سبيلها ويدرك أن رأس ذلك كله التجافى عن دار الغرور والانابة إلى دار الخلود والإقبال بكنه الهمة على الله، وهذا لايتسنى له إلا بالاعراض عن الجاه والهرب من الشواغل والعوائق . يعرف هذا كله ويدركه لكنه يلتفت حوله فاذا به منغمس فى العلائق ، و إذا بأحسن أعماله وهو التدريس يشغل وقته فيه بعلوم غير مهمة ولا نافعة فى طريق الآخرة . بل هو يبحث عن نيته فى عمله فإذا هى غير خالصة بل باعثها ومحركها طلب الجاه والشهرة وانتشار الصيت وذيوعه . فإذا قابل الرغبة فى سعادة الآخرة وطرقها بحاله الواقعية رأى نفسه على شفا جرف هار . ويخطر له أن يخرج من بغداد ويعتزل الناس ويفارق تلك الأحوال ، ولكن الدنيا تغريه فيقدم رجلا ويؤخر أخرى . فإذا صدقت رغبته فى طلب الآخرة بكرة حملت عليها جند الشهوة عشية ، فتفتر الهمة . فكانت شهوات الدنيا تجذبه إلى المقام ومنادى الإيمان يدعوه إلى الرحيل ، وينعقد منه العزم على السفر الطويل ، ليتخلص من رياء علمه وتخييل عمله ، والشيطان يهمس فى أذنيه هذه حال عارضة إياك أن تطاوعها ، فإنها سريعة الزوال . فان أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض والشان المنظوم الخالى من التكدير والتنغيص والأمن المسلم الصافى من منازعة الخصوم ربما التفتت إليه نفسك ولا يتيسر لك المعاودة .

وعاد إلى الصمت يستجمع قواه ، فقد كانت كلماته تخرج من أعماق نفسه ، وكأنها قطع من قلبه ودمه . ذلك أنها كانت تصور جهاد نفسه فى سبيل الحصول على هذا النور الذى يقذفه الله فى قلب المرء . فلما عادت إليه قوته عاد إلى الحديث فروى كيف دام هذا التجاذب فى نفسه بين شهوات

الدنيا ودواعى الآخرة ستة أشهر ، وكان من نتيجته أن أقفل على لسانه حتى اعتقل عن التدريس ، فكان يجاهد نفسه أن يدرس يوما واحدا تطييبا للقلوب المختلفة اليه ، فكان لسانه لا ينطق بكلمة واحدة حتى أورثت عقلة لسانه حزنا فى قلبه ، بطلت معه قوة الهضم ومراءة الطعام والشراب . فلا هو يستسيغ الثريد ولا تنهضم له لقمة . عندها صح عزمه على الخروج من بغداد وسهل على قلبه الإعراض عن الجاه والمال والأولاد . ولكن أين يتجه ؟ وماذا يقول للناس ؟ فهو يريدها عزلة خالصة لله ، دون أن يعرف الناس لها سببا . إن الشام بلد تصح فيه الوحدة والعزلة ولكن ليكن عذره أمام الناس أنه خارج إلى مكة ، وفى نيته أن لا يعود إلى بغداد أو طوس . قال الغزالى " ففارقت بغداد وفرقت ما كان معى من المال ولم أدخر إلا قدر الكفاف وقوت الأطفال . ثم دخلت الشام وأقمت به قريبا من سنتين لا شغل لى إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة ، اشتغالا بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى كما كنت حصلته من علم الصوفية ، فكنت أعتكف مدة فى مسجد دمشق فأغلق على نفسى باب المنارة ، وها أنا هنا فى بلدكم ، أفعل مثل الذى فعلته بدمشق " .

صمت المحدث مرة أخرى ، وطال فى هذه المرة صمته ، حتى خشينا أن يكون قد انتهى ، ونحن نريد أن نسمع منه بعد أشياء وأشياء . وكان الرجل قد أضناه الجهد الذى بذله فى حكاية حاله ، إذ استذكر مع الرواية ما كان قد مر به فعلا ، وساد المكان سكوت عميق حتى كأن الناس على رءوسهم الطير .

وخرج من أحد جوانب الإيوان الكبير صوت ، رنان قال صاحبه (شوقتنا يا سيدى ، ثم وقفت بنا فى منتصف الطريق ، فهلا أخبرتنا بربك

ما أفدته من الصوفية) . فأومأ الإمام الغزالى إيماءة من يطلب الصبر قليلا، ثم لم يلبث حتى عاد يتم قصته، وكان هذا الجزء منها لا يقل روعة عما سبق . فهذا الغزالى المتصوّف يعلم يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وأن سيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق . بل لقد زادنا الغزالى بقوله " لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلا، فإن جميع حركاتهم فى ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوّة . وليس وراء نور النبوّة على وجه الأرض نور يستضاء به " .

وإذن فقد وصل الغزالى فى خلوته وتصوّفه إلى ما أراد ، وشعر بالنور يقذف فى قلبه، فأدرك الأمور إدراك ذوق وإيمان . بله العلم اليقينى، وجاءه ذلك من مجالسة الصوفية وسلوك سبلهم . ولكن وجه الطرافة فى هذا الجزء من قصة الغزالى هو أن هموم الحياة لم تفارقه فى هذه السنين ، فحوادث الزمان ومهمات العيال وضرورات المعاش كانت تغير فى وجه المراد وتشوّش صفوة الخلوة . فلم يصف له الحال إلا فى أوقات متفرّقة ، لكنه كان كلما دفعته العوائق عن الخلوة عاد إليها مجدّدا قوّته .

وما كاد الغزالى يصل هذا الحدّ حتى سأله سائل عما ينوى أن يفعله فى حياته الباقية، بعد أن طلب إلى الله أن يمدّ فيها . فاغرورقت عينا الإمام بالدموع ثم مسحها وأجاب سائله إجابة طويلة عرض فيها لخطته المستقبلة أو ما يرجوه فى حياته . فقد تحرّكت فيه داعية فريضة الحج، فهو يعتزم أن يزور رسول الله ويستمد من بركات مكة والمدينة . وقد يعرج على القاهرة

والإسكندرية ليستمع من علمائها وفضلائها ، وهو يحس بجاذب يدعوه إلى الوطن ، وهو إن عاد ، وقد يعود ، فسيعنى بنشر العلم ولكن على غير ما كان يفعله ببغداد . فقد أفاد من خلوته كثيرا ، فقد رأى فتور الاعتقادات فى أصل النبوّة ثم فى حقيقة النبوّة ثم فى العمل بما شرحته النبوّة . وعرف أن أسباب ذلك كله ترجع إلى أن المشرفين على التعليم بعيدون عن الذوق والفهم الصحيح . واعتزم لذلك أن يكشف هذه الشبهة و يفضح أولئك المتفلسفين والمتكلمين والمتوسمين من العلماء ، فما يجوز لمن يعرف مثل معرفته أن يقبع فى جحره ويخلو ويعتزل الناس وقد عمّ الداء ومرض الأطباء ، و إذن فالغزالى سيشتغل بكشف هذه الغمة ودعوة الخلق إلى الحق . إن النور الذى قذفه الله فى قلبه سيحاول أن ينشره هو فى قلوب الناس .

كانت الشمس قد آذنت بالمغيب وآن للناس أن يرجعوا إلى بيوتهم انتظارا لأذان المغرب . فما كاد ينتهى حتى أخذوا يخرجون زرافات ووحدانا وهم فى تفكير عميق فى هذا الذى سمعوا .

وطرق أذنى دوى هائل ، فذعرت وانتبهت ، فإذا هو مدفع السحور و إذا أنا قد غفوت على مكتبى ، ففتحت عينى فوقعتا على (القسطاس المستقيم) (تهافت الفلاسفة) و (المنقذ من الضلال) للإمام أبى حامد الغزالى .

العرب فى جزر البحر المتوسط

(١) الفتـــوح . (٢) العمران . (٣) بلاط روجر.
(٤) ابن جبير فى البحر المتوسط . (٥) بين سورية وصقلية .

١ — الفتـــوح

كانت فتوح العرب الأولى برية ، وقد كان ذلك طبيعيا . فإن العرب خرجوا من الجزيرة فقابلتهم ســوريا والعراق ، فلما انتهوا منهما انتقلوا إلى ماوالاهما من الأقطار . وكان عمر بن الخطاب يكره أن يفصل بينــه وبين المحاربين ماء فلم يسمح لهم بخوض عبابِ البحر المتوسط إلى الجزر القريبة من شواطئ سوريا . فلما ولى الخلافة بعده عثمان بن عفان تغيرت الحال ، فقد أذن لمعاوية بالمسير إلى قبرص . وكتب إليه فى ذلك "لا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم خيرهم ، فمن اختار الغـزو طائعا فاحمله وأعنه" فاستعمل معاوية على البحر عبدالله بن قيس الحارثى ، فغزا قبرص سنة ٢٨ هـ . واحتلها وصالح أهلها على سبعة آلاف دينار وعلى أن لايغزوا العرب ، وأن يؤذنوهم بمسير عدوهم من ورائهم .

وكانت غزوة قبرص فاتحة لسياسة الفتح البحرية ، وساعد هذه السياسة على النمـوّ بسرعة كبيرة واقعة ذات الصوارى . ذلك أن ملك القسطنطينية جمع أسطولا كبيرا ، يروى أنه كان فى خمسمائة مركب ، وسار يقصد مصر ليستردّها . ولكن يقظة معاوية وحيطته كانتا قد دفعتاه إلى الاحتفاظ بمـا يجوز أن يسمى إمارة بحرية وعمارة تستطيع دفع الأذى ؛ فخرج معاوية بها وقد التقى بعبد الله بن أبى سرح والى مصر لعثمان بن عفان ، وكان عبد الله عندها أمير البحر . فكانت ثمـة وقعة بحرية كبيرة انتصر فيها العرب وردّوا

لمغيرين . وهذه المعركة هى التى أيقظت فى العرب روح المخاطرة البحرية، ونبهتهم إلى وجـوب الحيطة فى شرق البحـر الأبيض المتوسط ، فاحتـلوا أو أتموا احتلال جزيرة رودس بل لعلهم غزوا كريت فى هذه الفترة، ولكن الغزوة لم تنته بالفتح المستقر .

ويرجع الفضل فى إعداد الوسائل والمعدّات للسياسة البحرية العربية إلى الأمير حسان بن النعمان وزير الدولة الأموية . ذلك أنه بعـد أن دان شمال أفريقيا بالطاعة للعرب ، أنشأ حسان بفناء قرطاجنة دار الصناعة لبناء السفن والأساطيل وصنع الأسلحة وجلب لها الصناع من مصر ، وسار على منهاجه طارق بن زياد لما ولى المغرب . ولمـا تم للعرب ملك الأندلس أنشأ أمراؤها دور الصناعة فى طراكونة وأشبيلية والمرية ، فكان لهـم من ذلك أساطيل قـوية تنشأ فى أفريقيا والأندلس ، فتعرضت جزر البحـر المتوسط وشواطئ إيطاليا وجنوب فرنسا لغزواتها مدّة طويلة من الزمان .

واحتلال العرب لجـزر البحر المتـوسط واتخاذها مراكز للغـزو يكون فصولا من أمتع ماعرف من تاريخ المغامرات البحرية ، وقد نبغ فى تلك العصور مجموعة من أمراء البحر العرب كان لهم شأن فى تقرير السياسة البحرية وتعيين طرق المراكب التجارية . ولا شك أن فى مقدمتهم المفرج بن سلام وليـون الطرابلسى، وهما يجب أن يوضعا فى صف خير الدين بربروسا وفرنسيس دريك ومن شاكلهما .

وقد أشرنا قبـلا إلى أن كريت تعرضت لغزو العرب فى دور الفتوح الأول . لكن فتح هذه الجزيرة تأخر حتى أوائل القرن الثانى للهجرة (التاسع لميلاد) . وتمّ على أيدى جماعة من الأندلس ، وحكاية هذه الجماعة طريفة .

ذلك أن ثورة قامت فى قرطبة ضد الحكم أميرها، فقام الحكم بإخمادها وفرق الثوار ثم أمر من بقى منهم ، وهم كثرة ، بالخروج من الأندلس . فانصرف بعضهم إلى فارس واتجهت جماعة إلى الاسكندرية فتغلبت عليها ، وكان عددهم، فيما روى الراوون، خمسة عشر ألفا . ثم جاءهم والى المأمون على مصر فغلبهم وأخرجهم وزودهم بالسفن والعتاد ووجههم إلى كريت، وعلى رأسهم زعيمهم أبو حفص عمر البلوطى . فلما وصلت سفنهم إلى كريت ونزل القوم ، أمر أبو حفص بالسفن فأحرقت فاشتد الجند فى أمر الحرب فاحتلوا الجزيرة . وظلت كريت فى أيدى العرب وتولاها أبناء أبى حفص وأحفاده حتى أواسط القرن الرابع للهجرة أى أن حكمهم لها دام مائة وثلاثين سنة . وكان العرب قد حفروا خندقا يتسترون فيه ، فلما احتلوا الجزيرة قامت هناك مدينة سميت الخندق ، وهى مدينة قنديا الحالية .

وكان البزنطيون يحاولون المرة بعد المرة أن يستردوا الجزيرة من العرب ولكن محاولاتهم فشلت ، حتى كانت حملة نيقفور فوكاس سنة ٩٦١م ، فأناخ عليها باثنين وسبعين ألف محارب بينهم خمسة آلاف فارس فحاصر قنديا واشتد فى حصارها حتى فتحها عنوة بالحرب والجوع ، فقتل ونهب وسبى وحمل صاحبها عبد العزيز، من ولد البلوطى ، إلى القسطنطينية . ثم هدم حجارة المدينة وألقاها فى الميناء لئلا يدخل فيه بعدهم عدو . وبذلك انتهت سيادة العرب على هذه الجزيرة، لكنهم ظلوا يهاجمونها بعد ذلك كثيرا .

وأما مالطة فقد غزاها ابن الأغلب صاحب أفريقيا حول الوقت الذى احتل فيه العرب كريت . لكن هذه الغزوة وغزوات أخرى تلتها ، لم تزد عن كونها محاولات . أما الفتح فقد تم فى أواسط القرن الثالث، وتم على يد

الأسطول الأغلبي ولذلك ألحقت بولاية أفريقيا . وكان أمير البحر عندها خفاجة فقلده الأغالبة على إيطاليا أيضا . ومن مالطة كانت تخرج سفن الغزو العربية إلى بروفانس وإيطاليا وما إليهما . وقد جرت قرب مالطة معركة كبيرة بين الاسطول العربي والاسطول البزنطي انتصر فيها الأخير . لكن هذا الانتصار لم يكن كافيا لإخراج العرب من مالطة ، ذلك لأن الأسطول العربي انتصر على محاولات البزنطيين الأخرى وتعقب أسطولهم سنة ٢٧٥ فأزاحه عن غرب البحر المتوسط وفتح للعرب سبيل السيطرة على شواطئه فضلا عن جزره الغربية .

وظلت مالطة تابعة للعرب حتى سنة ١٠٩٠ وقد انتزعها منهم النورمانيون الذين كانوا قد ظهروا آنئذ على مسرح السياسة والحرب فى البحر المتوسط . لكن ظل فيها من العرب كثيرون . وكان العرب لما احتلوا الجزيرة قد عاملوا الأهلين بالرفق والمباشرة وقرروا سننهم وأحكامهم وامتزجوا بهم للغاية حتى كأنّ العنصرين عنصر واحد ، ولذلك تركوا فى لغة الجزيرة وعادات أهلها وآدابهم الشيء الكثير .

وقد اتجهت أنظار العرب نحو بقية الجزر الغربية فى وقت مبكر من انتشار سلطانهم فى البحر المتوسط . فإن الرواية العربية تذكر أن صقلية نفسها قد هوجمت حتى فى خلافة عثمان ، وأن معاوية بن أبى سفيان كان صاحب الفكرة ، غزاها الفزارى أيام خلافة معاوية نفسه . ولما صارت تونس ولاية لها شبه استقلال ذاتى صارت صقلية قبلة نظر واليها . وقد وجه إليها الفهرى ، فغزاها وغزا سردينية سنة ١٣٠ للهجرة . ثم اشترك بحارو الأندلس فى غزو سردينية وكورسيكا واكتسحوا الجزيرة الأخيرة ،

فبعث إليهم شارلمان بأسطول قوى فانسحبوا خشية منه، لكن لما اشتبكوا قرب سردينية تم النصر للعرب . ومع أنهم لم يحتلوا هاتين الجزيرتين نهائيا فقد أكثروا من التردد عليهما بحيث أنهما لم تستريحا إلا قليلا . وقد أسر العرب فى إحدى غزواتهم ستين رجلا من أهل كورسيكا وبلغ خبرهم شارلمان ففكهم من الأسر بفدية أداها عنهم .

وقد احتفظ التاريخ للأغالبة بفتح صقلية . فان زيادة الله بن الأغلب بعث سنة ٢١٢ للهجرة قائده ووزيره أسد بن الفرات على رأس عمارة بحرية قوامها أربعمائة سفينة وثلاثون ألف مقاتل . وكانت بلرم المقصد الأول لحاصرها ابن الفرات خمس سنين وفتحها . وكتب زيادة الله الى المأمون يبشره بالفتح . ثم تابع الأغالبة والعباسيون حملاتهم حتى وقعت الجزيرة كلها بأيدى العرب .

وكانت البندقية فى ذلك الوقت قد بدأت حياتها التجارية فى البحر المتوسط ، فخشى البنادقة على تجارتهم ودفعهم أمبراطور الروم ثيوفيل إلى حرب العرب ، فجهزوا أسطولا مؤلفا من ستين مركبا أقلع إلى صقلية والتق بالأسطول العربى شرق الجزيرة فمزق أسطول البنادقة شر ممزق وهلك معظم رجاله . وانتقل الأسطول العربى إلى البحر الادرياتيكى فسرح فى أنحائه وأغار على شواطئه وعاد بغنائم كثيرة من السفن .

واطمأن أهل صقلية لحكم العرب، فتعلموا اللغة العربية ودان معظمهم بالإسلام . وكان من مشاهير أمرائها بنو أبى الحسن الكلبيون وقد امتدت إمارتهم زمانا طويلا . والظاهر أن صقلية تبعت فى القرن الخامس لمصر، ولما تأخر والى صقلية البعباع عن دفع المال طالبه صاحب مصر فعجز،

وكان النورمانيون قد ظهروا فى البحر المتوسط كما أشرنا ، وكان البعاع على خلاف مع بقية الأمراء ، فاغتنم الفرصة وأعان النورمان على نفسه . فتقدم روجر بجيشه وسفنه فاستولى على الأجزاء الشرقيــة من الجزيرة ، فأخذ أهلها بمفارقتها . فخرج جماعة إلى المعز بن باديس بأفريقية . واستمر روجر يحارب أهل صقلية ثلاثين سنة حتى تم له فتحها حول الوقت الذى تم فيه فتح مالطة .

وهكذا نرى أن ظهور النورمان المتحدين فى البحر المتوسط كان السبب المباشر لانسحاب العــرب من جزره . وقد أعان العرب خصومهم عليهم لأن بعض الخلاف قد دب بينهــم . على أنه فى الفترة التى كان العرب فيها سادة المياه الغربيــة من البحر ، اتخذوا من هــذه القواعد البحرية مراكز للهجوم على شواطئ أوروبا ومدنها . فكانت ثغور إيطاليا وبزنطية وشواطئ الأدرياتيكى معرضة لهم فى كل سنة . وكثير من التحصينات التى تشاهد على تلك الشواطئ ترجع إلى ذلك العهد . فحصن ضاحية الفاتيكان أقامه البابا ليو الرابع بعد إحدى الغارات القوية .

ولعل الغارة البحرية التى تستحق الذكر بهذه المناسبة هى غزو العرب لرومة . كانت هذه الغزوة ٨٤٦ للميلاد و ٢٣١ للهجرة . فسارت حملة كبيرة من صقلية متجهة شمالا محاذية للشاطئ الإيطالى فهاجمت ثغوره ونهبت موانئه وحاصرت بعضها ثم رست عنــد مصب التيبر . ومن هناك انقض البحارة العرب على الحى الذى لم تكن أســوار رومة تشمله ، وضربوا الحصار على العاصمة القديمة . وكان من أثر ذلك أن ارتاع السكان واضطرب أهل رومة . واهتم الأمبراطور للأمر فبعث حمــلة من جنده وجهزت الثغور الإيطالية مثل أمالفى ونابولى وعنيتا حمــلة بحرية لمقاتلة الغازين . واقتتل العرب مع

جند الامبراطور قتالا شديدا، لكن خلافا دب فيما بينهم، فرفعوا الحصار رومة، وبذلك وقفوا دون فتح المدينة الخالدة .

وعاد العرب مرة ثانيـة إلى غزو رومة بعد ذلك بنحو خمس وعشرين سنة، وفى هذه المرة كانت الحملة منظمة : فالظاهر أن الأغالبة أشرفوا على تجهيزها، واتخذت جزيرة سردينية مكانا للاجتماع وقاعدة للهجوم . والتـقى الأسطول العربى وأسطول المدن الإيطالية عند مصب التيبر . لكن العواصف حالت دون اشتباك قوى ، مع أن العمارة العربيـة كانت تستطيع التغلب على مناظرتها بسهولة .

ولبث العرب زمنا طويلا يهددون المدينة الخالدة حتى اضطر البابا يوحنا الثامن أن يفاوضهم فى الجلاء على أن يدفع لهم جزية مقدارها خمسة وعشرون ألف مثقال من الذهب .

وما دمنا بمعرض التحدث عن العرب ومغامراتهم فى جزر البحر المتوسط فلنشر إلى إحدى غزوات ليـون الطرابلسى أحد كبار أمراء البحر العرب . لقد كانت له غزوات كثيرة ، لكن أكبرها تلك التى قام بها فى سـنة ٩٠٤ للميلاد ٢٩٢ للهجرة . خرج من طرسوس على رأس عمارته وفيها مايزيد عن خمسين مركبا، ومعه عشرة آلاف جندى قاصدا سلانيك، وكانت هذه من أمنع الثغور البزنطية وأغناها . وكانت أسـوارها قد تقوضت لكن الدفاع عنها متيسر . لكن لا الحاميـة الأصلية ولا العمارة التى جاءت للمدافعـة عن المدينة ولا مهارة القواد أسلمت المدينة من الطرابلسى . فمع أن الخليج ملىء بالحجارة، فقد تقدم بسفنه وعليها أبراج ضخمة مملوءة بالرجال، حتى صار أعلى من الأسوار وعندها هبط رجاله على المدينة واستولوا عليها . وبعد ذلك عاد متجنبا لقـاء الأسطول البزنطى حـتى وصل طرسـوس التى كانت قاعدة

لاستبدال الأسرى بين العرب والبزنطيين، فتبادل القوم أسراهم، إلا من قدر له أن لا يفتدى .

هذه صفحات من مغامرات العرب البحرية فيها الغزو الموقت وفيها الفتح المستقر، وقد كان عندها العرب على حد تعبير ابن خلدون "وقد غلبوا على هذا البحر وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه فلم يكن لخصومهم قبل بأساطيلهم بشيء من جوانبه ، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم . فكانت لهم المقامات المعلومات من الفتح والغنائم وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقة ومنورقة وسردينيا وصقلية ومالطة وأقريطش (أى كريت) وقبرص . فسارت فيه أساطيلهم جائية ذاهبة وقد ملأت الأكثر من بسيط هذا البحر عدة وعددا واختلفت فى طرقه سلما وحربا" .

٢ — العمران

إن العرب ، أيام كانت لهم دولة وسلطان ، استولوا على جزر البحر المتوسط جميعها . لكن مدة حكمهم لها لم تكن واحدة فى جميع الجزائر . ولعل جزيرتى مالطة وصقلية نالها أطول المدة، هذا باستثناء قبرص وأرواد . وقد يكون لوجود دولة الأغالبة فى شمال أفريقية ومن تلاهم من حكام تونس تأثير كبير فى ذلك .

أما آثار العرب فى مالطة فيدخل فى عدادها الألفاظ العربية الكثيرة الموجودة فى اللغة المالطية وأسماء البلاد فى الجزيرة ونقوش كثيرة وقطع من المسكوكات العربية . ومما يلفت النظر أنه لم يظهر فى مالطة كثير من العلماء على نحو ما نعرف عن غيرها من ديار العرب ، ومع ذلك فنحن نجد عالما اسمه المالطى كان أحد الذين نقل عنهم ياقوت الحموى .

لكن الجزيرة التى استبحر فيها عمران العرب هى صقلية . وقد كانت حضارة العرب فيها أحد الأسس التى بانتقالها الى أوربا عملت على بعث الحياة الفكرية فيها ، من رقادها الطويل فى أيام النهضة .

لما احتل العرب صقلية كانت مدنيتهم فى الشرق وفى الغرب فى دور نضجها و إيناعها ، فحملوا معهم إلى الجزيرة ثمار جهدهم فى الشرق ونتاج نشاطهم فى الغرب . ومن ثم كانت مدنية صقلية منوعة قوية نشيطة وكان مدى تأثيرها فى أوربا بعيدا ، ومقدرتها على الاستمرار فى الجزيرة نفسها كبيرة .

عاش الرعايا المغلوبون فى صقلية أيام حكامها العرب فى راحة وسرور ونعموا بأمن واطمئنان . وترك الفاتحون لأهل الجزيرة عاداتهم وأنظمتهم وحريتهم الدينية وجمعوا منها جباية قليلة ، وأعفوا منها الرهبان والنساء والأولاد وسمحوا بالابقاء على الكنائس جميعها .

على أن المظهر الكبير لعمران صقلية أيام العرب هو نشاطها الاقتصادى الكبير . فان العرب أحيوا زراعة الجزيرة واعتنوا بصناعتها فأدخلوا إليها أصنافا جديدة من الغلات الزراعية كالبردى ، وكانت لهم مصانع للورق ، ومنها انتشرت هذه الصناعة فى إيطاليا .

وكانت مناجم الذهب والفضة والشب والكحل والزاج والحديد والرصاص قد أهملت فأحيا العرب ميتها . ومن المرجح أن العرب هم الذين علموا أهلها صناعة الحرير . وقد كانوا يحلونه بنقوش جميلة بالخط الكوفى وقد انتشرت هذه الصناعة من صقلية حتى بلغت أواسط أوربا ، على ما يبدو من رداء حريرى محفوظ فى إحدى مدن أوربا الكبرى .

وكانت صقلية تصدر الى أوربا فى تلك العصور الأقمشة المحلاة بالجواهر والطنافس وعليها أنواع الصور والجلد المدبوغ . وكانت قصور ملوك أوربا تتنافس فى اقتناء الحلى البديعة التى تنتجها مصانع بلرم .

لقد كان فى أواخر عهد العرب فى صقلية مائة وثلاثون بلدا بين مدينة وقلعة غير المنازل والضياع والبقاع . وقد كان عدد سكان بلرم لما دخلها العرب ثلاثة آلاف نسمة فلم تلبث حتى ازدحمت بالسكان . ومما عليه المؤرخون أن نصف سكان الجزيرة كان فى القرن الحادى عشر للميلاد من العرب، والنصف الآخر من اليونان .

وكانت أبنية الجزيرة، على ما استخلصه المؤرخ الفرنسى شارل ديل، مليئة بمظاهر الفن العربى الغربية : من القناطر العالية الجميلة والمقرنصات والقاشانى الجميل والفسيفساء المعمولة من الرخام الملون، والصور الجميلة .

وقد زار ابن حوقل الرحالة الجغرافى جزيرة صقلية سنة ٣٦٢ للهجرة وقضى فيها مدة فوصفها فى كتابه « وصف الأرض » وصفا شائقا نقتطف بعضه فى هذا الفصل ، وقيمته ترجع إلى أنه كلام شاهد عيان .

” صقلية جزيرة على شكل مثلث طولها سبعة أيام وعرضها أربعة . والغالب عليها الجبال والقلاع والحصون وأكثر أرضها مسكونة مزروعة ، ومدنها كثيرة ولكن أكبرها بلرم . وحيث تسيل مياه العيون توجد أراض كثيرة تغلب عليها السباخ وآجام فيها قصب فارسى وبحائر ومقان صالحة . وفى خلال أراضيها بقاع قد غلب عليها البردى المعمول منه الطوامير وأكثره يفتل حبالا لمراسى المراكب .

وصقلية جزيرة خصيبة أرضها غنية مواردها . فهناك التجارة البحرية وما يصل منها إلى السلطان وله هدية سنوية على أهل كلبرية . وأهل صقلية

قليلة مؤنهم ونزرة نفقاتهم كثيرة غلاتهم ومع ذلك فقل فيهم رجل ملك بدرة عين . ذلك لأن ثروة الجزيرة موزعة على سكانها . وأكبر غلاتها القمح والصوف والشعر والخمر وثياب الكتان . وهذه لا نظير لها جودة ورخصا . أما جميع ما تقع إليه الضرورات وتدفع الحاجة إليه من سائر الطلبات مجلوب الى بلدهم . ومحمول إلى جزيرتهم .

وبلرم هى المدينة الكبرى فى الجزيرة وعليها سور عظيم من حجارة شامخ منيع يسكنها التجار وفيها المسجد الجامع الأكبر وقد صلى فيه فى يوم جمعه قرابة سبعة آلاف مصلي . وللمدينة هذه تسعة أبواب . وشكل المدينة مستطيل وسوقها مثلها مستطيل يمتد من شرقها إلى غربها يعرف بالسماط مفروش بالحجارة عامر من أوله الى آخره بضروب التجارة . على أنه بمرور الزمن نمت حول بلرم أربع حارات كبيرة ، حتى كأن كل واحدة منها مدينة بنفسها وهذه الحارات الأربع هى الخالصة وحارة الصقالبة وحارة المسجد والحارة الجديدة .

أما الخالصة فيسكنها السلطان وأتباعه وفيها حمامان ولا أسواق فيها ولا فنادق وفيها مسجد جامع صغير مقتصد وبها جيش السلطان ودار صناعة للبحر وللديوان . فكأن الخالصة كانت القصر السلطانى والضاحية الادارية لمدينة بلرم التى هى عاصمة الجزيرة .

أما حارة الصقالبة فبها مرسى البحر فكأنها ميناء للمدينة . والحارتان الباقيتان هما حارة المسجد والحارة الجديدة . الأخيرة بها أسواق البلد الكبيرة فهناك سوق الزياتين بأجمعهم والدقاقين والصيارفة والحدادين والصياقلة والقمح والطراز والسمك أسواقها هناك أيضا . وإنك واجد باعة البقل وأصحاب

الفاكهة والريحانيين وطائفة من العطارين . وقد يوجد من حوانيت القصابين وحدها قرابة مئتى حانوت . على أن المدينة كثيرة الأسواق الصالحة بالاضافة إلى ما ذكر .

وتمتاز بلرم وضواحيها بكثرة المساجد . ففيها نحـو ثلثمائة مسجد . وقد ترى عشرة مساجد فى أقل من رمية السهم . ويعلل ابن حوقل ذلك برغبة السكان فى أن يكون لكل منهم مسجد مقصـور عليه لا يشركه فيه غيرأهله وغاشيته . وقد تتلاصق داران لأخوين ويكون لكل دار مسجدها الخاص .

ويشـيد ابن حوقل بكثرة الرباطات فى بلرم نفسها وصـقلية ؛ لكنه لا يكتم اسـتغلال بعض المرتزقة لهـذه الرباطات بحيث يتخذونها وسـيلة للاستجداء . وهذا شأن الناس فى كل مكان .

ومما لاحظه ابن حوقل على أهـل بلرم أنه يكثر فيهم المعلمون وتكثر فى بلدتهم المكاتب . فثمة قرابة ثلثمائة معـلم . وقد لفت ذلك نظـر الرحالة فاستقصى أخبارهم وعرف أنهم إنما يكثرون لأنهم يفرون من الغزو ويرغبون عن الجهاد . لكن لما انتبه أصحاب الشأن إلى ذلك ألغوا ما كان للمعلمين من امتياز . وكان المسجد الزهرى بالسماط أكبر مكاتب المدينة وكان المعلم فيه محمد بن عيسى بن مطروهو ممن رحل وشرق فى سبيل التعلم وكتب الحديث .

وقـد أخذ ابن حوقل على فقـراء بلرم مآخذ كثيرة ذكرها على ما قال فى كتاب سماه محاسن جزيرة صقلية . هـذا وقد ظهر بصقلية عدد كبير من من مشاهير الرجال الذين لمعت أسماؤهم فى سماء العـلم والأدب والفنون . وفى مقدمتهم أسـد بن الفرات فاتح صقلية للأغالبة والقاضى ميمون بن عمر والأدريسى الجغرافى .

وقد روى أن صقلية أخرجت مائة وسبعين شاعرا وهناك من نبغ بالهندسة والنجوم مثل ابن سابق وابن عبد المنعم ومن اشتهر بالطب كابن إبراهيم صاحب المنجح فى التداوى ومن عرف بالفلسفة كأبى عبد الله الصقلى . وهناك عدد كبير منهم معروفون باسم المدن التى ظهروا فيها مثل الشاقى والسرقوسى والمازرى والطرابنشى .

ولعل خير ما نختم به حديثنا عن أيام العرب بصقلية هو ابن حمديس الشاعر . ولد سنة ٤٤٧ هـ . (١٠٥٥ م) فى سرقوسة . وكان يرى فى صباه مضايقة النورمان للعرب فى جزيرتى صقلية ومالطة وكان ذلك يحز فى نفسه ، فلما آن للعرب أن يخرج سلطانهم عن الجزيرة وغلبهم عليها النورمان خرج ابن حمديس من صقلية مع الذين نزحوا عنها ، فقصد المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية فاستقر عنده ، ورافقه فيما بعد فى سجنه بمراكش ولابن حمديس شعر كثير مجموع فى ديوان مطبوع فمن قوله مثلا يصف الأسطول :

والأساطيل فى الزواخر يرمى بلاد الروم غزوها بالدمار
يابسات العيدان تثمر بالغيد إذا أورقت ببيض الشفار
راعفات القنا تلون فيها عذبات كمثل مصحف قارى

ومن شعره قوله فى الغزل :

ملنى من لا أمله وأذاب القلب دله
رشأ ينفر خوفا كلما ماشاه ظله
ياعليل الطرف جسمى نظرة منك تعله
يا غزالا حرم الله دمى وهو يحله

إنما الحسن محـ ـلك أو أنت محـله
بعضـه فى أوجه النـ ـاس وفى وجهك كله

وبعد أن جلا ابن حمديس عن صقلية بمدّة طويلة تذكرها فقال :

ذكرت صقلية والأسى يهيج للنفس تذكارها
فان كنت أخرجت من جنة فانى أحـدث أخبارها
ولولا ملوحـة ماء البكاء حسبت دموعى أنهارها
ضحكت ابن عشرين من صبوة بكيت ابن ستين أوزارها

ولابن حمديس الحق فى أن يذكر وطنه . فأى الناس لا يذكر ؟ ؟

٣ — بلاط روجر الصقلى

فى أواخر القرن الحادى عشر للميلاد والخامس للهجرة احتل روجر الأول صقلية وانتزعها من أيدى العرب، بعد حروب دامت نحو الثلاثين سنة . وقضى بعد ذلك نحو عشر سنوات من حياته فى إدارة الجزيرة كان فيها كثير من جنوده من العرب واحتفظ أثناءها فى بلاطه بعدد من الفلاسفة العرب وسمح للمسلمين أن يحافظوا على شعائرهم الدينية . بل إنه احتفظ بعدد كبير من العرب فى المناصب العالية .

وهـذه الخطة التى انتهجها روجر الفاتح سار عليها ابنه روجر الثانى لما ولى شؤون الجزيرة . فقد طال حكمه بحيث امتدّ نصف قرن تقريبا ، لكنه كان فى طفولته لما ورث عرش أبيه . فلما بلغ أشدّه وتولى شؤون الدولة عمليا اهتم بضم جنوب إيطاليا إلى دوقيته ثم توج ملكا وأنشأ مملكة صقلية . وكان أول ما فعله لتنظيم أمور الدولة هـو أنه منع النبلاء فى أنحاء مملكته من شن الحروب ضد بعضهـم البعض وأعلن أن السبل يجب أن

تظل آمنة مطمئنة واحتفظ لنفسه بالنظر نهائيا فى القضايا الجنائية . والخلاصة فإنه أوجد ما يمكن أن يسمى حكومة مركزية قوية .

وكان من نتائج هذا الحكم القوى وتوحيد صقلية مع جنوب إيطاليا أن أصبحت مملكة روجر وخلفائه من بعده غنية . فقد كانت موانئها — فى إيطاليا وفى صقلية — مثل سالرنو وبلرمو مراكز للسفن الحاملة غلات أوربا لتتبادل بها مع منتوجات الشرق . كانت سفن البنادقة والجنويين والبيزيين تلجأ إلى الموانىء الصقلية فى غدوها ورواحها . وكانت تجارة أفريقيا إلى أوربا تمر بها ومثلها كانت التجارة الأسبانية إلى المشرق . وكان ملك صقلية يفرض على كل هذه المتاجر الضرائب والجمارك التى كان التجار يدفعونها راضين، لتمتلئ بها خزانة الملك، فينفقها هو بدوره على تجميل عاصمته وفى سبيل فخامة بلاطه .

على أنه يترتب علينا أن نذكر أن استغلال موارد الثروة فى الجزيرة نفسها سار على قدم وساق أيام روجر وخلفائه، بحيث لم تقل الموارد الداخلية عن الموارد الخارجية من التجارة . فقد عدن الحديد حول مسينا واستخرج الكبريت حول جبل إتنا . ومثل ذلك يقال عن الملح . والفخار البلرمى كان آنئذ شهيرا وكان يزخرف بنقوش عربية . واشتهرت البلاد بصنع الحلى من الذهب والفضة بحيث كانت أوربا كلها تبتاع قصورها مما تنتجه صقلية . أما فى صنع الأوانى الزجاجية فقد تفوق الصناع الصقليون على كل من اشتغل بهذه الصناعة فى الغرب، بما فى ذلك صناع البندقية .

وبحكم الحرية التى أطلقت لجميع السكان أيام حكم روجر وخلفائه فقد استمر العرب فى أعمالهم التى كانوا قد بزوا فيها غيرهم، مثل العناية بالبردى

واستغلاله فى صنع الورق والحبال . ويرجح أن إدخال تربية الحرير إلى صقلية يرجع الفضل فيه إليهم .

ويجدر بنا بهذه المناسبة أن نشير إلى مسئلة على غاية الأهمية فى تاريخ صقلية فى هذه الفترة فأيام روجر الثانى كانت أيام الحملات الصليبية . وقد جردت أوربا حملتين قبل منتصف القرن الثانى عشر، أى قبل وفاته . لكن روجر رفض أن يشترك فى حملات الشرق أو فى الهجوم على القيروان. فنحن نعرف أنه لما فكر بلدوين ملك القدس فى أن يجرد حملة تقوم باحتلال القيروان ليفصل عرب الغرب عن عرب المشرق كتب إلى روجر يستعديه . لكن روجر أجاب بأن حملة كهذه لم تكن فى مصلحة مملكته . فإذا ما احتل الأوربيون شمال افريقيا استولوا على تجارته . وقطعوها عن صقلية ، وإذا ما فشلت محاولتهم عادوا إلى صقلية ليقيموا فيها . وفى كلتا الحالتين تكون مصالح صقلية التجارية معرضة لخطر .

لكن سياسة روجر الخارجية كانت ترمى إلى الهجوم على بزنطية . ومع أنه لم يصل إلى القسطنطينية نفسها فقد قام بهجوم عنيف على بلاد اليونان كان من جرائه أنه تقريبا دمر مدينتى كورنت وطيبة .

والصفة البارزة للإدارة الصقلية فى عهد روجر الثانى وخلفائه وليم الأول والثانى وفردرك الثانى هى أنها كانت فيها عناصر عربية وأخرى يونانية بزنطية وثالثة نورمانية . فألقاب القائمين بشؤون الدولة وعادات البلاط مأخوذة من العناصر الثلاثة . كان المجلس الملكى محكمة استئناف عليا لكن كان هناك مجلس خاص يرجع إليه فى الناحية الإدارية التنفيذية وكان فى مقدمة أعضاء المجلس الخاص موظف لقبه أمير الأمراء، والتسمية

واضحة الأصل العربى ، وكان هذا مسؤولا عن القضاء وعن الشؤون البحرية .
ولما كان جورج الأنطاكى يشغل هذه الوظيفة فإنه كان يقوم بعمل كبير
الوزراء . وبعده كان يأتى المستشار وهو المسؤول عن الشؤون العسكرية .
وتجد أنواعا متفاوتة من أصحاب الوظائف بينهم القضاة . وكل موظف كان
على رأس ديوان وله حدود معلومة . وكلمة ديوان مأخوذة من العرب .

ولعل من المناسب أن نشير هنا إلى أن النظام المالى ونظام الأرض
اللذين كانا متبعين فى صقلية أيام روجر من أصل عربى وبزنطى . فإنه
احتفظ بما كان قد عمل به العرب من نظام الأرضين ، من حيث المساحة
وإقطاع الأرض . فالقيود الرسمية التى كانت قد بقيت من أيام العرب نسج
على منوالها . وبعض قيوده كانت مكتوبة بالعربية . ومثل هذا يقال
بشأن الخزينة . فقد كانت عربية أصلا ، وكان بعض كبار موظفيها
من العرب .

وحرى بالذكر بهذه المناسبة أن إدارة الخزينة فى انكلترا وفرنسا فى العصور
الوسطى شبيه بما عرف فى صقلية النورمانية . ومعنى هذا أن الإدارتين
مدينتان للعرب عن طريق صقلية .

والأوامر التى كان يصدرها روجر فى أنحاء مملكته كان يراعى فيها أن
تكتب بالعربية ، بالإضافة إلى اليونانية واللاتينية ، كى تصل إلى المعنيين بها
من العرب . وعندنا أمر صدر أيام كان روجر بعد طفلا ، أصدرته أمه
الوصية عليه ، وقد كان مكتوبا بالعربية واليونانية . بل إن متحف صقلية
فيه قطعة نقد ضربت فى أيام روجر الثانى سنة ١١٣٨ تحمل نقشا عربيا
وتاريخا كتب بأرقام عربية .

كان روجر فى كل مظاهر حياته، مثل فردك الثانى فيما بعد، تغلب عليه العادات العربية . فثيابه كانت من الثياب الفضفاضة وأرديته كانت عليها نقوش عربية، وقد ذكرت قبلا أن أحد هذه الأردية لا يزال محفوظا فى متحف إحدى مدن أوروبا الكبرى. والبنايات التى أقامها، وفى مقدمتها كنيسته الكبرى فى بلرمو ، كانت مزخرفة بالنقوش العربية الكوفية .

ويرى المشتغلون بتاريخ فن البناء العربى ودراسة أثره فى الفنون الأوروبية وتأثيرها فيه أن الفنانين الذين عملوا فى بناء هذه الكنيسة المعروفة باسم (كابلابلاتينا) وغيرها من الأبنية مثل كاتدرائية مونريال ومارتورانا والقلاع التى أنشئت فى القرن الثانى عشر الميلادى (السادس للهجرة) — هؤلاء الفنانون كانوا صقليين فيهم العرب وغيرهم ،ولكن النماذج التى قلدوها كان فيها كثير من أصل عربى ، فجامع الحكم فى قرطبة هو أصل الكابلا من حيث تركيز القبة الكبيرة على زوايا متعددة . ويعتقد هؤلاء أنه لما بنى جورج الأنطاكى سانتا ماريا اتبع نفس الطريقة التى اتبعها بناة الكابلا . ولعل صناع صقلية هم الذين علموا هذه الطريقة لصناع سالرنو وعن هؤلاء انتقلت إلى أنحاء مختلفة من أوربا .

أما البلاط نفسه ، ورجال البلاط ، فقد مثلوا الحياة المختلطة أحسن تمثيل . فقد كان فى بلاط روجر فضلا عن الموظفين المختلفى الأجناس والمذاهب، علماء وشعراء كذلك متباينو الأجناس والمذاهب . فالعرب والروم والإيطاليون والنورمان على اختلاف ثيابهم وعاداتهم وتباين آرائهم ونظرتهم وتباعد أفكارهم وجدوا فى بلاط روجر أمنا وسلاما ، فتحدثوا وتباحثوا ونظموا الشعر وكتبوا الرسائل وعملوا فى الترجمة العلمية وهكذا دواليك .

فقـد كان فى بلاطه الأدريسى الجغرافى وعبد الرحمن الشاعر ونيلوس اليونانى وأوجين البلرمى ، وهـذا فضلا عن مؤرخين من اللاتين و بنـائين بزنطيين .

والبلاط الصقلى مسؤول عن المشاركة فى نقل الكثير من آثار الحضارة العربية إلى أورو با . فالأمير أوجين كان يعرف العربية واللاتينية ، كمعرفته لليونانية، لغته الأصلية وقدتم على يديه نقل كتاب البصريات المنسوب إلى بطليموس من العربية إلى اللاتينية . كما أنه ساهم فى نقل كتاب كليلة ودمنة إلى اللغة نفسها .

وليس من شك فى أن زهرة العلماء الذين أقاموا فى بلاط روجر الصقلى هو الجغرافى العـربى الكبير الشريف الأدريسى . وهو أبو عبد الله محمـد ابن محمد بن عبد الله بن أدريس من سـلالة العـلويين . ولد بمدينـة سبتة فى أواخر القرن الخامس للهجـرة (الحادى عشر للميلاد) . فلما شب ورغب فى طلب العلم انتقل إلى قرطبـة ، وكانت جامعتها آنئذ مهبطا لطلاب العلم من جميع آفاق المغرب فتثقف فيها وأحاط بعلوم عصره، لكنه عنى بالجغرافية والرحلة عناية خاصة . فاطلع على ما كتبه السابقون أمثال ابن حوقل والمقدسى واليعقوبى والبكرى . وأثار ذلك فى نفسـه حب الأسـفار فطاف فى أنحاء البحر المتوسط الغربية ، حيث كان للعرب بعد سلطان . ثم نزل على روجر الثانى صاحب صقلية فأحسن وفادته وقربه وأجله واحترمه لمـا رأى من سعة علمـه واطلاعه ومعرفته، وأغراه فى البقاء عنده طويلا فقبل . ونزل عند رغبة روجر فكتب له كتابا فى الجغرافية اسمه نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق . و يعرف أيضا بكتاب روجر .

ومن الطريف أن نشير هنا إلى أن الأدريسى وروجر كانا صديقين حميمين . فقد أعجب كل منهما بالآخر كثيرا . فالأدريسى وجد فى روجر رجلا يقظا محبا للعلم والمعرفة واسع الاطلاع فى أبحاث الرياضيات والفلسفة والتاريخ محيطا بالكثير من علوم العرب عارفا بلغتهم . ووجد روجر فى الأدريسى بغيته . فقد كان يريد أن يحصل على معلومات دقيقة عن بلاده وجيرانه والبلاد التى تربطها بمملكته علاقات تجارية أو التى يفكر بالسير إليها فوجد أن الأدريسى هو الرجل الذى باستطاعته أن يقوم بذلك . وقد وصف الأدريسى روجر بقوله (إنه يستطيع أن يفعل وهو نائم ما يعجز عنه الكثيرون وهم يقظون) .

أراد روجر أن يتعرف إلى الدنيا بكل ما فيها ، فاطلع على ما كتبه جغرافيو القدماء والعرب فلم يجد فيها بغيته ، فاستدعى العارفين وسمع منهم . وقد وصف الأدريسى فى مقدمة كتابه الطريقة التى تمت بها عملية تحضير المواد اللازمة لكتابه قال (إن الملك روجر المعتز بالله المقتدر بقدرته ملك صقلية و إيطالية وانكرده وقلورية لما اتسع سلطانه أراد أن يعرف كيفية بلاده و يعلم أشكالها وحدودها ومسالكها برا و بحرا . فطلب الكتب التى ألفت بالجغرافية والأقاليم فلم يجد ذلك فيها مشروحا مفصلا . فأحضر لديه العارفين بهذا الشأن فلم يجد عندهم أكثر مما فى الكتب . فبعث إلى سائر بلاده فأحضر العارفين فيها فسألهم عنها و باحثهم فيها . فما اتفق عليه رأيهم وصح عنده نقلهم أبقاه وما اختلفوا فيه أرجاه . أقام فى ذلك خمس عشرة سنة . فلما تم كل شىء أمر أن يفرغ له من الفضة الخالصة دائرة عظيمة الجرم ضخمة الجسم فى وزن أربعمائة رطل فى كل رطل منها مائة واثنا عشر درهما . ثم أمر الفعلة أن

ينقشوا عليها صور الأقاليم السبعة ببلاده وأطوالها وأقطارها وسبلها وريفها وخلجانها وبحارها ومجاريها ونوابغ أنهارها وغامرها وعامرها وما بين كل بلد وغيره من الطرقات المطروقة والأميال المحدودة والمسافات والمراسى ولا يغادروا فيه شيئا) .

ولما تم صنع الدائرة العظيمة انتقل العمل إلى يد الأدريسى فألف الكتاب المسمى نزهة المشتاق . وقد كان مطابقا لما فى أشكال الدائرة وصورها . واحتوى وصف أحوال البلاد والأرضين فى خلقها وبنائها وأماكنها وبحارها وجبالها ومسافتها وعملها وأجناس نباتها . ثم انتقل إلى وصف ما تستعمل به غلاتها والصناعات التى تتقن فيها والتجارات التى تحمل منها والعجائب التى تذكر عنهم . ويشمل الكتاب فضلا عن ذلك ذكر أحوال أهلها وهيئاتهم ومللهم ومذاهبهم وزيهم وملابسهم ولغاتهم .

ويقول الأدريسى أن روجر هو الذى اقترح اسم الكتاب وأن ذلك كان فى شوال سنة ٥٤٨ ثم يضيف (فامتثل الأدريسى فيه الأوامر ورسم الرسم فبدأ بصورة الأرض المسماة جغرافيا) .

على أن للأدريسى كتابا آخر فى الجغرافية أطول من الأول اسمه (روضة الأنس ونزهة النفس) أو (كتاب الممالك والمسالك) .

والإدريسى فى رأى كثير من المشتغلين بتاريخ العلوم أكبر جغرافى فى العصور الوسطى . وإذا نازعه أحد فى هذا اللقب فهو ياقوت صاحب معجم البلدان . ويرى ملر أن الأدريسى يكون مدرسة جغرافية بنفسه . وقد ظل كتاب الأدريسى عمدة أوروبا فى الجغرافية وخاصة فيما يتعلق بالبلاد الشرقية مدة طويلة .

والأوروبيون يقدّرون نزهة المشتاق وصاحبه كثيرا، وهناك من تمنى لو يطبع طبعة تامة ويترجم. ولعل الطبع المتقن يتم فى يوم من الأيام على يد العرب وعلمائهم وهيئاتهم، فنحن أولى من الغربيين بإحياء تراث هذا السلف الصالح.

وعلى كل فقد طبعت أجزاء مختلفة من الكتاب فى مناسبات متعدّدة. فوصف الأدريسى للشام وصقلية والأندلس وأفريقيا مطبوع فى كتب تتناول تاريخ هذه الأصقاع. وقد ترجم ترجمة فيها بعض الاضطراب إلى اللاتينية فى أواخر القرن السادس عشر. ومما يسرنا أن نذكر أن مترجميه كانا عربيين من لبنان هما جبرائيل الصهيونى وحنا الحصرونى.

أما خرط الكتاب وعددها إحدى وسبعون فأكثرها مطبوع وأما النسخ الخطية الموجودة من نزهة المشتاق فهى سبع اثنتان فى اكسفورد بانكلترا واثنتان فى باريس وواحدة فى استانبول وواحدة فى لننغراد وواحدة فى القاهرة.

وأود فى ختام هذا الحديث أن أشير إلى عالم آخر ظهر فى صقلية فى هذه الفترة، وإن كان لم يتصل ببلاط روجر اتصالا مباشرا وهو حجة الدين الصقلى. ولد بصقلية ونشأ بمكة وعاد إلى صقلية ثم تنقل فى البلاد واستقر أخيرا بحماة وتوفى بها. أما أثناء إقامته بصقلية فكان ملتحقا بأحد القوّاد وصنف له سنة ٥٥٤ للهجرة كتاب سلوان المطاع فى عدوان الاتباع. وله كتب أخرى كثيرة فى الفقه والتفسير واللغة.

هذه صورة لما كان عليه بلاط روجر وما كان عليه الملك من احترام العلماء العرب وعنايته بهم، وبذا كان أحد العاملين على نشر علوم العرب فى أوروبا وركنا من أركان نهضتها.

٤ — ابن جبير فى البحر المتوسط

عند ما نستعرض الرحالين الذين جابوا أقطار العالم الواسعة فى العصور المختلفة نجد أن ابن جبير فى طليعتهم . فقد زار أنحاء العالم العربى، والشرقية منها على الخصوص ثلاث مرات . فنال كلا من مصر والحجاز ونجد والعراق وسوريا وصقلية وأسبانيا وأفريقية من جهـده نصيب . والرحلة التى بين أيدينا إنما هى وصف رحلته الأولى التى قام بها سنة ٥٧٨ هـ (١١٨٣ م) . فهى سجل للبلاد والحوادث فى أواخر القرن السادس هـ (الثانى عشر م) . والذى يعنينا منها فى هـذا الحديث هو الجزء المتعلق بالبحر المتوسط ، ذلك أن ابن جبير قطع هذا البحر، فى هذه السفرة مرتين : الأولى من سبتة إلى الإسكندرية . والثانية من عكاء الى اسبانيا . ففى المـرة الأولى خرج من سبتة ومر بجزر يابسة وميورقة ومنورقة وسردينية وصقلية وكريت، وفى الثانية خرج من عكاء ومر بجزر الأرخبيل فى بحر إيجه وكريت وصقلية وانتهى به السفر إلى الأندلس فنزل فى ميناء قرطاجنة ، وأقام مدّة طويلة فى صقلية .

وقـد دوّن ابن جبير ما رآه وما سمعه وما اختبره فى رحلته، فحصلنا نحن على هذه الصور الحية . فهذا هو الرحالة يقضى ثلاثين يوما فى قطع المسافة بين سبتة والاسكندرية ويسافر على مركب للجنويين وتعتبر هذه المدّة طبيعية فى تلك الأوقات . ولكنه لا يغفـل عن ذكر نقطة هامة وهى أن المسافة من سبتة إلى منورقة كانت ثمانمائة ميل قطعتها السفينة فى اثنى عشر يوما . أما فى طريق العودة فقد قطعت السفينة وكانت جنوية أيضا خمسمائة ميل فى يومين وليلتين . وابن جبير يذكر هذا وهو مستغرب من سرعة المركب .

ونستطيع أن نتابع ابن جبير فى رحلته فنرقبه وهو ينتظر الريح الطيبة هنا وهناك ، فهو يقضى أربعة أيام فى إحدى جزر الأرخبيل بانتظار الريح الملائمة . لكن أطول مدة قضاها فى انتظار الريح كانت خمسة وسبعين يوما فى اطرانبش من أعمال جزيرة صقلية .

والصور التى يتركها ابن جبير لوصف البحر والموج حية طريفة . فلما كانت السفينة فى طريقها من جزر الأرخبيل إلى الغرب طلعت عليها ريح غربية فغيرت اتجاه السفينة، فكتب ابن جبير يصفها، ثم انقلبت الريح غربية وأنشأت سحابة فيها رعد قاصف وزجها ريح عاصف وتقدمها برق خاطف، فأرسلت حاصبا من البرد صبته علينا فى المركب شآبيب متداركة فارتاعت له النفوس، ثم أسرع انقشاعها وانجلى عن الأنفس ارتياعها و بتنا ليلة الجمعة مبيت وحشة وطالعنا اليأس من مكمنه . فلما أسفر الصبح وطلع النهار أبصرنا بر صقلية ... لكن لم تلبث حتى ضربت فى وجوهنا ريح انكصتنا على الأعقاب وحالت بين الأبصار والارتقاب، وما زالت تعصف حتى كادت تنسف وتقصف، فحطت الشرع عن صواريها ، واستسلمت النفوس لباريها وتركنا بين السفينة ومجريها وتتابعت علينا عوارض ديم حصلنا منها ومن الليل والبحر على ثلاث ظلم وعباب الموج تتوالى صدماته وتطفر الألباب رجفاته . فنبذت نفوسنا كل أمنية وتأهبت للقاء المنية وقطعنا هذه الليلة البهماء فى مصادمة أهوال ومكابدة أوجال ومقاساة أحوال يا لها من أحوال . ثم أصبحنا يوم السبت ليوم عصيب أخذ من هول ليلته بأوفر نصيب والأمواج والرياح تترامى بنا حيث شاءت وقد استسلمنا للقضاء وتمسكنا بأسباب الرجاء، ثم تداركنا صنع الله تعالى مع المساء ففترت الريح ولان متن

البحر واصفرّ وجه الجوّ وأصبحنا يوم الأحد وقد بدل لنا من الخوف الأمان وتطلعت الوجوه كأنها انتشرت من الأكفان .

وهذا المركب الذى عاد به ابن جبير من عكاء إلى الأندلس كان كبيرا ، فقد وصفه بقوله (والناس من هـذا المركب بمنة الله تعالى فى مدينة جامعة للرافق . فكل ما يحتاج شراؤه يوجد من خبز وماء ومن جميع الفواكه والأدم كالرمان والسفرجل والبطيخ السندى والكمثرى والشاه بلوط والجوز والحمص والباقلانيا والبصل والثوم والتين والجبن والحوت وغير ذلك مما يطول ذكره . عاينا جميع ذلك يباع) . ولكن هذا المركب الغنى نفسه نفد منه الزاد لطول المدّة التى قضاها فى شرق البحر المتوسط . فقـد روى رحالتنا أن الركاب كانوا يقتصرون على مقـدار رطل من الخبز اليابس يتقسمه أربعـة منهم ويبلونه بيسير من المـاء فيتبلغون به . ولمـا نزل بعض البلغريين ترفق ببقية الركاب بما باعوا من الزاد حتى انتهى سعره إلى خبزة بدرهم ، أى أن الرغيف بلغ ثمنه نيفا وأربعين ملا أو فلسا . ولمـا كان المركب فى جزر الأرخبيل نزل أهل الجزيرة وبايعوا أهل المركب فى الخبز واللحم والزيت وما كان عندهم من الأدم . ولم يكن خبزهم برا خالصا إنمـا كان خليطا بالشـعير وكان يضرب للسواد فتهافت الناس عليه على غلائه ولم يكن بالرخيص فى سومه .

ومع أن ابن جبير مر بكريت وغيرها من الجزر فان صقلية هى التى نالها أكبر حظ من وقته ، فقد قضى فيها ما يزيد عن الثلاثة الأشهر . نزل اليها فى مسينا وزار بلرم وغادر الجزيرة من اطرابنش . ويصف ابن جبير كيفية دخول المسافرين مسينا بعد انكسار المركب فيقول (وهذا المضيق "أى مضيق مسينا" ينحصر فيـه البحر الى مقدار ستة أميال وأضيق موضع فيـه ثلاثة

أميال . والبحر به ينصب انصباب السيل العرم ويغلى غليان المرجل لشدة انحصاره وانضغاطه . وشقة صعب على المركب . فاستمر مركبنا فى سيره والريح الجنوبية تسوقه سوقا عنيفا فلما كان مع نصف ليلة الأحد وقد شارفنا مدينة مسينا من الجزيرة المذكورة ، دهمتنا زعقات البحريين بأن المركب أمالته الريح بقوتها إلى أحد البرين . فأمر رئيسهم بحط الشرع للحين فلم ينحط شراع الصارى وعالجوه فلم يقدروا عليه لشدة ذهاب الريح به، فلما أعياهم مزقه الريس بالسكين قطعا قطعا طمعا فى توقيفه . وفى أثناء هذه المحاولة سح المركب بكلكله على البر وقامت الصيحة الهائلة فيه بجاءت الطامة الكبرى والصدعة التى لم نطق لها جبرا . وتطاورت الريح والأمواج صفع المركب وألق الريس مرسى من مراسيه طمعا فى تمسكه فلم يغن شيئا ... فلما تحققنا أنها هى قمنا فشددنا للموت حيازيمنا وأمضينا على الصبر الجميل عزائمنا وأقمنا نرتقب الصباح أو الحين المتاح ... وفى أثناء مكابدة هذه الأهوال أسفر الصباح بجاء نصر الله والفتح وحققنا النظر فاذا بمدينة مسينا أمامنا على أقل من ميل ثم تمكن الشروق بجاءتنا الزواريق مغيثة ووقعت الصيحة فى المدينة فخرج ملك صقلية غليام (وليم) بنفسه فى جملة من رجاله مطلعا لتلك الحال. وبادرنا الى النزول فى الزواريق ... ومن العجب على ما أخبرنا به أن هذا الملك الرومى المذكور أبصر فقراء من المسلمين يتطلعون من المركب وليس لهم شيء يؤدونه فى نزولهم لأن أصحاب الزواريق أغلوا على الناس فى تخليصهم فلما علم بقصتهم أمر لهم بمائة قطعة من سكته ينزلون بها) .

وأعجب ابن جبير بصقلية أيما إعجاب ، فقد كانت الجزيرة إلى قبل قرن واحد تابعة للعرب، وكان العرب لا يزالون يقطنون بها وكان ملكها وليم قد

أثرى ابن جبير لأنه عدل بين السكان . فوصف الرحالة كل شىء فى الجزيرة وقع تحت عينيه . نخصبها وموانئها ومرافقها وأسطولها وأحوال المسلمين فيها وعيد الميلاد — كل أولئك شغلت ابن جبير ونالت من مقدرته على تسجيل تأثره لحظها ، فهو يقـول فى خصبها (وجبالهـا كلها بساتين مثمـرة بالتفاح والشاه بلوط والبندق والأجاص وغيرها من الفواكه) . ويقول فى موضـع آخر أنه أثنـاء ارتحاله من بلرم الى اطرابنش سلك على قرى متصلة وضياع متجاورة وأبصر محارث ومزارع لم ير مثل تربتها طيبا وكرما واتساعا ، وهو هنا يراها أهـلا للمقابلة بقرطبة وربضها . والميناءان اللذان أثرى ابن جبـير هما مسينا واطرابنش ، فقـال عن الأولى (مقصد جوارى البحـر من جميع الأقطار كثيرة الأرفاق برخاء الأسعار ... أرزاقها واسعة بإرغاد العيش كفيلة . لا تزال بها ليلك ونهارك فى أمان ... ومرساها أعجب مراسى البلاد البحرية لأن المراكب الكبار تدنو فيه من البحر حتى تكاد تمسه ، وتنصب منها الى البر خشبية ينصرف عليها فالحمال يصعد بحمله اليها ولا يحتاج لزواريق فى وسـقها ولا فى تفريغها ... فتراها (أى السفن) مصطفة مع البر كاصطفاف الجيـاد فى مرابطها واسطبلاتها وذلك لافراط عمق البحر فيها ... وفى هـذه المدينة دار صنعة (البحر) تحتوى من الأساطيل على ما لا يحصى عدد مراكبه) على أن ابن جبير يورد فى مكان آخر خبرا عن أسطول كان وليم يجهزه أثناء اقامة الرحالة فى الجزيرة وعندها يخبر بأن الأسطول الذى يريد هذه الطاغية تعميره عدد أجفانه ثلثمائة بين طرائد ومراكب ويستصحب معه مائة سفينة تحمل الطعام . ولم يستوثق ابن جبير من قصد وليم من تحضير هـذا الأسطول . وكل ما نلحظه هو أنه يرجو أن لا يوفق اذا كان المقصود به دارا من ديار العرب والاسلام .

ويعنى ابن جبير عناية خاصة بذكر شؤون العرب والمسلمين المقيمين بصقلية ، فهو يدوّن كل ما يبلغـه عنهم ، فهو يقول عن مسلمى مسينا أنهم مع أهل المدينـة على أملاكهم وضياعهم قـد حسنوا السـيرة فى استعمالهم واصطناعهم ضربوا عليهـم أتاوة فى فصلين من العـام . ثم ينتقل الى بلرم فيقول عنها أنه فيها سكنى الحضريين من المسلمين ولهم فيها المساجد والأسواق المختلفة . ويشير الى وليم ملك صقلية ، الذى يسميه غليام ، فيقول عنه (وشأن ملكهم هذا عجيب فى حسن السيرة واستعمال المسلمين ... وهو كثير الثقة بهم وساكن إليهم فى أحواله والمهم من أشغاله حتى أن الناظر فى مطبخته رجل من المسلمين والقـائد على جماعته السـود مسلم . ورجاله من المسلمين يلوح عليهم رونق مملكته لأنهم متسعون فى الملابس الفاخرة والمراكب الفارهة) . وغليام نفسه ليس فى ملوك النصارى أشرف فى الملك ولا أنعم ولا أرق منه وهو يتشبه فى الانغماس فى نعيم الملك وترتيب قوانينه ووضع أساليبه وتقسيم مراتب رجاله وتفخيم أبهة الملوك وإظهار زينته بملوك المسلمين وملكه عظيم جدا . وبلاط وليم فيـه (الأطباء والمنجمون وهو كثير الاعتناء بهم شديد الحرص عليهم حتى أنه متى ذكر له أن طبيبا أو منجما اجتاز ببلده أمر بامساكه وأدرّ له أرزاق معيشته حتى يسليه عن وطنه) .

ولمـا وصل ابن جبير بلرم أعجبتـه حضارتها فوصفها بعبـارة أخاذة (هى بهذه الجزائر أم الحضارة والجامعة بين الحسنيين غضارة ونضارة . فما شئت بها من جمال مخبر ومنظر ومراد عيش يانع أخضر عتيقة أنيقة مشرقة مؤنقة ، تتطلع بمرآى فتان ... فسيحة السكك والشوارع تروق الأبصار بحسن منظرها البارع ... وللمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الايمان يعمرون أكثر

مساجدهم ويقيمون الصلاة بأذان مسموع ولهم أرباض قد انفردوا فيها بسكناهم والأسواق معمورة بهم وهم التجار فيها ... ويصلون الأعياد بخطبة دعاؤهم فيها للعباسى ولهم بها قاض يرتفعون اليه فى أحكامهم وجامع يجتمعون للصلاة فيه ويحتفلون فى وقيد فى شهر رمضان المبارك . وأما المساجد فكثيرة لا تحصى وأكثرها محاضر لمعلمى القرآن) .

وبينا ابن جبير فى طريقه من بلرم الى اطرابنش مر ببلدة اسمها "علقمة" وقضى فيها ليلة وهى ، على ما قال (كبيرة متسعة فيها السوق والمساجد وسكانها وسكان هذه الضياع التى فى هذه الطريق كلها مسلمون) .

وكان ابن جبير فى أطرابنش لما انتهى رمضان فعيد فيها عيد الفطر المبارك ، وصلى فى أحد مساجدها صلاة الغرباء لأنه لم يخرج مع الباقين الى المسجد الجامع فيصلى صلاة العيد . أما الباقون فقد خرجوا إلى مصلاهم مع صاحب أحكامهم وانصرفوا بالطبول والبوقات . على أن ابن جبير يذكر فى مواضع أخرى ، قصصا عن خصومات كانت تقوم بين العرب والنورمان وكانت فيها اليد العليا للفئة الثانية بحكم غلبة سلطانهم .

وقد حضر ابن جبير احتفال أهل بلرم بعيد الميلاد فكتب فى وصفه قائلا (ومن أعجب ما شاهدناه فى بلرم كنيسة تعرف بكنيسة الانطاكى أبصرناها يوم عيد الميلاد وهو يوم لهم عظيم وقد احتفلوا له رجالا ونساء . فأبصرنا من بنيان الكنيسة مرأى يعجز الوصف عنه ويقع القطع بأنه أعجب مصانع الدنيا المزخرفة . جدرها الداخلة ذهب كلها وفيها من ألواح الرخام الملون ما لم ير مثله ، وقد رصعت كلها بفصوص الذهب وكللت بأشجار الفصوص الخضر ونظم أعلاها بالشمسيات المذهبات من الزجاج فتخطف

الأبصار بساطع شعاعها وتحدث فى النفوس فتنـة نعوذ بالله منها . وأعلمنا أن بانيها كان وزيرا لجد هذا الملك وقد أنفق فيها قناطير من الذهب . ولهذه الكنيسة صومعة قد قامت على أعمدة سوار من الرخام ملونة وعلت على أخرى سوار كلها فتعرف بصومعة السوارى وهى من أعجب ما يبصر من البنيان ... وزى النصرانيات فى هذه المدينة زى نساء المسلمين ، فصيحات الألسن ، ملتحفات ، متنقبات خرجن فى هذا العيد المذكور وقد لبسن ثياب الحرير المذهب والتحفن اللحف الرائقـة وانتقين بالنقب الملونة وانتعلن الأخفاف المذهبـة و برزن لكنائسهن حاملات جميع زينـة نساء المسـلمين من التحلى والتخضب والتعطر) .

هـذه، أيها القراء الكرام ، نتف مما دونه هذا الرحالة الكبير فى هذه الرحلة ، ونحن نرى حتى من هـذه المختارات القليلة الصعوبات التى تغلب عليها والمشاق التى تحملها فى سبيل رحلته وحجه . ومع ذلك فان ابن جبير رحل مرتين أخريين إلى المشرق : الأولى لما بلغه الخبر المبهج باحتلال صلاح الدين لبيت المقدس بعد معركة حطين . والثانية بعد أن توفيت زوجه عاتكة أم المجد فحزن عليها ونوى الحج ، وبعد أداء الفريضة عاد إلى الاسكندرية واستقر فيها وقرأ وحدث حتى توفى سنة ٦١٤ ﻫ (١٢١٧ للميلاد) . وإن كنا نأسف لشىء فالذى نأسف عليه هو أن ابن جبير لم يدون أخبار رحلتيه وكم كنا نربح لو أنه فعل .

٥ — بين صقلية وسورية

بعـد روجر بمائة سـنة جلس على عرش صقليـة فردريك الثـانى (١٢١٥ — ١٢٢٥) الذى كان فى الوقت نفسه إمبراطورا للامبراطورية الرومانية المقدسة . ثم تزوج وارثة عرش المملكة اللاتينية السـورية فصار

نظريا على الأقل، ملك القدس. وقد قاد فردريك حملة صليبية الى الشرق أيام الملك الكامل.

كان فردريك يتأسى الملوك الشرقيين فى ثيابه وبلاطه، وقد سار فى صقلية على غرار روجر الثانى صاحب الادريسى. فاعتنى بأن يكون فى حاشيته العلماء والفلاسفة والعرب من سورية وبغداد. واحتفظ بعلاقات سياسية وتجارية مع الملك الكامل، الذى كان معاصراله فى مصر وسوريا. فبعث إليه هـذا بهدية سنية كان فيها زرافة هى أول زرافة وصلت أوروبا فى العصور الوسطى. كما أن الملك الأشرف صاحب دمشق بعث الى فردريك بمجموعة فلكية تبين الشمس والقمر ودورانهما. وأرسل فردريك الى الأشرف هدية فيها طاووس أبيض.

ولما عاد فردريك من سورية اصطحب معه بزازين وعهد اليهم بتربية البزاة فى قصره، وعهد إلى تادورى الانطاكى بترجمة كتاب عن البزاة وتربيتها من العربية. وعلى أساس هذا الكتاب وغيره كتب فردريك نفسه عن هذا الموضوع. والى تادورى نفسه يرجع الفضل فى تلخيص سر الأسرار، وهو كتاب عربى فى أصول حفظ الصحة. وقد كان قبل تادورى هـذا ميشيل الايقوسى مقيما فى بلاط فردريك. وهذا كان قد طلب العلم فى أسبانيا وقام بنقل خلاصات من كتب أرسطو فى علم الأحياء مع شروح ابن سينا.

فشخصية فردريك يجب أن تعـد بين العوامل الرئيسية التى مهـدت الطريق للنهضة الأوروبية. فالشعر الإيطالى والأدب والموسيقى بدأ ازدهارها تحت تأثير العرب، الذين يعود اليهم الفضل فى حمـل الشعراء والمغنين على استعمال اللغـة الوطنية بدل اللغـة اللاتينية. على أن فضل فردريك الأكبر

على الحضارة العلمية فى أوروبا يظهر بشكل خاص فى انشائه جامعة نابولى سنة ١٢٢٤ ، وقد أودع فيها مجموعة كبيرة من المخطوطات العربية . وكانت مؤلفات أرسطو وابن رشد أساس التعليم فيها ، ومن هذه الجامعة أرسلت نسخ من هذه المؤلفات الى جامعتى بولونا وباريس . ومن المهم أن نذكر أن توما الأكوينى هو من أكبر علماء اللاهوت فى أوروبا فى العصور الوسطى كان من طلبة جامعة نابولى.

هذه اللمحة العابرة ترينا ، بصورة عامة ، فردريك ملك صقلية ، وتهيئ لنا السبيل لفهم العلاقة الوثيقة التى كانت له بالقدس وما اليها من بلادنا .

كان أول اتصال له بهذه البلاد أنه تزوج وريثة المملكة اللاتينية ، كانت الوريثة ازابلا وكانت تقيم فى عكاء ، فبعث فردريك برسله لاحضار عروسه . وكان وفده هذا فيه أربع عشرة سفينة تحت إمرة هنرى أمير مالطة ، وكان يرافق الأسقف يعقوب الباتى . وفى شهر آب ١٢٢٥ ألبست العروس ، وكانت فى الرابعة عشرة من سنها ، خاتم الزواج فى كنيسة الصليب المقدّس بعكاء ثم توجت أمبراطورة فى صور . وبعد أسابيع ودّعت إزابلا سوريا إلى صقلية . فلما وصلت برنديزى لقيها فردريك وهناك عقد الاكليل . وكان هذا الزواج سياسيا فى أصله ، وقد توفيت الزوجة بعد بضع سنين ، لكنها كانت قد خلفت طفلا صار هو وريث عرش المملكة اللاتينية ، ونصب فردريك نفسه حاميا له ووصيا عليه :

كان فردريك قد وعد البابا ، لما توج أمبراطورا ، أن يقود حملة صليبية ضدّ سوريا . لكن حروبه ومشاغله الأوروبية حالت دونه ودون القيام بما يريد . ولما فرغ من جميع مشاغله ، واعتزم القيام بالحملة فعلا ،

كان البابا قد فرغ صبره وحرم فردريك ومنعه من ذلك . لكن الامبراطور لم يبال وخرج إلى المشرق .

وقبل أن نعرض الى هذه الحملة وما كان من شأن الملك الكامل فيها ، نريد أن ننتقل الى سوريا ومصر . لنرى ما كان فيها ، مما يمكن أن يلقى شيئا من الضوء على التاريخ السياسى لهذه الفترة العصيبة . كان الملك الكامل صاحب مصر وكان المعظم عيسى أخوه صاحب دمشق ، وكان بين الأخوين بعض النفور ، وهم المعظم بالاستنجاد بملك خوارزم جلال الدين ضد أخيه الكامل . والظاهر أن هذا ارتاع لذلك فكتب الى فردريك يفاوضه فى أمر المجىء الى سوريا . و يروى العينى أن الكامل وعده أن يعطيه أماكن مقدسة معينة أن جاء لنجدته . ففهم فردريك من ذلك أن الملك الكامل كان ينوى أن يعيد اليه كل الجزء الذى احتله صلاح الدين من أيدى الصليبيين . فرد على الملك الكامل ردًا لطيفا و بعث اليه برسول يحمل هدية سنية وتحفا غريبة . ولقى الرسول حفاوة على يدى الكامل ؛ فأقيمت له الزينات وأنزل فى دار الوزير . ولما رحل جهز الكامل له هدية رائعة لفردريك فيها من تحف الهند واليمن والعراق والشام ومصر والعجم ما قيمته أضعاف هديته . وعين الكامل جمال الدين بن منقذ الشيرازى للسير بهذه الهدية .

فلما اعتزم فردريك القيام بالحملة الصليبية لم يبال بحرمان البابا لأنه جاء وهو مطمئن الى الحصول على نتيجة ما . فوصل عكاء فى خريف ١٢٢٧ (شوال ٦٢٤) ، فوافق ذلك موت المعظم وزوال الخطر الذى كان يتوقعه الملك الكامل . فتغيرت وجهة نظره كثيرا . وهنا دارت بين الصديقين

مفاوضات ديبلوماسية طويلة ، وكان الملك الكامل ، قسما كبيرا من الوقت ، فى تل العجول ، قرب غزة ، وكان فردريك فى عكاء فبعث برسوله إلى الكامل يذكره بما كان من مفاوضة سابقة ، وتلكأ الكامل قليلا . فانصرف الامبراطور إلى تعمير صيدا وتحصينها ، وكانت قد خربت من أيام صلاح الدين ، وكانت مناصفة بين العرب والصليبيين . وتردّد الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ والشريف شمس الدين بين الملكين . وانتقل فردريك إلى يافا وعمر حصونها وكانت خرابا ، واعتبر الكامل هذا نقضا للمفاوضات . لكنه لم يكن يريد أن يحارب فردريك رغم أن قوات هذا لم تكن كبيرة . وقد روى أن فردريك بعث الى الكامل يطلب اليه أن يعطيه القدس كى لا يفقد كل قيمته فى عيون ملوك أوروبا وأهلها والبابا لأنهم كلهم كانوا يحسدونه .

وكانت نتيجة هذه المفاوضات الطويلة أن وقع الاتفاق بين الكامل وملك الفرنج على أن يأخذ الفرنج القدس من العرب ويبقوها على ما هى عليه من الخراب ولا يجددوا سوريها . أما قرى القدس فتظل بأيدى الملك الكامل . وأما الحرم بما حواه من الصخرة والمسجد الأقصى ، فيكون بأيدى المسلمين ويتولاه قوام منهم ، ولا يدخله الفرنج إلا للزيارة . أما الساحل فقد ظل على ما اتفق عليه صلاح الدين وريكاردوس . وعقدت الهدنة وكانت مدّتها عشر سنين ونحوا من ستة أشهر . وحلف الملكان على ما تقرر .

أما الناس فقد عز عليهم ذلك فى القدس وغيرها ، فأهل القدس اشتدّ بكاؤهم وعظم صراخهم وعويلهم وحضر المؤذنون والأئمة من القدس إلى

مخيم الكامل وأذنوا على بابه فى غير وقت الأذان . وفى دمشق شنع الناصر داود على عمه الكامل فنفرت قلوب الرعية وجلس الحافظ شمس الدين بن سبط الجوزى بجامع دمشق وذكر فضائل بيت المقدس وحزن الناس على ماحدث وبشع القول فى هذا الفعل وأنشد قصيدة أبياتها ثلثمائة بيت قال فيها :

على قبة المعراج والصخرة التى تفاخر ما فى الأرض من صخرات
مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحى مقفر العرصات

ومما يجدر ذكره أن الملك الكامل نفسه حاول أن يبرر موقفه فقال " إنا لم نسمح للفرنج إلا بكنائس ومنازل خراب والمسجد على حاله وشعار الاسلام قائم ووالى المسلمين متحكم فى الأعمال والضياع " .

وأراد الامبراطور أن يدخل القدس . فسير الملك الكامل معه شمس الدين قاضى نابلس فسار معه اليها حيث قام بدور تسليم المدينة رسميا وسار معه إلى المسجد ثم طاف معه المزارات . وأعجب الامبراطور بالمسجد الأقصى وقبة الصخرة ، ورأى هناك أفرنجيا يريد الدخول فانتهره وأنكر مجيئه وقال " إنما نحن مماليك هذا السلطان الملك الكامل وقد تصدق علينا وعليكم بهذه الكنائس على سبيل الانعام منه فلا يتعدى أحد منكم طوره " .

ولما دخل وقت الظهر وأذن المؤذنون قام جميع من كانوا معه من الفراشين والغلمان ومعلمه وكان من صقلية يقرأ عليه المنطق فصلوا وكانوا مسلمين .

ونزل الامبراطور ، أثناء إقامته بالقدس ، فى دار قريبة من الحرم الشريف . وأمر القاضى شمس الدين المؤذنين ألا يؤذنوا تلك الليلة فلم يؤذنوا البتة ، فلما أصبح قال الملك للقاضى لم لم يؤذن المؤذنون على المنائر ؟

فقال له القاضى إنه منعهم لإراحة الملك . فقال له الامبراطور (أخطأت فيما فعلت والله إنه كان أكبر غرضى فى المبيت بالقدس أن أسمع الأذان والتسبيح فى الليل) .

وأثناء إقامته فى القدس توج فردريك ملكا فى كنيسة القيامة ، لكن حفلة التتويج كانت مدنية بسبب حرمان البابا له .

ثم عاد إلى عكاء ، بعد أن قضى فى القدس ثلاثة أيام . وكانت عكاء تغلى بروح الكره له ، فقضى فيها شهرا ثم غادرها غير مأسوف عليه . وقد أدرك أن أهل البلدة لا يحبونه فتركها تحت جنح الظلام ، قبيل بزوغ الفجر ولم يرافقه إلا قلة من البارونات . لكنه لما اجتاز حى الجزارين فى طريقه الى الميناء شعر به أهل ذلك الحى ، وكانوا قد بكروا لأعمالهم ، فقذفوا أحشاء ذبائحهم على أتباعه .

أما علاقة فردريك بالملك الكامل فقد ظلت ودّية . وكان الامبراطور ، على رواية المقريزى ، متبحرا بالرياضيات والهندسة والحساب وبعث الى الكامل بعدّة مسائل مشكلة فى الهندسة والحكمة والرياضة فعرضها الكامل على الشيخ علم الدين فقيصر الحنفى المعروف بتعاسيف وغيره فكتب جوابها على أن أهل قضاء القدس ونابلس لم يلبثوا حتى عملوا على استرداد القدس بالقوّة من أيدى الافرنج ، وقد كاد ذلك أن يتم لهم لولا أن جاءت نجدة قوية من عكاء .

لكن القدس لم تظل مدة طويلة بأيدى الإفرنج . فإن قوة المماليك الجديدة كانت على وشك الظهور فى الشرق العربى ، فلما ظهرت فى أواسط القرن ، وفى السنة التى مات فيها فردريك ، لم تنتظر القدس طويلا حتى

عادت الى أيدى أصحابها . ثم لم تلبث هـذه القوة نفسها حتى أخرجت الصليبيين من سوريا كلها ، وكان ذلك بعد وفاة فردريك بنحو أربعين سنة .

وكان الملك الظاهر بيبرس البندقدارى من كبار الرجال الذين عملوا على إخراج الصليبيين من سوريا . وقد كان الملك الظاهر الذى حكم فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر شديد العناية فى توثيق الصلات بينه وبين ملوك أوروبا وأمرائها . وممن اتصل بهم منفرد ملك صقلية فتبادل معه الرسل والهدايا . وأرسل الظاهر الى منفرد وفدا مزودا بالتحف وأرسل له عددا من الزراف وجماعة من التتار الذين أسروا فى معركة عين جالوت بخيولهم التتارية وعدتهم . ولما وصل الوفد الى ملك صقلية تلقاهم بالترحاب وأعجب بالهدية وخاصة بالزراف والتحف ، وكان رئيس الوفد الظاهرى هو ابن واصل قاضى قضاة حماة .

وبعد مدة بعث السلطان هدية مع أحد رسله وبذلك توثقت عرى الصداقة بين البلدين .

ثم استمرت العلاقات فى عهد خليفة منفرد شارل أنجو ، فتبادل الملكان الرسل والهدايا والكتب . ويظهر أن الملك الظاهر أصبح ذا نفوذ فى صقلية . وهذا الأمر واضح من كتاب بعث به أحد رجال الملك شارل إلى الملك الظاهر وقد جاء فيه ما معناه أن ملكه شارل أمره بأن يكون أمر الملك الظاهر نافذا فى صقلية وغيرها وأن يكون الكاتب نائبا للملكين .

ومما لا ريب فيه أن الغرض من هذا الكتاب وأمثاله هو تمهيد الطريق لعقد معاهدات تجارية بين القاهرة وصقلية . وهذه هى النزعة التى كانت تغلب على العلاقات السياسية فى القرن الثالث عشر ومابعده بين أوربا والشرق .

سورية كما عرفتها

(١) طبرية . (٢) إلى جبل الشيخ . (٣) من صنين إلى الأرز .
(٤) حصن الأكراد . (٥) فى بلاد المعزى . (٦) فى الطريق إلى جرش .
(٧) ديار الأنباط . (٨) ذكريات شامية .

١ — طبرية

من الأمور التى تلفت النظر فى العالم المتمدن عناية الجماعات فيه بالتعرف إلى بلادها تعرّفا دقيقا . فالفرد والحكومة يتعاونان تعاونا وثيقا فى سبيل رسم صورة صحيحة للبلاد يعطاها الناشئ فى صغره ، فاذا شب أخذ فى التنقل فى بلاده ، مستطلعا خفاياها ، متعرّفا إلى أماكن الجمال فيها ، فيقوى اتصاله الشخصى بها ، ويحبها ، ومتى تم ذلك شعر المرء بواجبه نحو بلاده وقومه ، فلا يمتنع عن التضحية إذا دعا الداعى ، ولا يفرط فى أمورها متى جدّ الجدّ .

وقد سهلت وسائل الاتصال الحديثة التنقل ، فصار من الميسور على أى شخص أراد ذلك أن يزور القسم الأكبر من بلاده . وكثرت الجمعيات والأندية التى تنظم الأسفار والرحلات، والتى تقيم فى المراكز الرئيسية أماكن يلجأ اليها الشباب فى تنقلهم ورحيلهم لقاء أجر ضئيل جدا . ففى إنكلترا مثلا يوجد ما يعرف باسم « منازل الشباب » youth hostels التى يقضى فيها العضو ليلة لقاء بضعة قروش، ويتناول طعاما خفيفا ، ولكنه مغذ، بسعر رخيص، لكن عليه أن يقوم بتنظيف المكان الذى أقام فيه قبل رحيله فى الصباح . وهذا أمر لا يستغرق من الجهد والوقت إلا الشىء القليل .

وفى أوربا تصل الطرق على اختلاف أنواعها إلى أكثر القرى ، بله المدن، وهذا بالطبع يسر التنقل، ولعل الدرّاجة العادية (البسكليت) أكثر

الوسائل استعمالا عند الشباب والشابات فى غرب أوربا . وما أكثر ما تشاهد جماعات كبيرة تنتقل من شرق فرنسا إلى غربها مثلا على هذه الدراجات .

ونحن إذا نظرنا الى أنفسنا ، وجدنا أننا مقصرون تقصيرا كبيرا نحو بلادنا . وقد شمل التقصير الأفراد والجماعات . فما أقل ما نعرف عن دارنا . ولست أريد أن ألوم أحدا ، رغم كثرة من يقع اللوم عليهم ، ولكننى أود أن ألفت نظر قرائى الكرام إلى هذه الناحية من حياتنا . فبلادنا جميلة ، شهدت لها الأعداء أم لم تشهد ، وبلادنا تستحق منا أن نبذل فى سبيلها جهدا ، سيما وأن هذا الجهد يعود علينا بالفائدة والسرور . وهذا التعرّف إلى بلادنا العربية ، الذى أدعو اليه اليوم ، أمر خبرته بنفسى ولمست أثره فى كيّنى الروحى والعقلى ، فان تجوّلى فيها حبب إلىّ بلادى وقومى ، وأفهمنى معنى الوطنية أكثر من كل ما سمعت من مدرّسى ، وقرأت فى الكتب .

وذلك أننى تجوّلت فى سوريا على الأقدام ، فوصلت إلى بقاع لا تعرف السيارة ، ولم تسمع بالقطار ، وشهدت أن هناك الطبيعة فى جمالها الرائع ، وسمعت خرير السماء عند منابعه النائية ، واستنشقت هواء الجبال الشماء النقى ، وراقبت الشمس تشرق فوق الصحراء السورية وتغرب على شواطئ البحر المتوسط وشاركت قومى مواسمهم وأفراحهم وأتراحهم فى عقر دورهم ، فاختلطت بهم نفسى وشعرت أننى جزء من كل ، وأن ذلك الجزء حرى بأن يفنى فى سبيل الكل إذا اقتضت المصلحة ذلك .

ولا شك أنه من السهل على كل آمرئ أن يصل إلى دمشق وحلب وبيروت وأنطاكية ومصايف لبنان ، ومن تضطره أعماله أو صحته إلى الاكتفاء

بالسفر السهل فليفعل ذلك ، لكن من يستطيع أن يمشى فى بلاده فليمش ما وجد الى ذلك سبيلا . والمشى أو ركوب الدابة إذا شاء ، هو الذى يوصله إلى قمة جبل الجرمق وجبل الشيخ وجبل صين وجبل الشعرا وظهر القضيب ، والمشى هو الذى ينقله إلى منابع الأردن ومنابع نهر إبراهيم ومياه العاقورة ونبع اللبن والعسل وجسر الحجر ، والمشى هو الذى يحمله إلى دير مار سابا والنبي يونس وسبلان .

ولأنتقل الساعة من التعميم إلى التخصيص فأتحدث عن منطقة صغيرة فى سوريا ، لكنها ، على صغرها ، تحوى من مغانى الجوال وذكريات التاريخ ما يستحق أن تشد إليه الرحال .

فى شمال فلسطين مجموعة من المياه تشغل جزءا من غور الأردن تقل مساحته عن الثلاثمائة من الكيلومترات المربعة ، وينخفض سطح الماء فيها نحو مئتين من الأمتار عن سطح البحر . وتحيط بهذه المياه جبال ترتفع فى أكثر الأحيان ارتفاعا فجائيا ، وفى أقلها تدريجيا ، إلى مئات الأمتار . هذه هى بحيرة طبرية . وهى مثل من الأمثلة الكثيرة على أماكن الجمال وبقاعه فى بلادنا . والحق أنه لا يجوز أن يخرج أحد أبناء بلادنا إلى الخارج قبل أن يزور هذه المنطقة . ذلك لأنها تضع أمامه مقياسا رفيعا للجمال يسهل عليه الحكم على ما يرى فى أجزاء كثيرة من العالم . والمقياس الرفيع هذا يرجع إلى تنوع الصور الجميلة التى تنطبع فى ذاكرتك للأماكن . فأنت تجلس فى صباح يوم أيام الربيع لتراقب الشمس تجد السير للطلوع علينا . فإذا ما بدت لك بشائرها رأيت غيمة تعترضها ، وينتقل بك الخيال إلى مشاهدة خصومة عنيفة بين الشمس والغيمة ، فترتفع الواحدة وترتفع الأخرى ، وتوشى الشمس

أطراف الغيمة بخيوط فضية ، ثم بخيوط ذهبيــة ، فتعجب الغيمة بجمالها ، وتتيه لدلالا فيغلبها النور الوضاح ، وتزهــو الشمس فى الأفق . فإذا جئت فى صباح آخرلترى مثل ذلك الشروق الجميــل ، ولتستمتع مرة ثانية بهــذه الخصومة تشنها جيوش النور على فلول الظلام وأعوانه شهدت عجبا . هــذه الغيمة استعانت بأخوات لهــا ، عزيزات عليها ، وتقف الغيــوم فى طريق الشمس ، فإذا ظهرت هــذه رأت عجبا من القوة والنفوذ ، فتلح فى حقها ، وتجمع قوتها ، وتهاجم ، وتشتد الخصومة ، ويجرّد السلاح ، ويعنف القتال ، وتسيل الدماء ، وكل ذلك صور تتعاقب أمامك وتملؤك سرورا ومتعة ، وتثير فى نفسك كوامنها وتهيجك للقتال والجهاد فإذا انتهت المعــركة بتغلب النور أيضا ، رأيت الشمس رفيقة بالغيوم المنهزمة والمضرجة بدمائها ، فهى تجمع لهــا الورود تنثرها عليها ، ثم تلفها كلها بنورها ، وتنقلها معها إلى حيث ينقل الأبرار والصالحون من أبناء الآلهة .

وإن لم تكن من عشاق الشروق ، فأنت واجد فى قارب يمخــر بك مياه البحيرة ، يشق بحيزومه ماءها ، فى ساعة من ساعة الصباح ، أو ساعة من ساعة المساء ، ما يذهب عنك التعب ، أو ما يعطيك رياضة جسمية إذا أرحت الملاح من عمله وتناولت مجاديفه وحركتها بدلا منــه . وأنت إذ تنتقل من مكان إلى آخر فى البحيرة ، توجه وجهك نحو جبل الشيخ الملتحف بردائه الأبيض ، فترضاه لك قبلة تتولاها ، تسترشد برشده ، وتهتدى بهديه ، وتعجب بعظمته ، وتقوى بقوته ، وتشعر بمعنى رسوخ العقيدة ، والاطمئنان إلى الإيمان .

على أن بحيرة طبرية تحوى فى ربوعها غير هــذا الذى ذكرت . فقــد اختصم فيها النور والظلام غير مرة ، وانتصر النور . فشواطئ البحيرة شهدت

الكثير من تنقل السيد المسيح ووعظه وإرشاده وأعماله ، ومن صيادى السمك هناك أخذ السيد المسيح بعض رسله ، وبين أهليها عاش . فالمجدل ، بلد مريم المجدلية ، وجبل البركة وكفر ناحوم (تلحوم) وبيت صيدا ، أماكن تثير فى نفس المؤمن ذكريات حية ، وتفتح أمامه آفاقا جديدة فى التفكير الروحى ، وتقدم له ألوانا من الغذاء المعنوى ، لا يحصل عليه فى أماكن كثيرة فى بلادنا .

وعلى مقربة من البحيرة ، فى وادى اليرموك وضعت أسس القومية العربية لهذه البلاد لما انتصر ابن الجراح على جيوش هرقل وهزمها سنة ١٥ هجرية (٦٣٦ ميلادية) ، وعند شعاب حطين ، إلى الغرب من البحيرة ، لقى صلاح الدين جيوش الصليبيين ، وانتصر عليهم ، وأثبت رسالة اليرموك فى هذه البلاد ، ونحن إذا توسعنا فى المنطقة قليلا تذكرنا معركة عين جالوت التى ردت جموع المغول عن سوريا فى القرن الثالث عشر . نعم هذه هى النواحى الروحية والقومية التى تنعشها فى نفوسنا بحيرة طبرية وما حولها .

على أننا ، ونحن نستعرض هذه النواحى من بحيرة طبرية ، ورسالتها الروحية ، نود أن نذكر النواحى الأخرى لهذه المنطقة . فثمة الناحية الصحية المتجلية فى حماماتها المعدنية ، وفى الحمة التى يسهل الوصول إليها منها ، وفى الينابيع الأخرى الصغيرة المنتشرة فى ربوعها ، وفى المصح الذى افتتحته إدارة الصحة العامة بفلسطين فى الطابغة . وثمة الناحية الأثرية التى يعنى بها المؤرخون والمنقبون ، والتى يجدونها ممثلة فى دراسة أنقاض طبرية القديمة وكفر ناحوم وما إليهما . وقد ظهر من نتيجة هذه الأبحاث أن بحيرة طبرية كان يحيط بها فى أيام المسيح بضع عشرة مدينة يبلغ عدد سكانها كلها نحوا من ١٥٠٠٠٠

نسمة . وفى المدينة نفسها بقية الأبراج والأسوار التى بناها ولد الظاهر عمر فى القرن الثامن عشر للدفاع عنها .

ومن هنا نرى أن التنوع فى جهات بحيرة طبرية هو العامل الرئيسى فى حسبانها بقعة جميلة جذابة ، هذا على أن يحسن المرء اختيار الوقت لزيارتها ، وأفضله الشتاء والربيع . على أننى عرضت البحيرة وجهاتها فى الصيف غير مرة ، ونعمت بحرها ، وهو شرها ، ونعمت بمائها وهو الخير كل الخير . وأن أنس لا أنسى يوما حارا من أيام الصيف صرفته مع جماعة من الصحب تنقلنا فيه فى قارب بين المدينة وتلحوم والطابغة والمجدل . فحرقتنا الشمس ما شاء لها أن تحرق ، وغمرنا الماء ما شاء له أن يغمر ، وشاركنا البحارة فى التجديف ، وساعدنا الصيادين فى لم شباكهم ، فأعطونا من السمك الذى أفاء الله به عليهم ، وأوقدنا النيران وشوينا السمك واستمتعنا به . فكان لنا كل ما يكون لطالب النزهة والراغب فى اللهو البرىء ، والمرح الذى يذهب عن النفس أحزانها ، و يورثها ذكريات عذبة .

والوصول إلى بحيرة طبرية ميسور على كل من أراد . فهى تقع على طريق العربات الرئيسى الذى يصل دمشق وصفد بحيفا . وهى إلى ذلك على فرع سكة الحديد الحجازية الذى يمتد من درعا إلى حيفا . فهى فى متناول المقدسى فى أقل من خمس ساعات ، وفى متناول الشامى فى مدة تزيد على ذلك . أما أبناء المدن الأخرى فأمرهم أهون وخطبهم أيسر . ومتى وصل المرء إلى طبرية واستقر فيها اتخذها مركزا لتجواله ، ونقطة ابتداء لأسفاره . وكل جزء من شاطئ البحيرة وضفافها حرى بالزيارة . فمحب السير على الأقدام يمتع نفسه بتسلق وادى الحمام إلى قلعة ابن معن ، وهى مجموعة من

المآوى المنحوتة فى الصخر والكهوف الطبيعية على عدوات الوادى ، يتسلق إليها المرء فى شيء كثير من الصعوبة ، وشيء كثير من المتعة ، فإذا وصلها أطل منها على البحيرة الهادئة الصافية وخلفها جبال الجولان البركانية ، فرأى منظرا ينطبع أثره فى النفس ويعجز الانسان عن وصفه ، وإذا استمر فى سيره ساعة أخرى وصل إلى خربة إربل أو أربد ، حيث يعثر على أنقاض قصر هو أحد القصور الصغيرة التى بناها الأمويون لاعتزال الحياة الصاخبة فى دمشق والاستمتاع بحياة خاصة هادئة . وإن ساعة أخرى لتنقل السائر إلى سهل حطين ، حيث جرت الموقعة الحاسمة ، وإلى قرية حطين حيث يوجد مقام النبى شعيب . فإذا تسلق قرون حطين ، وألق بنظرة إلى البحيرة والغور الذى تشغل بعضه ، تمثلت أمامه حقبات التاريخ منذ أن انتقل الانسان من الهمجية إلى الحضارة إلى عصرنا الحاضر .

أما الذين يحبون التجديف فانهم واجدون فى يوم أو أكثر متعة لا أحسب أن أماكن كثيرة فى العالم تجود بمثلها . أنهم واجدون لذة فى الانتقال على شواطئ البحيرة كلها فى قارب ، يحملون فيه زادهم ، وقد يحملون معهم خيمة ، إذا شاءوا ، ليقضوا ليلة فى الجهة الشمالية الشرقية من البحيرة . وهم إذ يصلون إلى فيق ، فى الجهة المقابلة لطبرية تماما ، يرون هناك آثار الطريق الرومانى القديم الذى كان يمتد من مرج ابن عامر ، مارا بجنوب البحيرة ومنها إلى دمشق بطريق فيق . وكان يتشعب من هذا الطريق فرع يحمل المسافرين إلى جدرو أو جدارا التى كانت تقوم حول الحمة الحالية ، ذات الحمامات المشهورة . لقد كانت جدرو فى العصر اليونانى الرومانى كبيرة ذات مسرح ومسبق وملعب ، فتمثلت فيها الحضارة الرومانية بأجلى مظاهرها ،

ونبغ منها شعراء وأدباء . والطريق الحالية من سمخ إلى الحمة تتبع آثار هذه السكة الرومانية، محاذية نهر اليرموك إلى درجة كبيرة .

ومن وصل إلى بيسان،وهي على مسافة يسيرة من جنوب البحيرة، رأى ما فيها من خصب ورخاء وأشرف على غور أبي عبيدة، حيث يقوم قبر أبي عبيدة ابن الجراح ، بطل اليرموك .

وقد كانت الأراضي المحيطة ببحيرة طبرية دائما مركزا رئيسيا لانتاج نباتات المنطقة الحارة . ولا غرابة بذلك، فهي تنخفض نحو مائتي متر عن سطح البحر ، والحر فيها موفور والماء كثير . وقد روى جغرافيو العرب ، على اختلاف ألوانهم ، الكثير من أخبار المنطقة . فبانياس ونوى إلى الشمال حول الحولة، كانتا هريا لدمشق في الأرز والقطن،وطبرية كانت تكثر فيها، على رواية ناصري خسرو، البيوت المعدّة لطلاب السرور واللهو الآتين اليها من أماكن كثيرة . ويروى الرحالة نفسه أن حصر الصلاة التي كانت تصنع في طبرية كانت جيدة متقنة فتباع واحدتها بخمسة دنانير، أي ما يزيد على الجنيهين بعملة اليوم .

أما بيسان فيروى المقدسي أن مزارع الأرز فيها كانت تكفى سكان جندى الأردن وفلسطين ، وينقل القلقشندي أنها كثيرة الخصب واسعة الرزق .

هذه هي منطقة طبرية، وهي على ما خبرتها بنفسي، واحدة من البقاع الرئيسية في بلادنا التي تستحق أن يتعرّف اليها كل واحد منا . فليقم كل منا بواجبه في التعرّف إلى البلاد العربية، وليبدأ بطبرية وبحيرتها . فإنها بداية طيبة .

٢ — إلى جبل الشيخ

أمنية جاشت فى نفسى منذ أن كنت يافعا — هى أن أصل إلى قمة جبل الشيخ . فقد رأيت الجبل الكبير، رابضا على أطراف السهول الواسعة لأول مرة ، إذ كنت مسافرا من دمشق إلى حيفا ، فألهانى منظره عن الأراضى الفسيحة التى يجتازها المسافر ، وشغلتنى رؤيته عن كل ما عداه ، فملأ نفسى رهبة وشاعت فيها خشية الشىء العظيم الأبى ، ورغبت فى أن أرقاه . وكنت أينما سرت فى مرتفعات هذه البلاد ، يبدو لى جبل الشيخ يدعونى لارتقائه ، وكأنه يتحدانى . وكل مرة كنت أسمع فيها دعوته ، كنت ألبى نداءه وأعده بالذهاب ، حتى تم لى ذلك مرتين . فتسلقت جبل الشيخ من جهتين مختلفتين، وبشكلين متباينين، وعرفت لذة الوصول إلى القمة ، وأدركت معنى الاستمتاع بالأفق الواسع يشرف منه المرء على الأمور إشرافا كليا ، فتغيب الجزئيات والصغائر أمام الكليات والعظائم .

كان اليوم أحد أيام النصف الأول من شهر آب (أغسطس) ، وكان الحر شديدا ، سيما وأن الليلة السابقة قضيناها فى الخالصة شمالى بحيرة الحولة فى غور الأردن . وكانت الشمس قد ملأت الأفق ، لما اتخذنا طريقنا — أنا وصديق — من الخالصة إلى جباتا الزيت . كانت طريقنا تمر فى بقعة من أجمل بقاع بلادنا، إذ كان علينا أن نجتاز المنطقة التى تقطعها روافد الأردن . وكان تل القاضى أجمل هذه الينابيع وأولها فى طريقنا . فقد وصلنا إليه قبيل الظهر ، فأشرفنا على تلة ، لعل طولها لا يتجاوز الثلاثين من الأمتار، ولا تكاد ترتفع عشرين مترا، تكسوها الأشجار والأنجم البرية، وينبثق من غربها نبع ماء قوى ، يشق طريقه من أحشاء الأرض و يجرى

الجنادل فى سيره ، ويملأ الجو صوتا موسيقيا ، ويملأ النفس لذة وسرورا.
ويأبى الرعاة إلا أن يجعلوا لهذا الشجر الجميل هالة من القداسة، فهم يحملونك
على أن ترى عشر شجرات منفردة عن غيرها، وإذ تقتنع بذلك يتقدم أحدهم
فيروى لك، فى كثير من الإيمان وكثير من اليقين، أن عشرة من الصحابة
الكرام مروا بهذا المكان، فربطوا خيولهم فى أوتاد غرسوها خاصة لذلك ،
فاذا الأوتاد تنبت شجرا كريما، وإذا الشجرات العشر تبقى إلى يوم الناس هذا.

وإن ساعة وبعض الساعة من المشى لتنقلنا إلى بانياس ، فنجتاز
فى طريقنا أرضا خصبة جميلة ، مكسوة بالأشجار ، ونعبر النهر على بقية
صالحة من جسر رومانى ، فنصل إلى غار كبير — بعض أجزائه حمراء .
ومن صدر الغار يخرج نهر كامل العدة والصورة . وإذ تقف داخل الغار :
فترى هذه الولادة العجيبة ، وتمتع نفسك بهذا الجمال الفذ، وتستروح معنى
هذا الانبعاث ، تفهم السر فى أن الأقدمين قدسوا هذا المكان وباركوه
وعزوا إليه قوة خارقة ، فعبد الساميون القدماء فيه آلهة الماء الجارية تحت
الأرض ، وكرسه اليونان للإله بان وإلاهات السحر الجميلة . ومن "بان"
اشتقت المدينة والمنطقة اسمها ، واحتفظت به ، رغم أن كل حاكم أقام
هناك حاول أن يغير المدينة ويسميها باسمه . لكن الأيام حفظت إسم الإله
الجميل ، واستغنت عن أسماء الحكام ، ولم يكتف "بان" بطبع المكان
بطابع الإسم، لكن أثره تعدى ذلك إلى النقود التى سكت هناك، فظهرت
صورته عليها ، يحمل نايه يغنى الأغنية التى تبقى بعد أن تفنى الحياة .

وبانياس اليوم قرية ، قد لا يتجاوز عدد سكانها الألف ، لكنها كانت
فى أيام الرومان والعرب مدينة كبيرة ، تتركز فيها الحياة التجارية والزراعية

والإدارية للمنطقة كلها . وقد أعجبت ابن جبير إذ مر بها فى طريقه من دمشق إلى عكاء فقال فيها " هذه المدينة ثغر بلاد المسلمين (وهى صغيرة) ولها قلعة يستدير بها تحت السور نهر ، ويفضى إلى أحد أبواب المدينة وله مصب تحت أرجائها ... ولها محرث واسع فى بطحاء متصلة يشرف عليها حصن للأفرنج يسمى هونين " .

على أن القلعة الرئيسية التى تحمى المنطقة منذ أقدم الأزمنة لم تكن قلعة بانياس نفسها ، ولكنها قلعة الصبيبة التى تقع على مسير نحو ساعة إلى الشرق من بانياس . هذه القلعة ، على ما تظهر مما تبقى منها قائما إلى الآن ، أكثرها من نتاج العصر الصليبى ، وعليها نقش "يرجع إلى أيام الملك العادل . وتقع القلعة على مرتفع من الأرض يمكن الواقف على أعلاها من رؤية قلعة الشقيف (أرنون) وهونين غربا ، وسهل الحولة وقرا ، غربا فى جنوب وجباتا الزيت شرقا . وقد أطلقت الأسطورة المحلية ، منذ زمن قديم ، على القلعة اسم قلعة نمرود . ذلك لأن ضخامة الحجارة ، وعظم البناء ، وارتفاع الأبراج ، وحصانة الأسوار — كل أولئك أقنع الناس منذ أجيال أن هذه القلعة من بناء الجبابرة القدماء لا من عمل الإنسان ، فنسبوها إلى بطل الجبابرة نمرود .

أليس فى هذه الأماكن متعة تهيئ المرء السائر فيها لقبول ضيافة المساء فى جباتا الزيت ، إذ يصلها والشمس قد جمعت آخر خيوط لها فى الأفق ؟ ونقضى بعض المساء فى تحدث عن رحلة الغد . نعم إلى قمة جبل الشيخ الواقعة جباتا على طرفه الجنوبى . أن حلم الصبى على وشك أن يتحقق . ويتقدم القوم المجتمعون محاولين إقناعنا بالعدول . فالطريق صعب المرتقى والمسافة

طويلة ، والماء نزر ، ولا سبيل إلى الحصول على دليل يرافقنا . ويرى مضيفنا أننا نسمع كلامه وكلام رجاله ، دون أن نقبل نصحهم ، ويتأكد من أننا لا بد صاعدان . فيهيئ لنا كل ما نحتاج ، فثمة دليلان بدل الواحد ، وكل منهما يأتى ببغلته معه ، على سبيل الاحتياط . والحيطة هذه ظهرت بعد ساعات إذ امتطى كل من الدليلين دابته وسارا يرشداننا إلى الطريق . وهذا مضيفنا الكريم يعدّ لنا زادا كثيرا ، وماء نحمله فى تنكتين ، فقد لا نجد عند القمة ثلجا نذيبه ، لأن ذوبان الثلج بدأ مبكرا تلك السنة ، ولعله زال مبكرا تلك السنة ، ولعله زال كله عن الجبل ، وهذا ما لقيناه فعلا .

كانت الساعة الرابعة صباحا لما خرجنا من جباتا . وأن أنس لا أنس مختار القرية ، وقد رآنا نخرج منها ، إذ لحق بنا يحاول فى آخر لحظة أن يثنينا عن عزمنا . لقد أقسم بوجود الخطر ، ولما يئس منا ، بعد أن سايرنا مسافة طويلة ، أشهد الفلاحين علينا أنه براء من دمنا ، إذا مسنا ضر ، فقد أنذرنا ولم نلتفت له ، وتركنا صاخبا .

مررنا بين كروم العنب أولا ، لكن هذه لم تلبث أن انقطعت . واستعضنا عن رفقة الكرم بالحمص الأخضر ، حتى وصلنا " مرج أبو عبد الله " ، وهو آخر الجزء الذى يزرع ولم نر بعد ذلك إلا بقية أعشاب ترعاها الماشية ، التى تصطاف هناك مع رعاتها ، وترتوى من نبعة " معنون " الباردة ، على أن الأعشاب نفسها أخذت تتناقص شيئا فشيئا وتحل محلها نباتات شائكة ذات رائحة زكية .

بعد عشر ساعات من السير وجدنا أنفسنا على قمة جبل الشيخ ، على قصر عنتر أو شيبوب ، وعلى أنقاض الهيكل القديم المكرس لبعل حرمون . وإن

كان الهيكل القديم رمز العبادة الإلهية ، وقصر شيبوب رمز البطولة الفذة ، فعلى قمــة جبل الشيخ أثر صغير هو رمز الأمثال العربية . فهناك رأينا قطعة رخام منقوش عليها ذكرى زيارة المغفور له فيصل الأول لقمة جبل الشيخ أيام كان ملكا لسوريا .

ولجبل الشيخ ثلاث قمم — قصر عنتر فى الجنوب وأخرى فى الشمال ، وهما متساويتان فى الارتفاع البالغ ٢٧٥٣ مترا ، أما الثالثة فتقع فى الغرب ، وتنخفض عنهما قليــلا . وامتداد جبل الشيخ العــام من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى ، وطوله يتجاوز الثلاثين من الكيلو مترات .

أما المرة الثانية فقد كان صعودى جبل الشيخ من راشيا ، من الغرب ، بدأنا السير فى العاشرة مساء ، وأمامنا الدليل ومعه بغلته تحمل زادنا ودثارنا ، فقد أنبئنا أن البرد يكون فى الصباح شديدا . كانت الليلة هادئة ، وكان القمر بدرا أو يكاد ، وكانت النفس مطمئنة ، وكانت السفرة مهيأة ، وأراد الله أن يتم نعمته علينا فكان دليلنا رخيم الصوت . ولم نكد نلتحف الوادى ، ونطمئن إلى أننــا فى الطريق الصحيح ، حتى أخذت صاحبنا فــورة من الطرب ، فانطلق يغنى غنــاءه الجبلى القوى العــذب ، وأخذ الوادى يردّد صدى غنــائه ، فيبعث فى نفوسنا رهبة الجبل العظيم ، وسرور الطبيعة ، وأمل الليل البهيم . فعنَّى صاحبنا ما شاء له الهوى ، (وميجن) ما شاءت له الذكرى ، (ودلعن) ما هاجه غرامه ، وهو فى كل ذلك جذلان طرب ، ونحن معه جذلان طربان .

إنها قرابة خمس ساعات ، فإذا الدليل يصيح بأننا على وشك أن نصل وإذا بالطبيعة تقدّم لنــا كهفا يأوى إليه صديق والدليل ، فيعطيان جسدهما

حقه من الراحة ، وآبى أنا على نفسى ذلك . لقد خشيت إن أنا استلقيت أيضا أن تأخذنا كلنا سنة من النوم ، فلا نصحو إلا وقد أضعنا الفرصة ، لقد كنت ضنينا بأن أضيع هذا الجهد دون أن أرى هذا المنظر الجميل الذى تتعاقب عليه السنون ، فلا تبلى جدته ، ولا تزيل أثره . أبيت على نفسى أن أعطى جسدى حقه، وقمت بدور الحارس، فلما حسبت أنهما اكتفيا، أيقظتهما ، وتابعنا السير . ولم نسر إلا نصف ساعة فإذا بنا على قصر عنتر ، و إذا بى أقف هناك للمرة الثانية . ولكن هـذه المرة فى آخر الليل ، وكانت المرة الأولى فى وضح النهار .

ولست أشك، بعد أن وقفت على قمة أكثر الجبال المرتفعة فى سوريا ، أن ما يراه المرء من قمة جبل الشيخ أوسع من كل ما يرى من أى جبل آخر . وتنوع المناظر التى تجتليها العين من قمتـه لا يتيسر فى مكان آخر . فأنت إذ تقف على قمـة الجبل — على أنقاض قصر عنتر أو هيكل بعل حرمون — وتمد ببصرك حولك ، تستجلى عينك آفاقا مترامية ، وأبعادا شاسعة : ففى الغرب يخيل إليك أن البحر ، بين جبل الكرمل وصور ، يرتمى عند موطئ قدميك ، وترى وادى نهر القاسمية يمتد أمامك كأنه يرشد نظرك إلى مغانى الجمال الفاتن . وهـذا الوادى نفسه يريك حدًا فاصلا بين لبنـان الجنو بى وجبال الجليل، التى تحمى الحولة وطبرية وسهليهما من المكروه، فإذا صوبت نظرك فى اتجاه الشمال رأيت الجبل الشرقى، وجبال النصيرية ، أما فى الشمال الشرقى فأنت تطل على دمشق وغوطتها التى تضم كل البقاع الخضراء على سيف البادية . وثمـة اللجاة ذات الصخور النـارية ، وحوران وسهوله الخصبة . وفى الجنوب الشرقى الجولان وفوهاته البركانيـة . أليس فى هـذا الاتساع

والعلو ما يحملك على احترام شيخ الجبال وسيدها، والاطمئنان إلى العزيمة التى تخلفها فى نفسك الإقامة فوقه ساعات ، قلت أو كثرت .

على أن كل هذا الذى ذكرت لا يعدو جزءا صغيرا من الحقيقة كما تلمس هناك ، والتى لا سبيل لى إلى وصفها . بل أن هناك منظرا آخر ينقل ناظره إلى جنات من الخيال ويحمله على أجنحة من الإعجاب لا يستطيع أن يدركها إلا من حمل نفسه مؤونة تسلق جبل الشيخ .

كان الليل لا يزال يرخى سدوله الكثيفة على قمة الجبل لما وصلناه فى المرة الثانية . وكان القمر رفيقا بنا فى سيرنا ، لكنه ازداد بنا رفقا لما وصلنا ، إذ تركنا لما نحن قادمون عليه واختفى فى الغرب وعلى فمه ابتسامة من يعرف ما يخبئ القدر لهذه الجماعة الصغيرة من متعة ولذة . واختفى دون إنذار أو تحذير، حتى كدنا نتعثر فى سيرنا فى الجزء الأخير من القمة العنترية. وما استقر بنا المقام حتى تدثرنا بالسميك من أحرمتنا واتجهنا نحو الشرق نرتقب الجمال والضياء .

ولم يطل انتظارنا . بدت تباشير النور فى أشعة فضية باهية ، تبين لنا فيها الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، ثم أغدقت هذه الأشعة من نورها على الأفق العريض البعيد، فبدا كله مفضضا، ثم استحالت فضته ذهبا يخالطه مزيج من الألوان الناشئة عن انعكاس الأشعة على السماء الزرقاء والرمال المنتشرة فى عرض الأفق . ولم تلبث الشمس نفسها أن تجاوزت الخط الفاصل بين الأرض والسماء ، فبدا كل شىء موشى بنورها ملتحفا بضيائها . وشعرت آنئذ أن الحياة انبعثت فى كل ما يرى، من جديد ، فظباء الفلاة أخذت تتلفت نحو مصدر الحياة السماوى ، ورمال الصحراء

أخذت ترقص طربا وحبورا ، وأزاهير غوطة دمشق وأشجارها نفضت عنها رداء الليل البهيم ، ووجهت وجهها نحو الشمس وحنت رؤوسها إجلالا لها . ملأ قلبي بعض هذه الحياة التي انتشرت في كل شيء، فملأت فراغه ، وأشاعت فيه امتلاء روحيا . ووقفت في مكاني مشدوها لا أتحرك ولا ألتفت ، حتى كأنني أصبحت جزءا من جبل الشيخ . وعندها سرت في نفسي شرارة من عزيمته وشبابه ، فرأيتني أحس بقوة ونشاط عجيبين . وطال استمتاعي بالمنظر الخلاب ، تتبدّل فيه الألوان دقيقة بعد دقيقة ، وتتوالى فيه الصور مع تبدل الألوان ، حتى صاح صديقي «انظر» . فتلفت إلى حيث أشار فرأيت ظل جبل الشيخ مبسوطا على سهل البقاع والجبال الواقعة إلى الغرب منه ، ثم رأيت هذا الظل المديد يتقلص تباعا لارتفاع الشمس في الشرق .

وهكذا تمت أمنيتي مرتين، فعرفت جبل الشيخ . وانحدرت منه مرة في الليل وأخرى في النهار . فالمرة الأولى كان نزولنا في وادي جنعم المجرى الملتوي ، وطال سيرنا فصرفنا أربع ساعات هبوطا حتى وصلنا شبعة . وكانت الساعة الأخيرة من سيرنا بين بساتين شبعة، لكن الظلام كان حالكا فلم نتبين منها شيئا . وأي لذة شعرنا بها ، وأي سرور شملنا ، لما أوينا إلى فراشنا تلك الليلة بعد صعود استمر عشر ساعات ، وهبوط استمر أربع ساعات وكانت غايتنا في السير قمة جبل الشيخ .

أما هبوط النهار فكان عودا إلى راشيا . وأطبق دليلنا فما يحدث ولا يغني . ومن غنى في الليلة المقمرة يصمت في النهار ، ومن رأى شروق

الشمس من قمة جبل على بادية الشام يطبق جفنيه لتنطبع هذه الصورة فى ذهنه . وهذه سنوات تمرّ على ذلك اليوم ، والصورة لا تزال ثابتة فى خيالى كأنها وليدة صباحى هذا .

ونحن فى انتقالنا من شبعة إلى حاصبيا نجتاز وادى التيم من شرقه إلى غربه ، ونعبر نهر الحاصبانى وهو ثالث فروع نهر الأردن الكبيرة ، ونمرّ بقرية الهبارية ، القرية التى استغرب أهلها زينا ، وكنا نرتدى السراويل القصيرة ، وسألونا إن كنا جنودا فارّين أو بائعى حكمة (أى عقاقير) . وأهل الهبارية فخورون بسبيل الماء الذى أنشئ ببلدهم . فقد نقشوا عليه "وجعلنا من الماء كل شىء حىّ . وأن ليس للانسان إلا ما سعى" حبذا أهالى الهبارية وحبذا سعيهم المأثور وثباتهم المشكور . بذلوا فى سبيل بغيتهم النفائس فباءوا بنجاح باه باهر أجرى عليهم ماء سلسبيلا وشرابا طهورا فاشرب أيها الوارد وادع بالخير للنزيه الهمام زكى قدرى بك الذى بفضل همته الشماء تسنى جر هذا الماء لهذا البلد الطيب فأحيا الزرع والضرع . وهذا من بعض آثاره الكريمة حياه الله وبياه سنة ١٣٣١ " .

وأنت لو انحدرت إلى الشرق من جبل الشيخ لهبطت إلى الطريق الموصلة بين دمشق و بيت جن الشامية ، وهى الطريق التى اجتازها ابن جبير :

هذا ، أيها القارئ الكريم ، جبل الشيخ . وأن زيارته لأمر حرى بأن يقوم بها كل عربى ليرى كيف يثبت الشيخ على عوادى الدهر ، لعلنا نتعلم منه درسا فى الحياة .

٣ — من صنين الى الأرز

نحن على قمة جبل صنين .

كذا قد وصلنا نبع صنين بعيد الظهر، وكنا قد سرنا اليه من ضهور الشوير ، فى طريق وعر لكنه جميل ، بين أشجار تتكاثف حينا وتتباعد حينا آخر ، وبين ينابيع متعددة ، وينابيع لبنان كثيرة كريمة ، وكان الجوع قد نال منا ، وكان الجمال قد نلنا منه ، بجئنا النبع القوى العذب ، نستمتع بخرير مائه ، ونستجلى محاسن وادى بسكنتا ونلتهم طيبات ما رزقنا الله عند صاحب المنزل القائم فوق العين . وما أن نلنا هذا كله حتى كان النشاط قد عاد إلينا، فرنت أعيننا إلى صنين، وعقدنا النية على التسلق . فقال قائل الوقت متأخر ، فلن تصلا إلا والشمس قد آذنت بالمغيب . وأعجبتنا الفكرة التى قصد منها تحذيرنا ، فزادتنا شوقا إلى الصعود . فأشار صاحب المنزل إلى الطريق . لكننا كنا قد اعتزمنا أن لا نسير فى طريق ملتوية طويلة سهلة يسيرة ، ورأينا أن نجابه الجبل رأسا فنصعد فيه باستقامة . وبلغ الجبل أن اثنين من البشر تحدياه، فضحك فى نفسه وتذكر أنه قد قيل فى أشباهه .

رسا أصله تحت الثرى وسما به

إلى النجم فرع لا ينال طويل

وقد فات الجبل أن الأرض التى تحمل مثله قد أنبتت جبلا من البشر فيه "شباب تسامى للعلى وكهول" .

وأخذنا نصعد فيه ، فتبطنا الوادى ، وأدرك الجبل الأشم أن عزمنا قد صح فأخذ يقذفنا بأسلحته الواحد تلو الآخر . فحجارته تتدحرج تحت أقدامنا فنتعثر ، وصخوره تغرينا بالدوس عليها ثم تروغ فتزلق أقدامنا وأشواكه تلتف على أرجلنا فتدميها . وقضينا ساعة ونصف الساعة ونحن فى هذه المشادة، وكلما حسبنا أننا على وشك الوصول إلى القمة رأينا الجبل يتسامى كأنه يسابقنا . ولكن أدرك الجبل أخيرا أن زائريه لن يتراجعا فكف عن تحديه وهدأت ثائرته واستعاض عن لذع أشواكه برائحتها الزكية ، وهش لنا . ووصلنا إلى القمة .

وكان صنين شريفا فى خصومته . فما أن رآنا قد بلغنا غايتنا حتى انبسطت أساريره ، وضمنا إلى صدره وحنا علينا وغمرنا بهدوئه وجلاله ، وملأ نفسينا شعورا بأننا جزء منه فشعرنا بالشمم والإباء يجرى فى عروقنا . ثم طفق الجبل يحدثنا حديث الند للند ، فقص علينا قصته فى عذوبة ورقة لكنها عذوبة فيها قوة ورقة فيها عزم ، وهو يهيب بنا أن ندرك سر عظمته ثم أخذ صوته يخفت حتى صار همسا نكاد لا نتبينه ، وأصخنا السمع فإذا بالجبل يشير إلينا أن نصمت ونفتح أعيننا ، لأن وقت العبادة قد حان .

وخشعنا ، واتجهنا إلى حيث أشار ، فرأينا الشمس تنحدر بتؤدة ورفق نحو البحر ، ورأينا نورها يضعف شيئا فشيئا ، فيبهت لونها ، ويستحيل احمرارها شحوبا واصفرارا ، وأنها تمس الماء ، فنشعر أن ساعة هلاكها قد دنت، فتعود إليها رغبتها فى الحياة وتحاول للمرة الأخيرة أن ترتفع ولكن الجهد الذى تبذله كبير لا تستطيع أن تتحمله فتخر صريعة وقد

تضرجت بدمائها ، وتنتشر هــذه فى الأفق ، وترأف غيوم المغــرب بالدماء المراقــة لتلمها وتصبغ بها ، فيحمر الأفق الغربى كله إذ آلمه أن يؤول أمر ربة النور إلى مثل هذا . ويســود الكون صمت تحــلو معه العبادة ، فيردد صنين صلاته ، وتنقلها الأودية منــه ، وتحمل الينابيع صداها إلى البحر . و يقف الزائران مشدوهين — فالجمال أكثر من أن يحيط به وصف ، والألم أكبر من أن يحد ، والهدوء لا يشوبه شىء ، فيفزعان إلى الصلاة ، وهما على مقربة من السماء . واذ همــا ينظران حولها ، بعــد أن ثابا إلى رشدهما ، لا يريان شيئا ، فقد ألقى الظلام سدوله الكثيفة على كل شىء ، فاستوى الجبل والوادى . و يبدآن النزول فى هذا السكون الشامل ، ودليلهما عصا انطوت عليها اليد تتلمس لهما الطريق . ولكن صنين كان رفيقا بهما فى هذا الدور ، فما خاصم ولا رمى بحجارته ، بل إنه جنبهما الكثير من العثرات . ويقضيان ساعة و بعض الساعة ، و إذا بنــور النزل يبــدو ، واذا بالكلب يعوى فيتمثل صــديق ”عوى الكلب فاستأنست بالكلب إذ عــوى“ ، و إنها لدقائق قليلة فإذا نحن عند الجماعة الطيبة ، التى أقلقها تأخرنا فأخذت تعدّ العدّة للخروج إلى الجبل تسأله عنــا وتحاسبه عما فعل بنا . وتخرج من القوم تحية بالسلامة ممزوجة بالعتب الرقيق .

وهكذا أتيح لى أن أرى ولادة الشمس من قمة جبل الشيخ وهلاكها من قمة صنين .

وكان جسمنا بحاجة إلى الراحة ، ولكن من يستطيع أن يترك صوت الماء المتدفق من الصفا وأحاديث أهل لبنان العذبة ، و يأوى إلى فراشــه . لقد أكسبتنا هذه نشاطا من جديد بجلسنا إليهم نتحدث حتى مر من الليل شطر

كبير ، وتفرق السمار فتفرقنا معهم ، وأوينا إلى الفراش ، لننعم بالراحة ، ونحلم .

ودعانا الفجر إليه فهرعنا إلى الماء نحاول أن نغسل منه أيدينا ووجهنا فما استطعنا إلى ذلك سبيلا ، لقد كان باردا . فاكتفينا بما نلنا . وحملنا زادا كان قد أعد لنا ، وسرنا — وذكاء بعد لم تجمع كل قوتها — نهبط واديا ونصعد جبلا ، فمررنا بنبع اللبن ونبع العسل ، واجتزنا جسر الحجر ، وهو جسر طبيعي نحتت منه المياه على توالى الأيام أجزاءه السفلى وتركته معلقا كما لو أن مهندسا وضع تصميمه ويدا صناعا بنته ، وهو أحد عجائب الطبيعة الكبرى فى لبنان .

ومررنا بقوم يحصدون ويزرعون ويعملون فى الأرض ، لكن الأرض هناك ضنينة ، ذلك لأننا كنا نساير أعلى أجزاء السلسلة الكلسية حيث تسقط المياه وتتسرب الى طبقات التربة السفلى ، فلا ينتفع بها ولا يستفاد منها ، إلا حيث تتجمع فتنبع فى صدر واد ، دان أو قصى .

وأشرفنا بعد خمس ساعات على المكان الذى استأثر بمياه الجهة كلها ذلك أننا انتهينا بعد اجتياز جبل معتدل الارتفاع إلى منابع نهر ابراهيم . فرأينا عجبا من الأمر . ماء يتفجر من صدر كهف اعتلى كتف الوادى ، ويعجز الكهف عن حمله فينحدر فى شلال صغير الى بركة يتجمع فيها حينا إلى أن تجمع قوته ويعود إلى السير ، لكن كتف الجبل التالى يعجز عن حمله فيهبط ثانية . ويتوالى هذا التجمع والهبوط فى سلسلة من الشلالات ، وتغذيها ينابيع أخرى على جانبى النهر ، وتغذى المياه بدورها عدوات الوادى وجنباته ، فتكتسى بثوب من الخميلة أخضر ، وتقع العين على هذا الجمال

المتناسب المتسق من مياه تتعثر فى سيرها ، وأشجار الجوز الوارفة الظل وشجيرات منوعات مزهرة كالدفلة وغيرها ، وكلها تحدث بنعم الخالق .

وأوينا الى ظل شجرة نستريح ونمتع أنفسنا بهذا الذى نرى ، وقال صاحبي "هذا النهر هو نهر إبراهيم ، وهو شديد الانحدار إلى الساحل ، وقوته المائية كبيرة وقد كان ولا يزال يدير الطواحين فى طريقه . ولو أن الكهرباء ولدت منه لكانت قوتها كافية لإنارة الجهة كلها و إدارة عدد كبير من الآلات . أما إبراهيم فاسم أحد الأمراء الذين حكموا هذه البلاد قبل مدة" .

وقبلت ما قال صاحبي ، فقد كان أعرف منى بجغرافية البلاد وتاريخها ، لكن شيئا من الريبة خالجنى حول الاسم . فالنهر أقدم من أمير كان يحكم تلك الجهة ، فما هى قصة هذا النهر .

ولم يطل تساؤلى ، فلم نكد ندخل الكهف الأول لنرى انبثاق الماء من الصخرة حتى سمعت صوتا يسر فى أذنى "أن أصغ إلى قصتى ففيها متعة لك" وحاولت أن أتبين مصدر هذا الهمس فلم أتمكن لكن الصوت استمر قائلا "أنا قديمة العهد فى هذه البقعة ... وقد أعجبت بى الإلهة القديمة عشتاروت فأوت الى صدرى أحنو عليها وأرضعها ، وتفيأت ظلال هذا الوادى ، تنعم بخيراته خالية البال ، حتى بدا لها يوما شاب وسيم الطلعة جميل الخلقة ، فأسر لبها ، وملك عليها قلبها ، فأغرمت به ، وأغرم هو بها ، وملأ الحب نفسيهما من كؤوسه ، وعاشا فى غبطة وهناءة . وكان اسم

هذا الحبيب تموز ، ولم يعرف أحد من أين جاء ، ولكنه كان يتحلى بصفات اقتنعت عشتاروت أنه من الآلهة . وكان تموز يغيب عن حبيبته أياما بلياليها يجوب فيها الآفاق فيوزع على البشر من بذور حبه ما شاء ، فتنبت هذه فى قلوبهم حبا قويا ، يعصف بهم حينا ، ويملؤهم اطمئنانا حينا آخر، وإذا عاد تموز إلى عشتاروت أحست هذه بأنفاسه تعطر الجو فاستقبلته وفى قلبها أغنية وفى نفسها سرور .

" وطوف مرة بالآفاق كعادته ، وعاد ، لكنه لم يكد يطل على الوادى ، حيث تقيم حبيبته ، حتى استشعر فى وجهها وجلا وفى نفسها اضطرابا ، فأقبل عليها يسائلها ، فحدثته أن وحشا قويا اعتدى على الحى ، وأخذ يعيث فى الوادى فسادا ، وأنه طاردها مرة وكاد ينال منها لولا أن عصمتها الأشجار منه . فطار صواب تموز ، وتقلد سلاحه وأخذ يطوف فى الوادى صاخبا منذرا ، حتى وجد الوحش وقد أسند ظهره إلى صخرة قوية ، وتدرع للقتال . واقترب تموز منه ، ونشبت بين الاثنين معركة صال فيها كل وجال ، ونال من صاحبه ما شاء له القدر أن ينال . وثار ثائر الوحش فنبت له قرنان من شدة غضبه ، فضرب تموز بأحدهما فبقر بطنه ، وخلاه صريعا يتضرج بدمه ، وفر هو كمن أصيب بالصرع ، ولم يقف له أحد على أثر . وبلغت أنات تموز مسامع عشتاروت فأقبلت على الحبيب تضمد جراحه ، وحملته إلى الماء تغسلها فيه ، لكن الدم الذى نزف كان كثيرا ، فلم يقو تموز على مغالبة الموت الذى حمله إليه .

" وندبت عشتاروت حبيبها ، واتخذت موعد وفاته يوما تحيي فيه ذكراه . وسمعت النساء بما أصاب عشتاروت فحزن على تموز ، وشاركنها

أساها ، وندبنه معها ، وأقمن يوما فى السنة يحيين فيـه ذكراه ، حتى بلغ ذلك مسامع أحد الأنبياء فنهى فتيات بنت المقدس عن البكاء على تموز .

" وسالت دماؤه فى النهر ، فصبغته ولا يزال الماء الى يوم الناس هذا تجرى فيه بقية من دماء تموز .

" وتبـدل السكان القدماء بسكان جديدين ، وعاشت بينهـم ذكرى عشتاروت وتموز . لكنهم غيروا الاسم بحيث تتناسب مـع لغتهم فقـالوا عنهما أفروديت وأدونيس .

" وأنت يا صاح إن سرت مع هـذه المياه التى تنبع من هـذا المكان ساعة وبعض الساعة وصلت إلى أنقاض هيكل أدونيس حيث كان القوم يحيون ذكرى الصراع بين الخير والشر ، بين الحياة والمـوت ، بين المودة والهلاك " . وصمت الصوت .

وعاودتنى ذكرى مكان آخر تنبثق فيه الميـاه من الصخر الأصم ، وقد أقام الناس فيه هيكلا لإله آخر ، نعم فى بانياس ، حيث عبد « بان » . وقلت فى نفسى ، ما أقدم الحياة فى بلادنا هذه ، وما أبعد مدى الفكر فيها ، ان هذا يرجع الى الوقت الذى كان فيه الناس يوزعون الآلهة على كل مكان ويفرقون بين خالق وخالق . نعم لقد كان هذا قبل أن يأتيهم من قال "تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك " ، وقد كان هـذا قبل من جاءهم برسالة ربه إذ قال " ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين " .

فلما جاءهم الرسل بالبينات عزف الناس عن تموز وعشتاروت وأفروديت وادونيس ، وبقيت أخبارهم أساطير يتندر بها الناس ، وتهمس بها الأصوات الخفية فى الكهوف النائية .

وانتهى بنا التطواف ذلك اليوم بالعاقورة ، فقضينا فيها ليلة ماتعة حقا ، وسرنا مع شروق الشمس فى اليوم التالى ، فمررنا بعرب اللقلوق ، وأقسمت نوخة بنت حسين أن لا نبارح طنبها قبل أن نأكل : نذوق العيش والملح .

وتنقلنا من مكان الى آخر حتى مررنا بوادى الدوير ، وكان القوم يحصدون والشمس تلفح وجوههم . وقد انتهى أحدهم من عمله مبكرا ، فانتبذ من دون الناس مكانا قصيا وأوى إلى ظل شجرة تقيه حر الشمس اللافح ، وكأن الجو أطربه فأخذ يغنى :

لأطلع لراس الجبل   واشرف على الوادى
وأقول يا أهل الجبل   نسم هوا بلادى
أيمتى يسيل النهر   يتحجر الوادى
لحط صدرى جسر   لتعبر البنية

وردد الوادى غناءه ، وحمله إلى آذان البنية .

وتسلقنا جبل بريصات ، وأشرفنا على الوادى ، وشعرنا بنسيم المساء يحمل إلينا عبيرا كان جديدا علينا .

أشرفنا من قمة الجبل على وادى قاديشا الذى يرتكز رأسه عند أقدام الأرز الخالد . وقد علا الأرز الى السماء الزرقاء يطمع فى عطفها ، فانحنت

عليه تقبله ، وانهمرت دموع الفرح من عينيها ، فأشفق الأرز وجبله على هذه الدموع أن تهدر بجمعها حبة حبة وأودعها قلبه ، فلما ضاق صدره عنها، انبثقت ينبوع ماء صاف مقدّس، كان له فى يوم من الأيام إلاهه، الذى زال مع غيره من الآلهة القديمة، واستبدله الناس اليوم بآلات تولد الكهرباء .

إنهما يومان قضيناهما بين صنين والأرز . يومان مليئان بكل ما يؤمله المرء ، وما تطمع فيه النفس وما ترتاح إليـه العين من مغانى الجمال ولطف الاسطورة ، ومعنى العبادة ، وقيمة الخشوع . إنه جهد حقا ، ولكن الله لا يضيع أجر من يبذل مثل هذا الجهد .

٤ — حصن الأكراد

نحن فى القطار ، وقـد غادرنا طرابلس فى الساعة السادسة من صباح يوم تبينا فيه حره اللافح من ساعاته الأولى ، ولكن المسافر الذى استمتع بما كنا قد استمتعنا به، والذى يأمل ما كنا نؤمل، لا يذكر حرا لافحا، ولا يعنى بوهج الشمس ، وإنما ينصرف إلى ما حوله، فتلتهم عينـه الصور التهاما ، وتحاول أن تحتفظ بهـا ذخيرة للمستقبل وعدة لوقت لا يتاح لهـا فيه أن ترى مثل هذا الذى يمتد أمامنا مسافات طويلة .

وكانت طريقنا تجتاز سهل البقيعة، وهو الوادى العريض الذى يفصل جبال لبنان الشمالية عن جبال النصيرية . يفصـل الجبال بعضها عن بعض ليربط السهل الساحلى بالسهل الداخلى، وليربط موانئ البحر المتوسط بموانئ البحر الرملى الممتد إلى الشرق .

كان القطار يخترق السهل و يداور ما فيه من تلال و يروغ من وجه المرتفعات، شأنه فى ذلك شأن جيوش القدماء التى كان الملوك يبعثون بها من طرابلس لتحتل حمص . وكنا، ونحن نراقب البلاد التى نمر بها ، نسمع فى وقت واحد أصواتا متباينة الأصل مختلفة القوة متشعبة القصد . فصوت القاطرة تخنقه حينا ضجة تتصاعد من الأرض، فيها وقع أقدام الخيول وجرس أعنتها وصليل السيوف وأصوات المركبات ، وتمترج بهذه أصوات الباعة وقوافل التجار تنقل البضائع على جانبى الطريق . وكأن هذه كلها تحدثنا عن الناس الذين اجتازوا الطريق قبلنا جماعات ووحدانا، وكلهم له فى سيره غرض يخفيه حينا و يظهره حينا، وكأنما هم عند قول الشاعر :

كل من فى الوجود يطلب صيدا   غير أن الشباك مختلفات

و بغتة وقف القطار . وكانت المفاجأة لى، أنا الذى كنت آنئذ فريسة هذه الأصوات والصور ، التى أخذت تنقلنى من عالم إلى عالم نقلا سريعا لم يتح لى أن أتابعه ، ونزلنا ، وكانت قرية تل كلخ نقطة انتقالنا فى ذلك اليوم . فتركنا الركوب وعدنا إلى السير ، ونحمد الله على أن لنا أقداما تمكننا من السير إلى هذه البقاع النائية .

وانحرفنا شمالا ، وأخذنا نجوس خلال الأماكن فى طرق (قادومية) تنقلنا من الباروحة الى السنديانة الغربية، وحر النهار يشتد بنا، وسيرنا يتجه فى صعود ، حتى وقفنا أمام حصن الأكراد . ووقفنا نتأمل هذه القلعة الضخمة الفخمة التى مرت عليها سبعمائة من السنين أو يزيد منذ أن تخلى عنها آخر فارس كلف بحراستها، ولا تزال مع ذلك تملى على الناظر إليها إرادتها،

وتفرض عليها سلطانها، وتحتم عليه أن يقف وقفة إعجاب وخشوع . وكأنها تشفق عليه أن يؤخذ بالضخامة والعظم فتذكره أنها جميلة مع ذلك، فيتلفت إلى ذلك ويرى هذين السورين المتداخلين، الخارجى منهما أقل ارتفاعا من الداخلى تخرج منهما نتوءات ترتفع الى الجو فتكون أبراجا وحصونا تسهل على أهلها الدفاع عنها، وتتناوب الاستدارة والتربيع هذه الأبراج فتجعل منها منظرا تقف العين عليه فتعجب بالمهندس الذى أقام قلعة يأوى إليها المحارب ولم يغفل مع ذلك عن ادخال عنصر التناسب فيها فيجعلها جميلة . وهذه الزنوك فى أعلاها ، والستائر التى تقف سدا فى وجه من يحاول أن يخترق الجدران ليستطلع خفايا هذه القلعة .

وندخل القلعة ونطوف فى أرجائها، فننتقل من سرداب إلى سرداب ، ونقاد من قاعة إلى قاعة ، وتطالعنا فى أنحاء البناء المختلفة روائح هى مزيج من قذارة بعض سكانها الحاليين ومن أريج تاريخها المجيد العاطر . فبعض سكانها أبقار وأغنام وماعز، ذلك لأن القلعة يقطنها نحو ثلثمائة من البشر ، ويحتفظون فيها بمواشيهم التى هى مصدر قوتهم ورزقهم .

وإننا لننتقل من جزء آخر، نستجلى ما خلفه بناتها وسكانها الأقدمون ، فاذا بنا فى قاعة فخمة واسعة عالية الجدران قاتمة اللون مما علق بها من الهباء والدخان، و بينا نحن على هذه الحال إذ بى أرى الجدار ينشق برفق وهدوء، ويخرج منه رجل مجلل بالسواد من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، وعلى جانبه سيفه . وأكاد أصرخ فزعا ولكن إشارة منه تطمئننى، فيزول من نفسى الروع الذى كاد يهزمها ، ويشير الى الرجل الأسود ، أو الفارس الأسود فقد تبينت الساعة أنه فارس، أن اتبعنى، فأتبعه وأنا مسير لا مخير، ويسير

بى من دهليز إلى دهليز حتى يصل إلى ساحة واسعة، تنتهى بأحد هذه الأبراج التى كنت قد رأيتها من الخارج . وإذ يطمئن إلىّ يبدأ بالكلام . ولم أفهم كلامه ، فإنه كان رطانة لا عهد لى بها ، لكنه يعيننى على فهمه بالاشارات الكثيرة، وأدرك أنه يروى لى قصة ، فأجهد نفسى وأحاول تتبع حركاته وسكناته ، واستخلص منه الكثير من الذى قال . لقد كان أحد فرسان هذه القلعة، وكان من فرقة رجال المستشفى الصليبية،وهذا الصليب الذى يكسو جزءا من ردائه الأسود علامة على مايقول. كان أصل فرقته، على ماحدثنى، جماعة دينية أنشئت فى هذه البلاد ومركزها القدس وغايتها مساعدة الحجاج الأروبيين ، والمرضى والفقراء منهم على الخصوص ، ليقوموا بفريضة الحج إلى الأرض المقدسة . وكانوا مطمئنين الى حياتهم فى البلاد فى حماية أهلها العرب الكرماء، لا يكدر عليهم صفو عيشهم مكدر ، ولا يطمعون هم بغير خدمة المحتاجين والمعوزين من أبناء بلادهم . ثم قال : ودار فى خلد أهل بلادى الأروبيين أن يأتوا الى هذه البلاد جماعات كبيرة محاربة ، فجاءوا واحتلوا الأرض المقدسة وما جاورها ، وبنوا القلاع للدفاع عن أنفسهم ضد أهل البلاد، واحتاجوا إلى من يعمر هذه القلاع والحصون، فوكلوا أمرها لنا، فانتقلنا من رجال دين نعنى بالبائس الى رجال دين وسيف نقاتل ونحارب ونجالد ونحمل السيوف ونثخن فى خصومنا الجراح دون أن نضمدها، وها نحن ياسيدى نجمع بين النقيضين . فلا يطلع الفجر حتى نكون قد صلينا مرتين، ولا تشرق الشمس حتى نكون قد أخذنا أجسامنا بالتمارين الشاقة، ولا ينتصف النهار حتى نكون قد بحثنا شؤوننا وفصلنا قضايانا وعاقبنا المذنب

منا بالحرمان أو الجلد . فاذا جلسنا لنأ كل صمتنا كلنا وانفرد منا واحد يقرأ لنا آيات من الانجيل . فاذا كان العصر امتطينا خيولنا ولعبنا على ظهورها بسلاحنا خشية أن يصدأ وتصدأ معه الأيدى التى تحمله ، ودرنا خلال المنطقة نستطلع خبر الخصوم . فان كان ثمة منهم أحد التقينا واقتتلنا ودارت الدائرة على أحد الفريقين فكان نهب وسبيٌ للفريق المنتصر . ومتى هلكت الشمس صلينا وأوينا إلى مخادعنا بعد أن أقمنا العسس على الأبراج يحرسها ويتسقط الأخبار فيوقظنا إن ألم بنا طارق .

وهممت بسؤال الفارس الأسود عما آل إليه أمره وأمر أصحابه فلم أجده ، وخلت أننى كنت أحلم ، ولكننى لمحت غبارا يعلو بحذاة أمامى فيغبر منه الأفق ، وسمعت جلجلة وصليلا ، ثم انقشع الغبار وظهرت أمامى صورة لم أعهدها فى تلك الجهة لما وصلتها . لقد كانت الأرض جبالا ووهادا وأودية وسهولا ، لكنها الآن تتحرك وتتنقل . لقد غطت الأرض جيوش قادمة تقصد القلعة ، فأحاطت بها من كل جانب ، ولم تلبث أن خرجت منها صيحة زعزعت كل ما حولى ، لقد كانت الضجة فى لغة فهمتها ، لقد كانت (الله أكبر ، الله أكبر) فانبسطت أساريرى ، وفزعت إلى صديق افتش عنه لأحمل إليه الصورة التى شاهدت ، ولأحمله على القدوم إلى حيث أنا ، فلم أستطع إلى الاهتداء إليه سبيلا .

وتلفت حولى ، فاذا بى أمام فارس يحمل قوسا ويترين بسيف جميل ويرتدى جبة واسعة وتعلو رأسه عمامة ، وإذا به يحدثنى بلغتى ، فأفهم كلماته وأشاراته دون عناء أو جهد ، فينبئنى أن هذا الجيش الذى رأيته يغطى السهل

والجبل كان جيش الملك الظاهر، وقد اعتزم الملك أن يحتل به القلعة، وكان قد ضرب عليها حصارا قبل أيام، فقطع السبل على قاصديها، فاضطر أهلها أى سكانها من فرسان الأفرنج، الى التسليم. وقد أخلوها، فعادت إلى أهل البلاد وأصحابها.

وصمت الفارس برهة ثم أشار إلىّ أن أتبعه لأرى ماذا حدث فى هذه الفترة. فتبعت، وأنا لا ألوى على شىء، وسرت مفتح العين والأذن، أملا أن أدرك هذا الذى أرى، فإذا القاعة الكبيرة قد غصت بالفرسان الذين كانوا على شاكلة رفيق هذا، وإذا بهم يتناشدون الأشعار العربية، ويروون الأحاديث، وإذا بهم يخشعون فجأة لأن قارئا بدأ يرتل القرآن، ويدعوهم الى الصلاة فيلبون. فإذا فرغوا من صلاتهم، وقد امتلأت قلوبهم خشية لذكر الله، انصرفوا الى طعامهم ينالون منه، ثم عمدوا الى خيولهم يمتطونها وقد تقلدوا أسلحتهم وشدوا أزر بعضهم بعضا. وما أن وصلوا السهل حتى تفرقوا جماعات فى أنحائه الواسعة.

قال الفارس وقد علت وجهه ابتسامة الظفر والسرور. (إن القوم بعد أن نالوا حظهم من العبادة، خرجوا الى الصيد، والصيد يا أخى، رياضة الفارس وسلوته ومجال تمرينه، وهذه الأرض التى تمتد أميالا الى الغرب، غنية بالصيد على اختلاف أنواعه، ففيها الغزلان والثعالب والأرانب والحجل والدراج وطير الماء، تحتمى كلها فى الأزوار فيتابعها الفرسان بقسيهم ونشابهم وبزاتهم وصقورهم وكلابهم فينالون منها وتنال منهم، فيصطادونها وتنهكهم، ولكن هذا الجهد الذى يلقونه هو الذى يصون لهم مقدرتهم على حمل السلاح

والضرب به متى جد الجد . فنحن فى حرب ، ونحن أمام خصم اعتدى علينا واستقر فى دورنا ونعترم استعادة أرضنا منه ، واسترداد بلادنا . وما نتمكن من ذلك إلا إذا كنا فى كل ساعة على أتم الأهبة والاستعداد . فاذا عاد هؤلاء الفرسان من رياضتهم أو حربهم أو لعب الصوالج والأكر ، عنوا بخيولهم وهى لهم كالإخوان ، ثم اجتمع بعضهم الى بعض فتذكروا الشعر ورووه وتطارحوا الحديث وقلبوا أفانينه وسمعوا القرآن واتعظوا به واهتدوا بهديه ، فكان لهم غذاء روحيا ، فيتم الله نعمته عليهم .

وكان الجماعة قد هيأوا لنا خبزا مصنوعا من الذرة البيضاء و بيضا مقليا فأكلنا منه ما شاء لنا الجوع أن نأكل . وأراد القوم اكرامنا فقدموا لنا شيئا مصنوعا من اللبن الرائب المجفف المكسو بطبقة من السعتر وكأنه قد مرت عليه سنون وهو مخزون ، فكرهنا رائحته ، ولم نذقه ، وحز فى نفوسهم أن نرفض إكرامهم إيانا (بالقريش) ، ولكننا لم نستطع إلى إرضائهم سبيلا .

وخرجنا من القلعة — قلعة الحصن — وسرنا الى برج صافيتا . خرجت وأنا أتلفت ما استطعت الى التلفت سبيلا ، آملا أن تنطبع صورة القلعة فى ذاكرتى كما انطبعت قصة هذين الفارسين . الفارس الذى انكسر وانهزم ، والفارس الذى انتصر وأقام ، وخلفه فى حصنه و برجه أحفاده وأحفادهم من بعدهم ، ولكنهم ليسوا منه إلا فى الاسم . واستغربت ذلك ، ولكننى أدركت بعد حين — بعد زمن طويل — أن ذلك الفارس كان يؤمن بحقه فدفعه إيمانه إلى السير إلى الأمام ، وأن أحفاده فقدوا إيمانهم بحقهم ، فضاع حقهم ، ووصلوا إلى ماهم عليه . وقلعة الحصن تمثل الأريج الذى

يخرج من بطون التاريخ فيعطر الجو، والرائحة التى تنبعث من سراديب القلعة اليوم فيضيق بها الصدر وتضيق بها النفس .

وسرنا إلى برج صافيتا . ومررنا بدير القديس جريس . دير بناه البزنطيون ولا يزال قائما إلى الآن، لكنه مثل القلعة عربى الهوى والفؤاد، ففيه مدرسة لتخريج رجال الدين لكنها مدرسة عربية أنشأها الدكتور أيوب تحت رعاية المغفور له البطريك غريغوريوس حداد .

ووصلنا إلى برج صافيتا . إنه برج آخر من هذه القلاع العديدة، المختلفة ضخامة وقوة، المنتشرة فى هذه المنطقة الخطرة من البلاد . بناها الحكام للدفاع عن البلاد ضد خصومهم من جيرانهم ، فلما زال الخصم الخارجى اتخذها أصحاب النفوذ مراكز للضرب على أيدى من تحدثه نفسه بالثورة أو العصيان ضد رغباتهم .

وكان مساء صافيتا حافلا بمجموعة من الاختبارات، الحسن منها والسيء، ولكنها اختبارات توحى إلى المرء الكثير من الخير، وتبعث فى نفسه رغبة فى أن يفتش عن سبيل للاصلاح .

وأويت الى فراشى، وأمامى صورة قلعة الحصن وما رأيت فيها وما سمعت، ولا تزال الصورة أمامى، ولا أزال كلما أذكرها أردد قول الشاعر :

والحق والايمان أن صبا على   برد ففيه كتيبة خرساء

وآمل أن يأتى اليوم الذى أرى فيه أبناء قومى يؤمنون بحقهم ليكون منهم خير لأنفسهم ولبلادهم وقومهم .

٥ — فى بلاد المعرى

خلفنا حلب وراءنا . وكان اليوم حارا ، والأرض جافة والطريق صيفية، والسيارة مضطربة عصبية، ولم تك تنهب الأرض نهبا، بل كانت تسير سيرا عاديا . فإن السيارات، فى تلك الأيام، وقد بعد بسفرتنا تلك العهد، لم تكن تستطيع أكثر من طى تلك السهول طيا عاديا . وما كان أكثر تعريجها على أحياء الناس . فثمة حاجة إلى الماء ، وثمة حاجة إلى إراحتها فقد اشتدت الحرارة فيها، وثمة حاجة إلى إصلاح مجرى الزيت . وكل أولئك أمور تثير الأعصاب وتجعل السفر أمرا صعبا . لكن لماذا تثور أعصابنا ولماذا نكره السفر ؟ ألم تكن المدة التى قضيناها فى حلب ، على قصرها، كافية لتزويدنا بما نفكر به فننسى غبار الطريق وشتائم السائق وصخب بقية المسافرين؟ أليست قلعة حلب بضخامتها واستيلائها على مركز البلد وإشرافها على شؤونه أمرا يذكره المرء مدة طويلة،؟ أليس فى هذه المدينة مايذكر المرء بأيامها الماضية لما كانت مركزا رئيسيا للاتجار الداخلى؟ ألم يقل عنها ابن جبير إن أسواقها كانت مليئة بالتجارات والصناعات، بحيث تخرج من سماط صنعة إلى سماط صنعة أخرى، وكل ذلك مرتب منظم ؟ بل أليست حلب مقر سيف الدولة وعاصمة إمارته ؟ وسيف الدولة هذا صاحب المتنبى، ومن يتذكر حلب ولا يربط اسمها بهذين الرجلين الفذين — صاحب السيف ومالك عنان الشعر ؟

وتنقلت بى أفكارى ونحن نجتاز هذه البقاع، لحامت حول هذه الطرق ومن اجتازها قبلى من الأمم والأفراد ، وتذكرت الجيوش التى جاءت وحاربت وهدمت ودمرت، والناس الذين عمروا وزرعوا وأحيوا الأرض،

وقارنت التدمير بالتعمير والقتل بالإحياء، ومرت برأسى أخبار الأمم التى سكنت هذه الجهات منذ أن عمر الناس الأرض التى أورثهم الله، وترددت فى نفسى الأساطير التى خلقها الناس ليفسروا أسماء البلاد والمدن، قالوا حلب من حلب إبراهيم لنعاجه فيها، وقالوا غير ذلك. وانفتحت أمام ناظرى هذه الآفاق الواسعة من التاريخ الذى أوجدنى وأوجد البلاد التى أجتازها، فرأيتنى أقع فى ذاكرتى التاريخية على أمم وشعوب ذات لغات مختلفة، تعمر هذه الرقعة من العالم، فتنشر لغتها، وتنشر ثقافتها، وتنشر علمها، وتنشر شرعها، وتنشئ المدن لتجعل منها مراكز لنشر كل هذا . ولكن علمها وحضارتها ولغتها تقتصر على المدينة، ولا تنفذ إلى أعماق القلوب خارجها. حتى تأتى جماعة أخرى، لها من إيمانها دافع، ولها من يقينها باعث، ولها من اقتناعها وازع ولها من خلقها رادع، فتنشر عنصرها العربى، وتنشر لغتها العربية وينتشر إيمانها فى الربوع كلها، وتلحق به اللغة أو تجاريه، فتصبح لدى كل الناس، أميرهم وغنيهم وفقيرهم وتاجرهم وصانعهم وراعيهم وزارعهم، وتصبح فى جميع المنازل: المدينة والقرية والقصر والكوخ والقلعة — تصبح لهذه كلها لغة واحدة، يتاجر فيها الناس ويتعلمون ويصلون ويخشعون ويحبون . وعندها تتوحد الحياة التى كانت متشعبة التفكير، ويصقل الفكر الذى كان متباين الغايات مشعث الأهداف . ويخرج من هذا كله هذا الرجل الذى يسميه الناس المتنبي ، والذى ينشد بيتا من الشعر فى مصر فتردده دجلة ويتغزب لا مستعظماً غير نفسه ، ولا قابلاً إلا لخالقه حكما ، فيؤمن على قوله أولئك الذين يرون نفوسهم لا تطيق اللحم والعظما، فيحقرون الدنيا ويزيدون فى كرائهها قدما .

وأنا فى هذه الأفكار إذا بالسيارة تقف أمام بيوت عدة، لا هى بالقليلة فتكون قرية ولا هى بالكثيرة فتكون مدينــة، ولكنها أمر بين الأمرين . وحسبت أن السـيارة أوقفت لتعالج . لكننى لم ألبث أن أدركت خطئى لما ذكر الركب أنها المعرّة — معرة النعمان . فعدت إلى دنيا الناس، وعجبت لهذه الحياة، التى تنقلك من عالم الفكر مع المتنبى، فتجد نفسك فى عالم الناس ولكن فى بلدة المعرى .

وكدنا لا نعرف أنفسنا . فقد كان الغبار قد تراكم على وجوهنا فصبغها بلون التربة الحمراء . ولم يكن من الميسور إزالتها ألبتة، فاكتفينا بازالة القليل منها على النحو الذى تيسر لنـا، وسرنا نحاول التعرف على الجـو الذى عاش فيه أبو العلاء . فكان أول ماطالعنا منه قبر نور الدين الشهيد، فى مكان يعرف باسم مدرســة أبى العلاء . والمدرسة هــذه كتّاب فى مكان قديم متهــدّم . ونور الدين الذى أحيا من دنيا العرب والإسلام يوم أن تصدّعت ما أحيا، ينظر الناس إلى قبره فلا يعرفون أقبر شخص عادى هو أم قبر هذا الذى هيأ لصلاح الدين أن يضرب الصليبين .

وكان بى شوق إلى قبر المعرى . فقد أعجبنى من قبل ذلك الذى تساوى عنده صوت النعى وصوت البشير . فذهبنا لزيارة " مولانا أبو العـلا " . مولانا؟ نعم لقد أصبح المعرى فى بلده وليًّا من أولياء الله، يعلو مثواه خشب بقماش أخضر، وتعلو مكان الرأس منه عمة، ويتقرب الناس إلى الله بقراءة الفاتحة فى مقامــه، ويربط قطع من القماش البالى على باب المكان الصغير وطاقاته . وكان رهن المحبسين فى حيــاته أبى إلا أن يكون له بعــد وفاته

محبس ثالث ، فاقتصر قبره على هذه الغرفة الصغيرة المظلمة . وقد تلطف أحد الناس فكتب على ورقة علقت على جدار الغرفة بيتين من الشعر هما :

قد كان صاحب هذا القبر جوهرة نقية صاغها المولى من النطف
عزت فلم تعرف الأيام قيمتها فأرجعها رحمة منه إلى الصدف

هذه حالة قبر أبى العلاء . وإن الأمر لمؤسف حقا . وقد تذكرت هذه الحالة مرات لما زرت قبور عظماء الأمم الأخرى من غير أمتى . فرأيتهم قد جعلوا قبر الواحد منهم ومثواه مكانا يعبر عن حياته . فثمة متحف صغير يحوى آثاره أو مكتبة تحوى نسخا مختلفة من الكتب التى ألفها أو غير ذلك من آثاره فى حياته .

خرجت من قبر أبى العلاء ناقما ساخطا ، وقضيت ساعات فى المعرة بعد ذلك وأنا ناقم ساخط ، وتناولنا بعض الطعام فى شبه مطعم أبى أن يبذ قبر المعرى فى نوره ونظافته ، حتى أنه لولا جوع شديد لما جلس المرء فيه ولا أكل .

وكنت أفكر بالمعرى ، لما عدنا إلى السيارة لنستأنف السير إلى حماة . وجلسنا فيها ، وعادت إلى شنشنتها ، تسير حينا وتقف حينا وتصرخ مرة وتعوى مرة ، وكأن الجهد والسخط قد نالا منى ، فلم ألبث أن أخذتنى سنة من النوم ، نقلتنى من عالم القيود إلى عالم الحرية ، ومن دنيا الواقع إلى دنيا الأحلام ، فرأيت رجلا شيخا صغير الجسم قاعدا على سجادة لبد ، وهو مجدر الوجه نحيف الجسم ، وإنه ليتحدث إلى الناس فيعلمهم اللغة وآدابها ، فإذا انصرفوا من عنده ، وانفضوا من حوله ، انصرف هو إلى عدسة وتينه ، يأكل منها ما تيسر له ، وعاد إلى كتبه يُقرأ له فيها ، وإلى تفكيره وبحثه ،

فإذا وقع على المعنى الجيد فى نفسه وصاغه شعرا أو نثرا أملاه على من كان عنده، ليكون من بعده ذخرا لنا، نحن الذين نقرأ شعر أبى العلاء فنجد فيه غذاء روحيا ومتعة فكرية ولذة نفسية . وسمعت هذا الشيخ يردّد هذين البيتين من الشعر :

أرانى فى الثلاثة من سجونى ... فلا تسأل عن الخبر النبيث
لفقدى ناظرى ولزوم بيتى ... وكون النفس فى الجسم الخبيث

وسمعت المعرّى يقص على من كان حوله أخبار تنقله فى طلب العلم . فما كانت المعرّة على ثراها وجاهها، وعلى ما كان فى بيت الرجل وآله من علم وفضل، لتكفى أبا العلاء أو تشبع ما فيه من ميل للعلم. فذهب إلى طرابلس، وسافر إلى اللاذقية وانتقل إلى بغداد، وهذه كانت عواصم الفكر فى أيام صاحبنا فى القرن الرابع للهجرة والقرن التاسع للميلاد . وأقام المعرّى فى بغداد سنة و بعض السنة ثم رحل عنها إذ أنه لقى بعض الشر من أصحاب النفوذ فيها . وكان سبب الخصومة بينهم و بينه تعصبه للمتنبى ونقمتهم عليه واشتدّ شوقه إلى أمه وهو ببغداد، وشعر بفقره، فودّع بغداد وأهلها، ورحل رغم أن أهل بغداد حاولوا أن يثنوه عن عزمه، وحاولوا أن يغروه بالبقاء لما عرفوا من علمه وأدبه .

وكأنى سمعت المعرّى يذكر شوقه إلى بلده فيقول :

وكم هم نضو أن يطير مع الصبا ... إلى الشام، لولا حبسه بعقال
فيا برق ليس الكرخ دارى و إنما ... رمانى إليه الدهر منذ ليالى
فهل فيك من ماء المعرة قطرة ... تغيث بها ظمآن ليس بسال

هذا وماء المعرّة ماء آبار، وماء بغداد ماء دجلة العذب .

وصان المعرّى فى بغداد ماء وجهه، فأشار إلى ذلك فى تشوّقه إلى الشام فقال :

أنبئكم أنى على العهد سالم ووجهى لما يبتذل بسؤال
وأنى تيممت العراق لغير ما تيممه غيلان عند بلال
فأصبحت محسودا بفضلى وحده على بعد أنصارى وقلة مالى

ثم يروى هذا الشيخ الصغير الجالس على اللبد أبياتا أخرى يخاطب فيها أهل وطنه :

تمنيت أن الخمر حلت لنشوة تجهلنى كيف اطمأنت بى الحال
فأذهل أنى بالعراق على شفا رزى الأمانى لا أنيس ولا مال
وماء بلادى كان أنجع مشربا ولو أن ماء الكرخ صهباء جريال
فيا وطنى إن فاتنى بك سابق من الدهر فلينعم لساكنك البال

لكن موجة من الأسى تمر بذلك الوجه الحزين، إذ يروى لى، وقد خلت أنه يروى لى وحدى، أن الشوق إلى بغداد عاوده فقال :

يالهف نفسى على أنى رجعت إلى هذى البلاد ولم أهلك ببغداذا
إذا رأيت أمورا لا توافقنى قلت الإياب إلى الأوطان أدّى ذا

ولما ودّع أهل بغداد قال لمودّعيه :

أودّعكم يا أهل بغداد، والحشا على زفرات ما ينين من اللذع
وداع ضنى لم يستقل وإنما تحامل من بعد العثار على ظلع
ألا زوّدونى شربة ولو أننى قدرت إذا أفنيت دجلة بالجرع
أظن الليالى وهى خون غوادر بردّى إلى بغداد، ضيقة الذرع
وكان اختيارى أن أموت لديكم حميدا، فما ألفيت ذلك فى الوسع

سمعت هذا كله من أبى العلاء، فقلت فى نفسى هـذا هو العربى يرى كل بلد عربى وطنا له ، فإذا أوذى فى نفسه وتهم مرة ، فإنما النقمة هـذه أمر ميسور لايلبث أن يذهب ويبقى هذا الشعور العام لوطنه، وهذا الوعى القومى نحو أمته .

وتلفت حولى فرأيت فى زاوية الغرفة التى كنت فيها رجلا كله آذان ، يسمع مايقال ويلتهمه، فاقتربت منه وسألته إذا كان هذا الرجل الذى يسمى نفسه رهن المحبسين، قد نجح فى اعتزال الناس وانصرافه عنهم. فقال الرجل، وهو يهمس همسا خفيفا كأنه يخشى أن يسمعه المعرى فيغضب، ؟ لا يا أخى. وكيف يستطيع من له شعره ونثره، ومن له درايته وخبرته، أن يعتزل الناس، وهل يتركه الناس لو تركهم ؟ وكيف يجوز لهم أن يتركوه ؟ أليس من حقهم أن يفيدوا من علمه ، وأن يرووا شعره وأن يتعلموا نثره ؟ أليس من واجبه أن يعلم أولادهم وشبابهم ؟ أن أبا العلاء حملته على العزلة رقة فى حسه ، ولكن هذه الرقة والشعور بواجبه حملاه على أن يفعل هـذا الذى ترى . فنحن فى كل يوم لنا منه مدرسة لطلاب العلم ومدرسة لطلاب اللذة العقلية. فهو ينبوع فياض نغترف منه ولكننا لا نستطيع أن نفنيه . أنه لنا دجلتنا ، لكما أن لبغداد دجلة ” .

وصمت محدثى قليلا ، لكنه عاد يقص علىّ قصة جرت للمعرة وكان أبو العلاء مشاركا فيها، قال جاءت امرأة اسمها جامع يوم الجمعة إلى مسجد المعرة فشكت إلى الناس أن أناسا تعرضوا لها وأرادوها بمكروه ، فانتصر الناس لها ، وهدموا البيت، وأتلفوا ما فيه، فقال أبو العلاء فى ذلك من قصيدة طويلة :

أتت جامع يوم العروبة جامعا | تقص على الشهاد بالمصر أمرها
فلو لم يقوموا ناصرين لصوتها | لخلت سماء الله تمطر جمرها
فهدوا بناء كان يأوى فناؤه | فواجر ألقت للفواحش خمرها

لكن صالح بن مرداس صاحب حلب سخط على أهل المعرة ونقم عليهم وكان بنواحى صيدا فوصل المعرة وخيم بظاهرها سنة ٤١٧ هـ، واعتقل من أعيانها سبعين رجلا . ففزع أهل المعرة إلى أبى العلاء وسألوه تلافى الأمر. فخرج هذا الشيخ القصير الذى ترى إلى صالح ، فلما مثل بين يديه سلم عليه وقال : — الأمير أطال الله بقاءه كالنهار المائع ، قاظ وسطه وطاب إبراده ، أو كالسيف القاطع لان متنه وخشن حداه ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ . فقال صالح " لاتثريب عليكم اليوم . قد وهبت لك المعرة وأهلها . وقوض خيامه ورحل . فقال أبو العلاء :

نجى المعرة من براثن صالح | رب يفرج كل أمر معضل
ما كان لى فيها جناح بعوضة | الله ألحفهم جناح تفضل

وصمت محدثى لحظة ثم قال : هذا المعرى الذى يكره السياسة العامة ، والذى رفض دعوات الحكام والأمراء ، لم يتخلف عن أن يكون شفيعا الى صالح لما دعاه قومه وأهله . وقد أشار فيما بعد إلى هذه الشفاعة فى شعره فقال :

فلما مضى العمر إلا الأقل | وحم لروحى فراق الجسد
بعثت شفيعا إلى صالح | وذاك من القوم رأى فسد
فيسمع منى سجع الحمام | وأسمع منه زئير الأسد
فلا يعجبنى هذا النفاق | فكم نفقت محنة ما كسد

وأحسست كأن الأرض قد زلزلت بى ، ورأيتنى كأننى رفعت من مكانى وقـذف بى من حالق ، فصحوت وأخذت أتحسس نفسى ، فاذا بالسيارة قد وقفت إحدى وقفاتها بعـد أن صدمت حجارة اعترضتها بالطريق ، واذا بالسائق يصخب ويلعن . فالتفت إلى صاحبى ، صاحب الرحلة ، وقال أين كنت يا هـذا ، فقد عودتنى أن تفتح عينيك لترى ما حولك ، فأخبرته أننى كنت مع أبى العلاء ، فقال ومن أجل ذلك كنت تردد .

صاح هـذا قبورنا تمـلأ الرُّحْـ ـب فأين القبور من عهـد عاد
سر إن اسطعت فى الهواء رويدا لا اختيالا على رفات العبـاد

فابتسمت وسألت أين نحن فقال أنظر الى يمينك وأمامك تعـرف أين أنت ، فنظرت حيث أشار فرأيت شـيزر على يمينى ، وحماة تنبسط أمامى . فقلت لصاحبى ، هناك ولد أسامة بن منقذ وهنا يرقد ياقوت وأبو الفداء .

وهكذا فى يوم واحد مررنا بلادًا غنية بالذكرى ، غنية بالعظمة الخالدة وانمـا تحتاج الى من يتذكر فيعيد بعض هـذه العظمة . وأى شىء أحق بالذكرى من سيف الدولة والمتنبى والمعرى وابن منقذ وأبى الفداء ؟

٦ — فى الطريق إلى جرش

ألقى الرفاق نظرة أخيرة على المدرج الرومانى الجميل الذى تزدان به عمان ، واتخذوا مقاعدهم فى السيارة الصغيرة التى كانت ترابط عند أقدام التمثال المحطم الرأس ، وقال قائلهم « إلى جرش » . وسارت السيارة الصغيرة تطوى الجزء من الطريق بعـد الآخر ، والأصحاب الثلاثة صامتون إلا من ملاحظة عن مكان أو غير ذلك فلمـا اطمأنوا الى أن الطريق خير ممـا وصف الواصفون

ودون ما هول الناس انطلقت ألسنتهم من عقالها وتحدثوا بجمال هذا الوادى الذى بدأوا يقبلون عليه — وادى الزرقاء . ونشر أحدهم بين يديه كتابا وتناول الثانى خارطة أخذ يتقرى فيها أسماء الأماكن التى كانوا يجتازون، بينما شغل الثالث نفسه بقيادة السيارة .

وتحدثوا مليا وذكروا فيما ذكروه أن ذلك الجزء من سوريا المعروف اليوم باسم شرق الأردن، كان فى القرن السابق للمسيح عرضة لنهب الناهب وسلب السالب . فقد كانت قبائل البدو تشن عليه الغارة تلو الغارة، وتحمل ما حوته مدنه من كنوز إلى منازلها المتنقلة، وكانت دولة الأنباط فى البتراء تقود عليه الحملة إثر الحملة فتحتله أو بعض أجزائه ، فاذا انسحبت منه عادت قبائل البدو إلى أعمالها فى أنحائه . وبذلك تخربت تلك المدن التى كان اليونان قد أنشأوها وتعهدوها فى ربوعه والتى كانت مشرقة المبانى ، جميلة الهياكل ، فاصبحت وكأنها أطلال تنعى بناتها .

وأشار الرفاق فى حديثهم إلى أن هذه الحال دامت حتى جاء الرومان سوريا ، واحتلوها ؛ وامتد سلطانهم إلى سيف البادية ، فأعادوا إلى شرق الأردن طمأنينتها ، وأمنها ، فعادت المدن إلى الازدهار ؛ وذكر أحدهم أن السر فى أن الغالب على بناء هذه المدن نزعة الفن الرومانية، مع أنها أنشئت لأول مرة فى عهد اليونان، يرجع إلى هذا الدور الذى مرت به البلاد قبل احتلال الرومان لها .

عنى الرومان بتنظيم الادارة فى سوريا و بحماية البلاد من هجمات البادية، وفى سبيل الوصول الى هذين الغرضين أنشأ الرومان عددا من القلاع والحصون تمتد من جنوب عمان إلى درعا فتدمر فالفرات ، وأعادوا إلى

كثير من المدن المهملة قيمتها وعمروا مبانيها، فتقاطر إليها الناس واتخذوها مقرا لهم من جديد، فكانت زيزياء وعمان (فيلادلفيا) وجرش وفحل و بيسان ودرعا مما عمروه . وأدرك الرومان أن الجيش فى سوريا عدتهم فى المحافظة على البلاد، وأن سرعة انتقاله عامل مهم فى ذلك، فبنوا الطرق التى كانت تصل بين هذه المدن، و بينها و بين مدن الساحل السورى . فكانت عكا (بطلمايوس) و بيروت وما بينهما تتصل مع بيسان وفحل وجدارا و جرش ودمشق اتصالا مباشرا على طرق مبنية من قطع كبيرة من الحجر كالتى كان يستعملها الناس فى بعض مدن سوريا إلى عهد قريب لتبليط عرصات الدور الكبيرة . وكان ثمة طريق يمتد من دمشق الى فحل أو درعا ، ثم يمر بجرش فعمان جنوبا. ولما احتل تراجان فى أوائل القرن الثانى للميلاد، البتراء، وضمها إلى الأمبراطورية أتم الطريق بحيث أصبحت تصلها ، وبذلك ارتبطت كل أجزاء البلاد بشبكة من الطرق يسرت نقل الجنود من مكان إلى آخر .

لكن الطريق متى أنشئت لا يقتصر استعمالها على الجيوش ، سيما إذا كانت تجتاز بلادا جعلتها الطبيعية طريقا للتجارة . فان موقع شرق الأردن بين الحجاز جنوبا و بقية سوريا غربا وشمالا ، والعراق شرقا ، جعلها بحكم الطبيعة من أقدم الأزمنة طريقا للقوافل التى كانت تحمل متاجر اليمن والحجاز ونجد إلى تيماء والبتراء وغزة ودمشق . فلما انتشر الأمن والنظام على أيدى الرومان لمدى ثلاثة قرون، عاد إلى المدن نشاطها التجارى وأصبحت أسواقا لكل أنواع المتاجر ومركزا لكل القوافل . فازدهرت حياتها الاقتصادية ، ونمت ثروتها، وزاد سكانها، وعادت إليها المبانى المشرقة ، والهيا كل الجميلة ،

ونشطت مجالسها المحلية لتجميلها، وعنى حكامها بتحسينها، فبقيت لنا من جراء هذه العناية وذلك النشاط ، هذه الآثار الخالدة التى يشاهدها المرء فى كل ناحية من نواحى البلاد .

فأنت واجد فى كل مدينة من مدنها الكبيرة مدرجا يتسع لأربعة آلاف أو أكثر من المتفرجين ، كانوا يجتمعون فيه ليشاهدوا تمثيل الروايات التى كتبها أبناء البلاد أو نقلوها عن اليونان، وأنت ملاق فى كل مدينة ساحة ندوة كان الرومان يسمونها "الفورم" حيث كان يلبى أحرار المدينة دعوة رئيسها لاجتماع عام يقرر فيه من الأمور هامها، وأنت عاثر فى كل منها على بقايا دار المشيخة حيث كان يجتمع مجلس المدينة لإدارتها .

ولما كانت هذه المدن أو أكثرها قد وجدت فى زمن اليونان فقد تأثرت بالنزعة الهندسية التى عرفت بها المدن اليونانية الهليفية . وذلك أن شوارعها كانت تتقاطع على زوايا قوائم، وتسير على خطوط مستقيمة، وكانت المياه العذبة الصالحة للشرب تنقل إليها من مسافات بعيدة. فقد نقلت مياه الشرب إلى درعا من مسافة خمسة عشرة كيلومترا . كما عنى المهندسون بالمجارى للتخفيف عن المدينة .

وقد رافق هذا الاطمئنان والاثراء نهضة فنية قوامها أهل البلاد أنفسهم فبدت آثارها فى تزيين أرض البيوت والهياكل بالفسيفساء الجميلة التى تحوى أشكالا ورسوما بديعة . ولما كانت النصرانية قد أخذت تنتشر فى تلك البلاد فى هذه الأثناء، اهتم الناس ببناء الكنائس، ورصعت أرضها بالفسيفساء التى شملت صور القديسين ومناظر من الكتاب المقدس وخارطة لفلسطين

وبيت المقـدس وفيها كنيسة القيامة ، يمكن مشاهدتها إلى الآن فى مادبا وغيرها من مدن شرق الأردن .

وكان الرفاق قـد شاهدوا الكثير من هـذه الآثار التى تحدثوا عنها فى مادبا وعمـان ، وزاد شـوقهم الآن إلى جرش . ولم يقطع حديثهم إلا إشرافهم على وادى الزرقاء العميق . فأخذ سائق السيارة ينحـدر فى الطريق المؤدى إلى الجسر بحذر، حتى وصله . وهناك وقفوا وتأملوا المنظر الجميل، ورأوا الوادى الذى يفصل البلقاء عن عجلون والذى يصب ماءه فى الأردن أخيرا .

وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب لما بدأت السيارة تصعد فى الجهة الأخرى من الـوادى إلى سـفوح جبال عجلون المكسوة بغـابات الصنوبر والبلوط والسرو ، فكان هـذا يزيد شعورهم بالغبطة والسرور . وغربت الشمس وهم فى الطـريق فازداد تأثرهم بمداعبـة هواء الصيف للأشجـار وبأصوات العصافير وهى تأوى إلى الأغصان، وخرير مياه الينابيع التى كانت تباغتهم على جنبات الطريق .

وبغتة رأوا بابا كبيرا كل ما بقى منـه ركناه وتاجه ، فعرفوا أنهم وصلوا إلى جرش . فمروا به محيين إلى البلدة الحديثة الصغيرة. ونعموا ليلة فى جرش بضيافة أخ كريم، أهل بهم ورحب ، وفتح لهم بيتـه وصدره ، فاستمتعوا بكرمه وحديثه، ورافقهم فى الصباح لزيارة جرش القديمة .

دخلوا من الباب، واتجهوا إلى اليسار فتسلقوا المسرح المدرج، وأشرفوا منه على الآثار التى كشفت أيدى المنقبين والباحثين القناع الترابى عن أكثرها . فانبسطت أمامهم ساحة النـدوة البيضية الشكل والتى لا تزال أرضها المبلطة

كما كانت عليه قبل ألف وستمائة من السنين ، وحول هذه الندوة تقوم الآن نحو سبعين من الأعمدة الكورنثية الجميلة ، غير الذى يتهدم بفعل الزلازل على توالى القرون .

وإذا نزل القوم إلى الساحة ، واجتازوها انتقلوا إلى الشارع الرئيسى الذى كان يخترق المدينة من جنوبها الى شمالها ، وهو مكوّن من طريق للمركبات عرضه نحو ستة أمتار فى الوسط ، يحيط به رصيفان مرتفعان للمارة . وعلى جانبى هذا الشارع ، كانت تقوم الحوانيت والمتاجر الكبيرة . فضلا عن ساحة الندوة التى كانت سوقا للتجارة .

ويمر السائر فى هذا الشارع بحوض منحوت من الصخر الأحمر الجميل ، تعلوه مصاب للماء ، أغلب الظن أن آلهة الشعراء كانت تسبح فيه إذا ماجن الليل ، وهجع الناس إلا أهل الأحلام .

ورأى الرفاق بقايا هيكل أرطميس وهذا الهيكل كان فيه مئتان وستون من الأعمدة الكورنثية ، لا يزال قائما منها ثلاثة عشر ، وقد كانت الشمس تعبد فى هذا الهيكل ، كما كانت تعبد فى طرابلس وبعلبك وغيرهما . ذلك أن الوثنية فى القرن الثالث الميلادى كانت قد نظمت شئونها على أيدى كهنتها الذين تأثروا بعلم الفلك والتنجيم البابليين ، ودخلتها أساطير النجوم ، فاتجهت نحو اعتبار الشمس قلب الكون النابض ، ومصدر النور الخالق العالم ، وبذلك عبد أهل سوريا الشمس على أنها أكبر الآلهة . ومن هذه البلاد أخذت عبادة الشمس تنتشر فى العالم الرومانى ، بتأثير هؤلاء الكهنة الذين اهتموا بتفسيرها وشرحها للناس . حتى أن الأمبراطور أورليان رفع " الشمس التى لا تغلب " الى مقام أسمى إله فى الامبراطورية .

وزار القوم ما تبقى من الكأس التى تحوى صورا من الفسيفساء تمثل استشهاد بعض القديسين فى أيام الاضطهاد الدينى القديم .

وبينما هم يهمون بالخروج من المدينة من الجهة الشمالية لفت أحدهم نظرهم إلى الحمام والى عين الماء الصافية التى تنبع بقربه، وتنساب إلى وادى جرش المكسوة جنباته بالغياض الوارفة الظلال .

وركب الرفاق السيارة ، فانطلقت بهم تقطع ما تبقى من جبال عجلون ، تحدر تدريجيا إلى أربد . وأنهم يتحدثون ثانية عما رأوا فى جرش ، بعد أن تحدثوا فى اليوم السابق عما سيرون ، واذا بخط أسود يظهر بغتة على الأفق البعيد فيتساءلون ماذا عساه أن يكون ؟

إنه خط يفصل جبال عجلون الكلسية عن هضاب حوران والجولان البركانية . أنه وادى اليرموك . ولكنهم إذ وصلوا أربد انحرفوا غربا فى وادى العرب ، ولم يلتقوا باليرموك إلا حيث يصب فى الأردن وقد مروا على مقربة من فحل وبيسان. وهكذا قضوا يومين فى الطريق إلى جرش ومنها.

٧ — فى ديار الأنباط

تحرك بنا القطار من محطة عمان واتجه نحو الجنوب . وكان الركب مختلطا، ففيهم التجار الذين يحملون ماجمعوا من حوانيت دمشق وعمان لينقلوه إلى من يحتاجه من أهل الكرك ومعان . وفيهم بدو عائدون إلى مضاربهم بعد أن قضوا لباناتهم من مباهج عاصمة الامارة وغيرها . وفيهم جنود راجعون إلى العقبة . وفيهم قلة من طلاب اللذة خارج المدينة حيث تكثر الآثار القديمة . وسار القطار يطوى البيد طيا رفيقا ، إذ لم يكن باستطاعته أن

بينهما نهبا . وبدت على التجار الذين يجتازون هذا الطريق مرات فى العام الواحد أمارات الملل، أما أنا فكنت أتطلع إلى كل جزء من الأرض أحاول التعرف إليه شبرا شبرا . هذا وأنا أعرف أنى لن أجد فيها تنوعا . فنحن نسير على سيف البادية وليس هناك من مظاهر الحياة إلا هذه الخيام التى تبدو للعيان بين حين وآخر وإلا هذه الأرض القفراء، فقد كان الوقت أواخر الصيف ولا سبيل لحياة نباتية تطالعنا فى تلك الجهات . ولكن من اعتاد أن يحب بلاده وإن جارت عليه، وأن يحب أهله وإن ضنوا عليه ، رأى بلاده عزيزة ورأى أهله كراما. وهذا الركب لا تكاد تمر عليه ساعة وبعض الساعة حتى تربطهم اللغة بعضهم ببعض فيتحدثون حديث إخوان وخلان، ويتشاكون شكوى أصدقاء أعزاء ويروى الواحد قصته فيضحكون حينا ويألمون حينا، حتى أن الدخيل بينهم يحسب أنهم أفراد أسرة واحدة فرقت بينهم الأيام ثم جمعتهم ، فاذا المياه تعود إلى مجاريها . وكان أبو شام التاجر الدمشقى المقيم بالكرنك، سلوة الركاب فيما قص عليهم من طرف اختباراته فى الاتجار والسفر، حتى أنه لما تركهم فى القطرانى أسفوا لذلك، وودوا لو أنه يقصد معان ليتم سرورهم به .

ويمر القطار بهذه المحطات القائمة فى طريقه . وأكثرها يتكون من بيت لناظر المحطة ومكتب له . وفى بعضها بنايتان أو أكثر لخزن غلات المنطقة المتجمعة فيها تمهيدا لشحنها . هذه زيزياء وبركتها التى بنيت لجمع الماء . فأكثر هذه الأماكن خالية من الينابيع . وسكان المحطات أنفسهم يحمل إليهم القطار الماء من عمان فيودعونه فى صهاريج بنيت لذلك ويستعملونه بقصد إلى أن يحين الموعد التالى لمجىء القطار فيأتى لهم بكمية جديدة من الماء .

ويحدثك أحد الركاب إذ تطل على زيزياء فيقول إلى يمينك، إلى الغرب تقع مادبا وإلى يسارك، إلى الشرق، يقع قصر المشتى . وأتذكر أنا زيارة سابقة لهذين المكانين، فتعود إلى نفسى ذكرى هذه القطع الجميلة من الفسيفساء التى هى من مفاخر الفن السورى قبيل الفتح العربى لهذه البلاد. أذكر كيف دخلنا بيتا أو أكثر فى مادبا فكان أهله يرفعون الحصير الذى يكسو الأرض فتظهر تحته هذه القطع الفنية، بعضها يمثل أبراج الشمس الاثنى عشر وبعضها يظهر الفصول والبعض الآخر فيه زهور وطيور واضحة التفاصيل ظاهرة الأجزاء . وأتذكر زيارة لقصر المشتى . وهو قصر يعود إلى أوائل الأمويين وهو واحد من هذه القصور الصحراوية التى بناها الخلفاء ليخلصوا من ضوضاء دمشق، ويستمتعوا بهواء الصحراء النقى . وأنك لتدخل ما تبقى من المشتى، فتقف فيه حائرا دهشا : لأن القوم صنعوا شيئا لم يعرفه الشرق منذ أيامهم . وكانت هذه الأماكن تحوى من لوازم الرفاهية ومقتضيات العيش الهنىء ما لم يكن الحصول عليه سهلا فى المدينة، بله قصرا فى الصحراء .

تذكرت هذا، وتذكرت غيره، وأنا أقلب ناظرى فى هذه الأماكن . ألم يحمل مد سكة الحديد هنا بعض البدو على تغيير طراز معيشتهم والانتقال إلى حياة مستقرة حضرية ؟ وانتقل تفكيرى الى عبد الحميد، عبد الحميد الثانى سلطان تركيا . صاحب فكرة هذا الخط لقد أعيت السلطان هذه الثورات التى كانت كثيرة الحدوث فى بلاد العرب، من الحجاز إلى اليمن . وعقد النية على التخفيف من حدتها إن لم يكن على القضاء عليها . فرأى أن يصل اليمن بسوريا بخط حديدى يمكنه من السيطرة على الطريق وإرسال

الجيوش متى احتاج إلى ذلك . لكن نفقات مثل هذا الأمر كبيرة . وخزانة السلطان لا تحملها ، وإذن فلتتعاون قريحة السلطان الوقادة ، وذكاء وزيره الأول شوكت باشا على إيجاد حل لهذه المشكلة . وتوفق الرجلان إلى فكرة لم يلبثا أن أبرزاها إلى حيز العمل .

إن هذا الخط سيجعل أداء فريضة الحج أسهل على المسلمين متناولا ، وسيجعلهم هذا الخط بما يقوم على حراسته من الجند ، فى مأمن من اعتداء القبائل على قوافل التجار ، وسيقصر المدة اللازمة للقيام بالحج . وإذن فليشترك المسلمون فى بناء الخط . ودعا عبد الحميد العالم الإسلامى إلى ذلك ، فلبيت الدعوة وتدفقت التبرعات ، ودفع موظفو الدولة العثمانية كلهم مرتباتهم لشهر واحد لمساعدة المشروع ، وأمر الجيش بالعمل فيه . فكان فى ذلك كله ما فتح للفكرة المجال فصارت عملا . ودفعت العمل همة عبد الحميد التى لم تكن تعرف الملل أو التعب فسار سيرا سريعا ، ولم يلبث أن وصل أول قطار إلى المدينة سنة ١٩٠٨ آتيا من دمشق . وبذلك تم الجزء الأول من خطة السلطان الجرىء . ووقف عند هذا الحد لأن السلطان انتهى أمره ، ولأن خلفاءه فى السلطة شغلتهم عن تميم الخط شواغل أخرى .

والوقت الذى كان علينا أن نقضيه فى القطار طويل — نهار كامل من عمان إلى معان . والحديث ، مهما حلا وعذب ، قد يمله الناس إذا طال ، ولكن المسافر الحريص يصطحب رفقاء لا يملهم ولا يملونه . وكنت قد حملت معى كتابا أو أكثر فعكفت على القراءة بعض الوقت . لكن هذه القراءة كانت تقطعها على رغبتى فى أن أرقب الأرض . وكان صاحبى يصرخ آنا بعد آخر لافتا نظرى إلى قطيع صغير من الغزلان ينفر إذ يسمع صفير القطار أو دويه فيذكرك ببيت شوقى .

تلفتت ظبية الوادى فقلت لها لا اللحظ فاتك من ليلى ولا الجيد

وساءلت نفسى . أكانت هـذه البلاد دائماً قاحلة على هذا النحو ؟ لكن الجواب جاءنى من مصادر مختلفة بأن ذلك لم يكن . فقـد كانت ثمة بقاع تكسـوها الغابات، لكن عدا عليها الزمن فاجتثت ولم يغـرس مكانها غيرها . وأشار صاحبى إلى قرب وادى الحسا وقال : إن المنطقة الواقعـة إلى الغرب كانت مكسوة بالأشجار فى أوائل القرن الحالى حتى أن الحكومة التركية رأت أنها تستحق أن يمدّ فرع من سكة الحـديد إليها لتنظيم شحن الأخشاب منها ، فقلت فى نفسى أما الخـط فمدّ ، وأما التنظيم فـلم يكن ، لذلك اقتطعت الأخشاب وماتت الأشجار ، فإنى لما مررت بتلك البقعـة بعد أيام رأيت فيها بضع شجرات حيث كانت غابات واسعة قبلا .

وكنت وأنا فى هذه الطريق أذكر الغساسنة . لقد عمر هؤلاء مشارف الشام وكانت لهم فيها دولة وكانوا عربا خلصا من الذين جذبتهم المدنية إليها فاسـتوطنوها وأعجبتهم الحضارة فاستمرأوها لكنهم ، مـع ذلك ، لم يتركوا فضائل العروبة وإباءها وشممها ، وإليهم يرجع الفضل فى تعريب شرق سوريا قبل الفتح الإسلامى .

وهمت الشمس بالغروب ، فأخذ الأفق الغربى يكتسى بأثواب مختلفة الوشى متباينة الألوان تتعاقب عليه دقيقة أثر الأخرى . وفى كل حالة كان يبعث فى نفسى موجة من الإعجاب لا تكاد تهدأ حتى تعقبها أخرى ، وبينا نحن فى هذا الطرب النفسى وقف القطار وصاح صاحبى "هذه معان" فنزلنا .

واستضافنا فى المدينة صديق لصاحبى رافقنا كل الطريق وأقسم إلا نزلنا عنده . وكان أوّل ما قدّم من الطعام تمر مقلو بالسمن . فقد كنا فى رمضان ،

وسنة الأفطار أن يبدأ بالتمر . واتباع السنة عند أهل معان ميسور . وقضينا أمسية وليلة فى ضيافة عربية بعيدة عن الكلفة . وكانت أولى عدد من الضيافات استمتعنا بها فى تلك الربوع .

واعتزمنا أمرنا على أن نزور البتراء، والبتراء غاية الزائر فى جنوب شرق سوريا . وسرنا عصر يوم قاظ وسطه وطاب مساؤه ، ووصلنا مقر بوليس وادى موسى قبيل المغـرب . ووقفت على المكان المـرتفع وألقيت بنظرة كلها شوق إلى الغرب، إلى المكان الذى تتوسطه البتراء، دون أن ترى . وكانت الألوان التى تنعكس من الجبال الرملية، إذ تلق عليها الشمس أشعتها الباهتة المريضة ، لا تعـد ولا تحصى . فهى ورد أصناف ، ودماء مهراقة كأنها نزفت ممن صرعه بالكثيب البهـر . وهى الى ذلك كله قوة فى رقـة ، وصـلابة فى لين . تدعوك إليها دون أن تتزلف، وتفتح لك قلبها دون أن تتبذل وتحملك على تقبيلها دون أن ترمى بنفسها بين يديك .

كانت الشمس لم تظهر بعد على الأفق الشرقى لما وجدتنى أسير وصاحبى فى طريقنا الى البتراء وكان السـير الضيق منفذنا الوحيد إلى خزنة فرعون . فوقفنا أمامها وقد تدلت من فوقنا بوادر أشعة الشمس فجعلت هذه الواجهة المنحوتة فى الصخر الوردى المصفر آية من آيات الفن التى تتحد الطبيعة ويد الإنسان على إخراجها فى تلك البقعة . وما أكثر الأماكن التى يتمثـل فيها هـذا التعاون بين القوتين . فإنك واجد فى كل ناحية من نواحى البتراء عشرات من هذه الآيات .

ولست أريد أن أزعجك أيها القارئ الكريم فأنقل إليك هـذه الصور مشوهة . فالحق أن كل ما كنت قـد قرأته عن البـتراء تضاءل شأنه لما

وصلت إلى هناك ورأيت هذا الشيء الغريب . ووجه الغرابة فى الأمر ليس نحت بضعة بيوت أو معابد فى الصخر الأصم ، ولكن وجه الغرابة هو أن يفرض الأنباط على الناس أن يأتوا لمدينتهم مرتين . المرة الأولى يوم جاءوها للاتجار، وقد كان الأنباط العرب سادة التجارة فى جنوب سوريا . والمرة الثانية بعد ذلك بنحو عشرين قرنا إذ فرضوا عليهم أن يزورها ليستمتعوا بها آية فنية . ولن يمكنك، يا أخى، أن تلم بهذين الأمرين إلا اذا زرت البتراء، فاذهب .

وما قولك بشعب يحتل هذه الأصقاع فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وقد كانت فيها حضارة تقوم حول الكرك وعمان ، وكانت فيها صناعة تمركز فى وادى العربة والعقبة ، فيتخير هذه البقعة الصخرية الجافة ليحفر فيها عاصمته ويجعلها مركزا للاتجار ثم هو يحمل القوافل على أن تتجه اليها ويحمل التجار على الاجتماع بها فلا تلبث أن تصبح السوق الرئيسية لمتاجر بلاد العرب ومصر وسوريا الداخلية والساحلية . ولا تلبث أن تمتد أبنية العاصمة ومحفوراتها وتنتشر على الآكام التى تحيط بوادى البتراء الرئيسى ، فتبدو البقعة الجافة وقد أينعت لأن أهلها أرادوا لها ذلك ، وتظهر المدينة الصخرية وقد اكتست بالورد والخز والديباج لأن سكانها أرادوا لها ذلك .

ويسيطر الأنباط أو تسيطر البتراء على طرق التجارة كلها ، وتنتشر ، مع تجارتها ، حضارتها ، فنرى الأسلحة تصنع فى الشمال على شكل نبطى ، ونرى المعادن تستخرج على نحو ما يريد الأنباط ، ونرى آلهتهم تعبد على نحو ما يعبدونها .

ونقضى يوما فى البتراء . ويشتد الحر ، فنقيل عند نبع ماء يكاد ينبثق من الصخر، لكن بعض الأتربة التى تتحرر من ربقة الصخور تتجمع فتظهر

حولها شجيرات الدفلة ، وهذه تحمل زهورا جميلة ، فتقع العين على شيء يتم جمال هذه الصخور الملونة .

وعدنا من زيارة اليوم ، وكانت السيارة تنتظرنا ، فقطعنا فيها قرابة أربعين من الكيلومترات لنطل على الشوبك . وهى قلعة حصينة فى جنوبى البلاد ، بناها الصليبيون لما استولوا على تلك الجهة ، فلما أخرجوا استولى عليها الأيوبيون واستمرت بعدهم لأهل البلاد . وقد تخلى عنها الفارس للفلاح والراعى ، لكن الفلاح والراعى متى خطر لهما أن يثورا اتخذا من جدرانها وحصونها الكاملية ترسا يختبئون خلفه ، ويرمون الجند المهاجم بالسلاح والحجارة . فقلعتهم تقوم على قمة رابية تحيط بها ثلاثة أودية تحد على درء الخطر عنها ، ولا يمكن الاقتراب منها إلا من فوق جسر واحد إلى شمالها الغربى .

وعدنا من الشوبك إلى معان ، وأدركنا المغرب فى الطريق . وأوقفت السيارة لإصلاح عطب طرأ عليها ، فاغتنم ركابها تلك الفرصة ، وأوقعوا ببعض التين الذى كان عطا الله يحمله هدية الى أهله . ولكن من حق الصائم أن يفضل على صاحب الهدية . وأتم عطا الله كرمه بأن أقسم إلا تناول الجميع عنده طعام الإفطار تلك الليلة . وكان له ذلك .

وفى صباح اليوم التالى أقلنا القطار من معان إلى القطرانى ، فقد كانت الكرك وجهتنا هذه المرة ، وكنت أحسب أننى رأيت كل شيء فى الطريق ، فلا يكون ثمة من جديد . لكننى أخطأت الحساب . فما كدنا نقضى ساعة فى الطريق حتى دعانى صاحبى إليه ، وأشار الى شيء بعيد فى الأفق . أنه السراب . نعم هذا الذى يحسبه الظمآن ماء ، فيتجه نحوه ، ويشتد العزم ،

وهو فى واقع الأمر يسعى خلف انعكاس أشعة الشمس على حرات بلاد العرب . نعم لقد كانت الأرض هناك بركانية، وهذا شعاع الشمس ينعكس عليها ، فيخيل إليك أنك ترى الماء ، والماء عنك بعيد .

راقبت السراب هذا، وجلست بعدها فى القطار أحدث نفسى وأستمتع بتدخين غليونى، وطال بى التحدث إلى نفسى، وخرجت منه وأنا أردد : — الأنباط الغساسنة، الفتح العربى، اليرموك . نعم لقد كانت كل كلمة من هذه تمثل خطوة من تلك الخطوات المباركة التى انتهت بصيرورة هذه البلاد عربية . ولئن كانت البتراء وبصرى محطات للاتجار ولئن كان المشتى قصرا للنزهة فقد كانت كل هذه محطات انتشرت منها اللغة العربية ومراكز انتشر منها العنصر العربى ، واتحدت معها الحيرة وتدمر والبصرة والكوفة وواسط ودمشق والرملة وحلب وكل مدينة أخرى . وجماع هذا الجهد الذى شمل هذه الرقعة الواسعة، وامتد كل هذا الزمن هو أن أصبحت هذه البلاد عربية، وبت أشعر أنى فى وطنى حيث نزلت وأنّى ارتحلت .

٨ — ذكريات شامية

وأخيرا عدت إلى زيادة دمشق .

عدت لأستعيد ذكرى طفولة عذبة قضيتها فى ربوع هذه المدينة، ثم انقطعت عنها سنوات طويلة . تركتها وقد لعبت مع صبيتها وتسكعت فى أزقتها وركضت فى متنزهاتها، وعدت إليها لأستعيد تلك الذكرى فأستمتع منها بساعات عذاب، وعدت إليها كذلك شابا ملء بردى رغبة فى استطلاع معالمها واستنطاق آثارها واستقصاء أنبائها . عدت وكلى شوق إلى ذلك ،

فبلت دمشق شوق وأطفأت حرظمأى وأشبعت بعض نهمى . فهذه الحارات التي لعبت فيها وهذه الأزقة التي قضيت فيها ساعات بدون قصد أو غاية . وهذه، إلى جانب تلك، معالم التاريخ تنادى بأعلى صوتها مشيرة إلى الدور التي مثلته دمشق على مسرح التاريخ الانسانى، فرددت قول شوقى:

وذكرى عن خواطرها لقلبي　　　إليك تلفت أبدا وخفق

وكيف لا يخفق القلب عند ذكر دمشق !

هذه دمشق تعود إلى العصور المتوغلة فى القدم، مدلة بأنها أعتق مدينة على وجه البسيطة ، استمرت فيها الحياة منذ إنشائها حتى اليوم ! هذه دمشق تنظر إلى سوريا الوسطى والجنوبية مدلة بفضلها ذاكرة دورها فى الدفاع عن أخواتها من مدن تلك الجهات وقراها، فان أنكر عليها منكر ذلك ذكرته بأنها منذ القرن الحادى عشر إلى القرن الثامن قبل الميلاد كانت دمشق تصد عن بلادنا عادية الأشوريين، يوم أن كانت أرامية سامية تنقل المتاجر شرقا وغربا ، بين البحر الرملى الصحراوى والبحر المتوسط . فاذا عدا عليها أو على جوارها عاد تركت الميزان وحملت السيف، ورمت الجمل وتنكبت القوس ، وأغلقت السوق وفتحت الحصن ، فلا تلبث حتى ترد العادية وتبعد المصيبة وتقصى النكبة، فإذا الناس فى سلام وأمن واطمئنان ، فيعود السيف إلى غمده والقوس إلى مأواها والحصن إلى إغلاق أبوابه ، ويعود الميزان والسوق والجمل إلى العمل . لكن دمشق هذه لما تألب عليها خصومها الأقوياء واستعانوا عليها بالسذج من أعوانها ، واستمالوا إليهم الخائنين من أنصارها ، عجزت عن المقاومة وقتا ، فاحتلت ودكت أسوارها وهدمت حصونها وعطلت أسواقها . وكان سقوطها سقوط الجوار كله،

مدنا وقرى ، أسواقا ومزارع ، مصانع و بساتين . ولما انتبه السذج والخونة إلى ماحاق بهم ندموا ولات ساعة مندم .

وجاء الاسكندر الكبير ثم توالى على البلاد خلفاؤه و بعدهم الرومان . وكل من كان له شأن فى هذه الجهات أدرك الأثر الذى يمكن دمشق أن تؤثره فى الناس والبلاد . فليس من السهل على بلد يشرف على طريق الداخل إلى الساحل ، وتجتمع فيه تجارة العرب من الحجاز إلى نجد إلى العراق و يتوسط مركز الاتصال بحمص وحماة وفلسطين و بيروت . ليس من السهل على بلد هذا شأنه أن يهمل . و إما أهمل فانه قائم وفارض إرادته على أصحاب الأمر . وهذا ماحدث مرارا فى تاريخ دمشق . تحطم وترغم على الاخلاد إلى السكينة ، ولكن لا يطول بها الزمن . فنشاط أهلها ، ونشاط البلدة ونشاط الموقع ونشاط الزمن ، كل أولئك يحفزها إلى القيام فتقوم وتفوز بما تريد .

وهكذا فازت دمشق بما تريد أيام كان الرومان يعنون بهذه البلاد .

ثم جاء دمشق من عرف قيمتها قبل أن تفرض هى إرادتها عليه . جاءها معاوية بن أبى سفيان .

فقد اتخذها معاوية عاصمة للدولة الأموية ، وعرفت بذلك دمشق عزا لا مثيل له . فقد كانت عاصمة لملك يمتد من الهند إلى اسبانيا ، فكانت مقر الخليفة وأمراء الدولة ورجال الحل والعقد . منها كانت تدار الولايات وفيها كانت تعقد المشاورات و إليها كانت ترفع الشكايات وفيها كانت تنظر الظلامات .

وبنى فيها معاوية القبة الخضراء وأنشأ فيها الوليد جامع بنى أمية وعقد فيها عبد الملك مجالسه . وتعربت دمشق فى عهدهم فصارت العربية لغة

شعرها وأدبها ولغة مجلسها وديوانها ولغة سوقها وحاراتها . ذكرت هذا كله وأنا أتنقل بين معالم المدينة الأموية فتذكرت قول شوق .

لولا دمشق لما كانت طليطلة   ولا زهت بنى العباس بغدان

فى هذه الفترة كانت دمشق تتقدم وتنمو وتزدحم بالسكان ، فتمتد شمالا ، ويعنى بتوزيع الماء على أجزائها البعيدة ، ولذلك نجد نهر يزيد يشق فيها ليوصل الماء إلى أجزائها ونواحيها الجديدة . وفى هذه الفترة تعود الأسواق الرومانية إلى الظهور ، وهى بعد أوسع نطاقا وأحفل بالخيرات وأعمر بالمتاجر ، فقيسارياتها كثيرة وأسواقها مليئة . وتستمر هذه الحركة فيها ولو أنها تأخرت قليلا ، فتصل دمشق إلى عزها التجارى فى أيام الأيوبيين والمماليك ، هذا مع أنها ترى سلطانها السياسى ينحسر فيقتصر على سوريا الوسطى والجنوبية بعد أن كان يشمل العالم العربى من أقصاه إلى أقصاه . وكأنها عوضت بتجارتها وثروتها بعض ماخسرته من عز وسلطان ، فتراها تفرض صناعاتها على أهل الشرق ومتاجرها على أهل الغرب ، فسيوفها ورماحها وجلودها وحريرها يبتاعه أهل البلاد ، وما فيها من الأفاويه والتوابل والمنتوجات الهندية ينقل منها غربا . كما أنها استكثرت المدارس والرباطات والزوايا والمستشفيات . فكان لها فى ذلك كله فضل أى فضل وشرف أى شرف ! ونحن واجدون ذلك كله واضحا فيما رواه الرحالون الذين زاروها فى تلك العصور . فهذا بنيامين الإسبانى يقول (يخترق دمشق نهر أبانا الذى تحمل مياهه إلى دور كبار الناس فيها ، فى أنابيب كما تنقلها الفنى إلى الشوارع والأسواق . وتجارتها واسعة ويقيم بها تجار من جميع الأقطار . وجامعها قلما يساويه بناء آخر فى فخامته) . وهذا ابن جبير يحدثنا عن المدارس

والمستشفيات ، فمدارسها عشرون وبها مستشفيان جرايتهما فى اليوم ثلاثون دينارا (أى نحو خمسة عشر جنيها)، والأطباء يبكرون كل يوم فيتفقدون المرضى ويأمرون بإعداد ما يصلح من الأدوية والأغذية حسبما يليق بكل منهم . والمدرسة التى لفتت نظر ابن جبير هى المدرسة النورية التى أنشأها نور الدين .

أما تجارة دمشق وقيمتها الاقتصادية فى تلك العصور، فقد رسم لها الرحالون صورا كثيرة لعل من أوضحها تلك الصورة التى خلفها لنا فون سوخم، فقد قال عنها (دمشق عظيمة فخمة جميلة وغنية بكل أنواع المتاجر، وفى كل ناحية منها شىء مبهج . فالطعام فيها كثير وكذلك التوابل والحجارة الكريمة والحرير واللآلئ والأقمشة المقصبة والطيوب من الهند وبلاد التتار ومصر وسوريا وأوربا . وكل ما يشتهيه المرء يجده فيها . وهى كثيرة السكان إلى حد لا يصدق .

(وتقوم صناعاتها المختلفة كل فى حى خاص . وكل صانع يتخذ أمام بيته مكانا يعرض فيه مصنوعاته عرضا يلفت النظر ويغرى بالشراء . وكذلك يصنع التجار بسلعهم . وكل ما يصنع بدمشق متقن والتجار الأغنياء يحتفظون بالطيور فى أقفاص أمام بيوتهم . مع أن المدينة مزدحمة بالسكان، ومع أن البضائع تترك فى الشوارع دون حراسة، فليس ثمة من يذكر أن أحدا قتل فى دمشق وقلما تسرق فيها السلع المعروضة للبيع) .

ولعل من أروع الأبنية التى ترجع إلى هذا العهد فى دمشق قلعتها . فهى على شكل مستطيل فسيح طوله ٢٢٠ مترا وعرضه ١٦٠ مترا، لها مدخلان كبيران ويدور بها ثلاثة عشر برجا . والقلعة على شكلها الحالى ترجع

الى سنة ١٢٠٦ ميلادية ، وإن كانت قد بنيت قبل ذلك بمدة يسيرة . وكانت القلعة فى ذلك الوقت تشغلها حصون الدفاع ودار صاحب السلطان الخاصة ، وفيها الإيوان الرسمى الكبير والإدارات العسكرية والمدنية وبرج الحمام يأوى إليه الحمام الزاجل وثكنات الحرس ومخازن السلاح وبيت المال ودار سك النقود والسجن . فهذه القلعة كانت مدينة داخل مدينة .

وفى أيام المماليك صارت دمشق مركزا لسورية وفيها مقام نائب السلطنة . وعناية المماليك العسكرية بها كبيرة . وتظهر آثارهم فى المنشآت العسكرية الكثيرة وفى إنشاء الميادين التى تتطلبها الكثرة المطلقة من الفرسان . فميدان للسباق وميدان للعب بالكرة . وهناك سوق للخيل وللسروجيين وهكذا .

على أن دمشق شقيت بعد هذا الثراء . فقد تناوبتها أحداث أقضت مضاجع أهلها حتى خيف عليها وعلى جاراتها . ففى السنة ١٤٠٠ ميلادية هاجمها تيمور التتارى وفرض عليها غرامة كبيرة ثم انتزع ألفين من صناعها ومهندسيها وحملهم إلى سمرقند ليبنوا له عاصمته . وفى أواخر القرن الخامس عشر بدأ تحول التجارة عن سوريا ومصر إلى طريق جنوب أفريقيا ، فقلت البضائع الواردة إلى دمشق وتناقص عدد البائعين والمشترين ، وفى أوائل القرن السادس عشر احتل العثمانيون سوريا . فكان ذلك الانتقال مؤذنا بتغير فى حالها .

لكن دمشق قوية على أحداث الدهر ومصائبه . فهى لا تكاد تقع حتى تنهض . وعلى هذا فنحن نجدها فى القرن السابع عشر ثم فى القرن الثامن عشر تعود إلى ما كانت عليه . فتمتلىء أسواقها وتعمر حوانيتها وتعمل

مصانعها ويعود البائعون والمشترون من الشرق ومن الغرب فيتنافسون فى سبيل بضائعها .

عدت إلى دمشق ، وقضيت فيها أياما أستعيد ذكريات الطفولة وأستنطق معالم التاريخ ، فأنبأتنى المعالم بالكثير ، ونطقت الآثار بالكثير .

وخرجت من دمشق وأنا أردد أبيات شوق :

ألست دمشق للإسلام ظئرا ... ومرضعة الأبوة لا تعق
صلاح الدين تاجك لم يجمَّل ... ولم يوسم بأزين منه فرق
سماؤك من حلى الماضى كتاب ... وأرضك من حلى التاريخ رق
بنيت الدولة الكبرى وملكا ... غبار حضارتيه لا يشق
له بالشام أعلام وعرس ... بشائره بأندلس تدق

أندلسيات

(١) حائك وادى آش . (٢) سفارات . (٣) مجالس الأنس .
(٤) صلات الأندلس بأوروبا . (٥) صلات الأندلس بالمشرق .

١ — حائك وادى آش

التأم مجلس الملك سرجيس فى طيطلة وأكمل عقده فى قاعة الاحتفالات الصغرى . فقد كان من عادة سمار الملك ونصحائه ومشيريه وأصحابه ، أن يحيطوا به كل مساء بعد طعام العشاء . فيتحدثوا فى شؤون الدولة العامة ويتداولوا أخبار الناس خاصهم وعامهم . وكان قد هبط المدينة فى ذلك اليوم شاعر مغن ، فجىء به الى مجلس الأنس هذا ليطرب القوم . ودارت الأحاديث فى كل ناحية، ثم أذن الملك للشاعر بالانشاد . فتقدم، وقد حمل قيثارته، وقص على القوم، فى صوت عذب حنون ، أخبار من غبر من الفرسان، وقصص حبهم وغرامهم ، وروى كيف دافع الأقدمون عن البلاد لما غزاهم أهل البر الافريقى فى سالف العصر والأوان، وعظم فضائلهم ورسم بموسيقاه وغنائه ، صورا خلابة براقة لهم . فأصاب كل ما فعل ، وترا حساسا فى جميع السامعين وأثار فى نفوسهم ما كمن من لواعجها .

وكان هذا الانشاد خاتمة المطاف فى تلك الليلة، فانفض السامر، وأوى كل امرئ منهم الى مضجعه وداعب الكرى أجفانهم، ولم يلبثوا أن استسلموا للنوم، الذى حمل أرواحهم الى عالم الأحلام . فتراءت لهم الدنيا قصائد تغنى ومجالس أنس تعقد ووقائع حب وغرام ومعارك فرسان . لكن شخصا واحدا

حرم عليه النوم تلك الليلة . كان ذلك الرجل الملك نفسه . فالكرى لم يجد طريقا إلى عينيه والراحة لم تعرف سبيلا إلى فؤاده ، وظل ساعات يتقلب على فراشه . أقض مضجعه هذه الذكريات التى أثارها الشاعر من مكمنها ، ذكريات غزو أهل البر الافريقى لبلاده ، وقوى وساوسه ما بلغه قبل أيام من استعداد أهل تلك الجهات للهجوم على اسبانيا ، طمعا فى خصبها وثروتها وجمالها .

حرم الملك الكرى ، وتعب من فراشه ، فتركه وجلس فى قوس النافذة وحدق فى السماء الصافية ونجومها اللامعة وكأنه يحاول استطلاع ما تخفيه النجوم خلف هذا البريق . وألقى بنظرة على المدينة المحيطة بقصره وماحولها من حدائق غناء وجنان فيحاء ، وملأ صدره أريج الزهور الذى حمله إليه نسيم الليل ، وكأنه يخشى أن يسلب هذا الوطن إذا هو لم يعد للأمر عدته ، وقلب الأمر على وجهه فلم يوفق لحل قط .

قام الملك من مجلسه ، وارتدى بعض ثيابه وخرج ، وتحسس طريقه فى ممرات قصره الكبير ، متجنبا إزعاج النيام ، حتى أتى حجرة مشيره العزيز عليه ، فطرق الباب طرقا خفيفا ، ففزع الرجل من نومه ، وفتح الباب ، وكاد يصعق إذ رأى مليكه على الباب . فأشار الملك أن اصمت ودخل ، روع صاحبه . فلما عاد إليه رشده ، حدثه الملك بجلية أمره وما يشغل باله . وصمت الاثنان برهة ، ثم تكلم الصاحب قائلا (أيها الملك إن مملكتنا على غناها صغيرة ، ومواردها محدودة ، وجيشها على شجاعة جنوده لا قبل له بمقاومة الغزاة أن حدثتهم نفوسهم أن يعبروا الينا ، والملوك الذين حولنا قد لا نأمن جانبهم ، فهم يحسدوننا ويحاولون الايقاع بنا . والرأى عندى هو أن نحصل على طلسم يحمينا من أولئك القوم ، و يقوى ساعد جندنا إذا جد

الجد . وقد بلغنى أنه يقيم فى وادى آش حائك يستطيع أن يصنع الطلاسم فلنجربه .

وكأن الملك كان ينتظر مثل هذا الرأى من جليسه، فلم يكاد ينطق بهذه الكلمات حتى أجابه . سأرسل اليه الساعة ، وسأذهب منفردا . وعليك أنت أن تدبر المملكة فى غيابى ، ويحتم عليك أن تخفى قصدى ووجهتى عن الناس كلهم . ونهض الملك ولم يزد .

كانت أشعة الفجر الفضية قد ظهرت بوادرها فى الأفق الشرقى لما خرج الملك على جواده ، وقد تلثم بحيث لا يعرف ، فلما أشرقت الشمس كان قد وصل إلى أطراف مملكته . وأغذ السير، فما يقف إلا ليتبلَّغ، حتى وصل وادى آش فى مساء اليوم التالى . فما أضاع وقتا، ولا فوّت فرصة، فانه ما كاد يهبط الوادى الجميل ، ويسير فى ظلال أشجاره الوارفة ، ويستنشق ريّاه العطر، حتى اطمأن الى أنه واجد بغيته . وما كان من الصعب عليه أن يهتدى الى الحائك المتنسك . فقد كان هذا يقيم فى شجرة قسطل ضخمة اتخذ منها له مسكنا .

اقترب منه الملك وحياه ، فرد الحائك التحية ونظر إليه ، والابتسامة تملأ وجهه بشرا وقال : (هوّن عليك فقد وجدت ضالتك) . ثم دعاه إلى مشاركته فى خبز وبقل كان يأكله. وكأن هذا الاطمئنان الذى كان يستمتع به الحائك قد سرى إلى نفس الملك فأحس بالجوع وجلس إلى الحائك، والتهم ما استطاع إلى التهامه سبيلا . فلما فرغا انصرف الحائك إلى صلاة قصيرة قالها ثم التفت إلى الملك وقال : (سأهيئ لك الطلسم الذى تريد، ليحمى ملدك من الغزاة . فنم الساعة وستجده جاهزا متى صحوت . فالتحف الملك

بردائه ، واتخذ له بجانب شجرة القسطل مكانا أوى إليه ، فلم يلبث أن انتقل إلى عالم الأحلام ليرى الحياة طلاسم تحمى الملك .

وطال نومه ، فلما استيقظ كان قد نام ثلاثة أيام كاملة ، ووجد إلى جانبه صندوقا صغيرا من الرخام ، محكم الأقفال وكتابا فضه فقرأ فيه :

(احمل هذا الصندوق إلى عاصمة ملكك ، فإذا وصلت اليها ، فاختر غرفة فى قصرك متينة البنيان سميكة الجدران ، وأودع فيها هذا الصندوق ، وضع معه المائدة الثمينة التى فى كنيسة البلدة ، ثم أقفل الغرفة إقفالا محكما . وأوص خلفاءك من بعدك أنه متى ولى الحكم منهم واحد فليضف إلى أقفال الغرفة قفلا . لاتفتح الصندوق و إلا هلكت أنت وقومك ولم تقم لكم بعدها قائمة ، واعلم أن هذا الطلسم يصلح ما دام الاعتقاد بقوته موجودا . فإذا شككتم به فقد أثره) .

ولم يعثر الملك للحائك على أثر ، فحمل الصندوق ، وعاد إلى طليطلة بمثل السرعة التى جاء بها . فوصلها والليل مخيم عليها ، فدخل قصره سرا ، وقصد غرفة مشيره النصوح ، فولجها وأيقظه وأخبره بأمره ، واستودعه إلى الصباح .

وأعد الملك العدّة للعمل بوصية الحائك . فاختار الغرفة الصالحة وأحضر المائدة من الكنيسة ودعا كبار القوم و رجال الدين للاحتفال بإيداعها مع الصندوق فى الغرفة . وتم ذلك مع مراسيم فخمة . ثم أقفلت الغرفة وانصرف الناس إلى أعمالهم وقد أمنوا الشر الذى كان يقض مضاجعهم .

وتتابع خلفاء الملك سرجس على عرش طليطلة ، وكان كل واحد منهم فى أول يوم من اعتلائه العرش ينزل إلى الغرفة ومعه كبار رجال الحاشية

ورجال الدين فيضيف قفلا كبيرا متينا إلى هذه الأقفال التى كثر عددها على الباب فإذا تم له ذلك انصرف إلى حفلة التتويج الرسمية ، كان وضع القفل هو أوّل عمل رسمى يقوم به الملك الجديد .

وبلغ عدد الأقفال ستة وعشرين ، ومات آخر ملك وهو الملك السادس والعشرون ، وخلف أولادا صغارا فتقدّم أحد القوّاد وتولى الوصاية عليهم ، ثم لم يلبث أن اغتصب العرش ، وهم بتتويج نفسه ملكا باسم رودريك أو لذريق .

وتقدّم الناس إليه ، وقد رضوا بحكمه مكرهين ، وطلبو إليه أن يسير على خطة أسلافه العظام ، فيضيف قفلا إلى هذه الأقفال التى تحرس الباب . فأبى لذريق ذلك واعتزم أن يفتح الغرفة ليرى ما فيها ثم يعود فيحكم إقفالها . وبلغ أهل المدينة ما عزم عليه الملك ، فتقدّموا إليه ضارعين أن لا يفعل . لكنه رفض ضراعتهم وضرب برغبتهم عرض الحائط ، واتعد القوم اليوم الأوّل من حكمه لكسر الأقفال .

نزل الملك إلى الغرفة ، ومعه جلادوه وجنده يحملون الفؤوس القوية تلوح بها زنودهم المفتولة . وتقدّم اليه أثرياء المدينة للمرّة الأخيرة ورجوه أن يترك الأقفال على حالها ، وقال له قائلهم : (أيها الملك . لقد درج الأسلاف على الاحتفاظ بسر هذه الغرفة ، وقد نقل لنا آباؤنا وأجدادنا أن هذا هو الذى سلّم بلادنا كلها من غزو العدوّ ، ونحن على يقين بأن ما فيها لا يستحق الفتح . ولكن إن كانت لك رغبة فى فتحها ظنا منك بأن بها كنوزا قيمة ، فقدّر قيمتها ونحن مستعدون لأن ندفع لك هذا الذى تريد فاستشاط الملك غيظا وكاد يقتل المتكلم لولا صيحات القوم . وأمر به

فدفع إلى خارج القصر، ثم التفت إلى المحيطين به، وقال والشرر يقدح من عينيه : (أنا الذى أدفع عنكم عادية الغزاة، ولا بد لى من فتح هذه الغرفة). ثم أمر رجاله بفتح الأقفال واحدا واحدا، وكان كل قفل مفتاحه معلقَ به، وكان كلما فتح قفل صعدت من الجماعة أنّةُ ألم وصيحة امتعاض ، لكنها لم تلق من الملك لذريق التفاتا . فلما تم فتح الأقفال الستة والعشرين ، أمر بالباب نفسه فكسر. ودخل الغرفة فوجد المائدة المصنوعة من الذهب الخالص والمحلاة بالجواهر، فطفح وجهه سرورا لأنه عثر على هذا الكنز الثمين.

ثم تناول الصندوق المقفل . وقلبه بين يديه وحاول أن يهتدى إلى طريقة لفتحه ، وعندها علت من الجمهور صيحة رجاء بأن يبق الملك على الصندوق كما هو ، لكن لذريق كان قد صمم على فتحه ، فلم يعر رجاءهم أذنا صاغية، وأمر به فكسر لأنه عجز عن الاهتداء إلى وسيلة لزحزحة الغطاء.

انكسر الصندوق الرخامى ، وانهلعت لانكساره أفئدة الواقفين قرب الملك والمنتظرين خارج القصر فبانت على جوانبه فى الداخل رسوم فرسان عليهم العمائم وتحتهم خيول عراب وهم متقلدو السيوف متنكبو القسى ورافعو الرايات على الرماح ، فتبينوا الصور فإذا هى صور فرسان العرب . وفتش لذريق عن شىء آخر يشفى غلته فلم يجد . ولكن أحد الرجال الواقفين حوله لمح فى طرف الصندوق من الجهة الأخرى كتابة حاول الموجودون قراءتها فلم يستطيعوا، فاستدعى العارفون فى البلد، والملك وجماعته وقوف بالمكان، بجاء هؤلاء، وتمكن أحدهم من حلها فإذا فيها : (إذا كسرت الأقفال عن هذا البيت وفتح هذا الصندوق فظهر ما فيه من الصور فإن هذه الأمة المصوّرة فى هذه الشقة تدخل الأندلس فتغلب عليها وتملكها) . فوجم

لذريق وندم على ما فعل وعظم غمه وغم من معه وأمر برد الأقفال وإقرار الحراس على البيت .

خيم الليل على طليطلة والنـاس فى هم وغم والملك فى حيرة من أمره، ومشيروه لا يدرون ما يقولون وما ينصحون . وعند شجرة القسطل فى وادى آش جلس الحائك يأكل خبزه وبقله ، ثم صـلى ولف نفسه بكسائه الرقيق وأطلق نفسه للنوم . وحمل إلى عالم الأحلام، فرأى فيما يرى النائم أن جماعة من فرسان العرب ينزلون من سفنهم ويركبون خيولهم العراب وهم متقلدو السيوف متنكبو القسى يحملون الرايات المرفوعة على الرماح، ثم رأى النار يندفع لهيبها فى السفن فتحرقها عن آخرها، ثم خيـل إليه أنه سمع قائدهم ذا الوجه الأسمر البادى القسمات الواضح المعالم يقول لهم فى صوت كأنه جلجلة الرعد القاصف تشوبه الثقة بالنفس والايمان القوى، سمعه يقول لهم (أيها الناس أين المفر ! ! ! البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر) . والتفت الحائك إلى الجهة الأخرى فرأى لذريق مهموما مغموما وأمامه صورة الصندوق المحطم فأدرك ما حدث .

هب لذريق من مجلسه بين قومه وتناول سيفه وركب جواده وأغذ السير إلى وادى آش، إلى شجرة القسطل ليسترشد برأى الحائك فوصل إلى الوادى والشمس قد برزت فوق الأفق، فترجل ونادى فلم يسمع مجيبا ودار بالشجرة فوجد النول الذى كان الحائك يستعمله وقد وقع وتكسر وتقطعت الخيوط التى كانت فيه ثم وجد الحائك ملتفا بردائه وقد فارقت روحه جسمه .

وحانت من لذريق التفاتة فأبصر الغصـون تميـل على ماء النهر إيمـاء، فوقف يتأمل ذلك، فخيل إليه أنه سمع صوتا لم يتبين مصدره يدوى فى أذنه

(إذا كسرت الأقفال عن هـذا البيت وفتح هذا الصندوق فظهر ما فيه من الصور ، فإنّ هذه الأمة المصوّرة فى هذه الشقة تدخل الأندلس فتغلب عليها وتملكها ، أيها الناس أين المفرّ ! ! ! البحر من ورائكم والعدو أمامكم فليس لكم والله إلا الصدق والصبر) .

فأيقن لذريق أن الصـوت هو صوت النذير . وتبينه بعد مدّة ، يوم أن قاتله طارق بن زياد فغلبه ، وانتزع منه ملك الأندلس .

٢ — سـفارات

عرفت الأندلس ، بين عصورها الزاهرة ، عصرين فى أيام العـرب بلغت فيهما حياتها السياسـية والأدبية والعلمية والاقتصادية الذروة : أوّلهما عصر الحكم وابنه عبد الرحمن الأوسط ، وثانيهما عصر عبد الرحمن الناصر . ومن غرائب المصادفات أن يتميز العصران بتبادل الوفود بين القسطنطينية وقرطبة . ولعـل الوفود تبادلتهما العاصمتان فى غير هاتين المناسبتين ، كما تعدّدت الوفود إلى قرطبة من عواصم أخرى كثيرة ، لكن وفادة رسل ملوك بزنطية فى ذينك العصرين عنى بها الرواة فدوّنوا أخبارها لأنها ، على مايظهر كانت لهـا عندهم دلالة خاصة أو لأن أحداثا أدبية فرضتها عليهم ، هـذا إلى قيمتها السياسـية من حيث أنها مبعث فخـر للسلطان أن يبادئه الملوك بارسال الهدايا والرسل وطلب عقد المحالفات معه .

كان قيصر البزنطيين فى أواسـط القرن التاسع للميـلاد وأوائل القـرن الثالث للهجرة ثيوفيلوس ، وكانت بزنطية قد لقيت الأمرين فى حرب العباسيين على يد المأمون وأخيـه المعتصم . هذا فضلا عن أن غارات أخرى كانت

تشن على بلادها من جهات أخرى . ورأى ثيوفيلوس أن لاقبل له بمواجهة كل هذه القوى ، فخطر له أن يستند بالقوى الغربيـة . وكان عبد الرحمن الأوسط آنئذ أمير الأندلس ، فبدا للقيصر أن يعقد معه محالفة ويحرضه بالهجوم على العباسيين بحرا وبرا . وكان قصـد ثيوفيلوس أن تشتغل قوى بغداد برد قوى قرطبة فيخف الضغط على حدوده الجنوبية .

أرسل ثيوفيلوس سفارته إلى أمير الأندلس ومع سفيره هدية فخمة . فوصل الرسول سنة ٢٢٥ هجرية (٨٤٠ ميلادية) يحمل الهدية وكتابا من القيصر يذكر فيه الأمير عبد الرحمن بالود القديم ، الذى كان بين أسلافه فى الشام وبين ملوك بزنطية ، ويتذمر فيه من أعمال المأمون والمعتصم ، ويشكو من احتلال أهل البحر الأندلسيين لجزيرة أقريطش (كريت الحديثة) . ثم يطلب إليه تجديد الصداقة القديمة بين البيتين المالكين ويرغبه فى ملك الشرق ويستثيره لمناهضة العباسيين ويعده بالعون من جانبه إن هو أقدم .

ولم يكن عبد الرحمن يفكر بأمر مثل هـذا فلم يثره كتاب ثيوفيلوس ، لكنه رأى من الحكمة أن يرد على سفارة القيصر بما يليق بها . فاختار يحيى الغزل كاتبه ومشيره رئيسا للوفـد ، وكان الغزال قد تجاوز الخمسين لكنه مازال نشيطا وكانت ثقافته وحنكته وكياسته تؤهله لمثل هذه المهمة ، فضلا عن ثقة الأمير به . وغادر قرطبة برفقة السفير البزنطى يحمل إلى القيصر كتاب أميره وهديتـه . والظاهر أن رحلتـه كانت شاقة جدا ، تخللتها العواصف وتعرض فيها لأمواج البحر . وقد واتته شاعريته فى وصف الموج إذ قال :

قال لى يحيى ، وصرنا   بين موج كالجبال
وتولتنا رياح   من دبور وشمال

شقت القلعين وانبتت　　عرى تلك الحبال
وتمطى ملك الموت　　إلينا عن حيال
فرأينا الموت رأى　　العين حالا بعد حال

وقدّم يحيي الغزال كتاب الأمير عبد الرحمن إلى قيصر بزنطية وفيه رد الأمير اللطيف على كل ما أشار اليه القيصر . فصداقته مقبولة ، وسخطه على العباسيين مشاطر فيه ، أما استرداد الملك بالمشرق فأمر مرغوب فيه لكن الأحوال لا تسمح به ، فإذا ما جهز الأسطول وقوى قام الأمير بواجبه نحو صديقه وسليل أصدقاء آبائه .

وسحر الغزال لب البلاط البزنطي . فقد كان ذلق اللسان ظريفا أنيس المعشر لطيفه ، فأعجب به الجميع وفى مقدمتهم القيصر . وخف حديث يحيي على قلبه فطلب منه أن ينادمه لكنه اعتذر بتحريم الخمر . وكان يوما جالسا عنده فدخلت الأمبراطورة ثيودورا وعليها زينتها فجعل الغزال لا يميل طرفه عنها وجعل الملك يحدّثه وهو لاه عن حديثه ، فأنكر ذلك عليه وسأله عن السبب فلم يكتمه بل ذكر له أن صورتها الحسنة ومنظرها الأنيق وطلعتها البهية شغلته عن حديث الملك . فأعجب هذا الكلام الملكين ، وخصته ثيودورا بعطفها وروى أنها أهدته بعضا من اللآلئ النادرة ليجهز بناته .

وعاد الغزال إلى قرطبة بعد رحلة دامت عدّة أشهر، وقد نجح فى توطيد العلاقات الودّية بين قرطبة و بزنطية وأوجد جوّا مشبعا بالثقة والعطف .

أما الوفادة الثانية فقد كانت فى زمن عبد الرحمن الناصر ، الذى يمثل ملكه العصر الذهبي فى الأندلس . فقد وفدت عليه فى السنة ٣٣٨ هجرية (٩٤٩ ميلادية) رسل قسطنطين ملك بزنطية . وأراد الناصر أن يظهر

للرسل أبهة ملكه وعظمة دولته فأمر أن يتلقوا أعظم تلق وأفخمه ، وأحسن قبول وأكرمه .

فلما وصلوا بجاية أخرج إلى لقائهم من يعتمد عليه لخدمة أسباب الطريق . فلما صاروا بأقرب المحلات من قرطبة خرج إلى لقائهم القواد فى العدد والعـدة والتعبئة فتلقوهم قائدا قائدا . ثم خرج الفتيان الكبيران . ثم أمر بهم الناصر فانزلوا بقصر يخص ولى العهد بعدوة قرطبة فى الربض .

ولعله داخل الناصر بعض الشىء من ناحيتهم ، ورابه مجيئهم وأمرهم وخشى أن يكونوا عيونا جاءوا يتعرفون عورات الملك ، فرأى أن يمنعوا من لقاء الخاصة والعامة جملة ، ومن ملابسة الناس طرا . ورتب لحجابتهم رجالا اختيروا من خاص الحراس .

وزين القصر الخلافى بأنواع الزينة ، فبسط عتاق ودرانك كرائم تغطى صحنه ، وظلل الديباج ورفيع الستور يظلل أبواب الدار وحناياها ، والسرير الخلافى يتوسط المجلس . فلما تمت الاستعدادات كلها انتقل الناصر من قصر الزهراء إلى قصر قرطبة لدخول وفود ملك بزنطية عليه . فعقد لهم يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول ، فى بهو المجلس الزاهر . وكانت الهيئة كاملة ، فقد جلس عن يمين الناصر ولى عهده ثم بقية أبنائه عن يمينه ويساره وحضر الوزراء على مراتبهم يمينا وشمالا ووقف الحجاب من أهل الخدمة وأبناء الوزراء والوكلاء .

وتقدم رسل ملك الروم ، وقد بهرهم ما رأوه وحيرهم ما أحاط بهم ، فدفعوا كتاب صاحب القسطنطينية ، وكان الكتاب فى رق مصبوغ لونا سماويا ، مكتوبا بالذهب بالخط الاغريق . وداخل الكتاب مدرجة

مصبوغة أيضا مكتوبة بفضة بخط إغريق فيها وصف هدية الملك . وعلى الكتاب طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل : على الوجه الواحد منه صورة المسيح وعلى الوجه الآخر صـورة الملك قسطنطين . أما الكتاب فكان داخل درج فضة منقوش وعليه صورة مصنوعة من الزجاج الملون البديع . والدرج نفسه كان موضوعا فى جعبة ملبسة بالديباج .

وكانت غاية قسطنطين من إرسال هذا الوفد التقرب من الناصر والحصول على وصف صادق لعظمة بلاط قرطبة لكثرة ما تحدث الناس عنه ، وقد نال ما أراد . فمما لا ريب فيه أن الوفد عاد إلى القسطنطينية وقد زود بكل ما طلب منه وعرف صدق ما نقله الرواة عن البلاط الأندلسى .

وكان الناصر قد أمر أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه أمام الوفـد ليذكروا جلالة مقعده وعظيم سلطانه ويصفوا ما تهيأ له من توطيـد الأمر فى دولتـه ، وكان قد عهد لولى العهـد باعداد ذلك . فرأى هذا أن يكون الأمر إلى أبى على القالى البغدادى ضيف الخليفة وأمير الكلام وبحر اللغة ، فلما دنا الوقت قام هذا وحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم بهت ووقف ساكتا مفكرا . فلما رأى ذلك منذر بن سعيد ، ولم يكن له من الأمر شىء عندها ؛ قام ووصل الافتتاح بكلام عجيب بهر السامعين ، جاء فيه (... ... وإنى أذكركم بأيام الله عندكم ، وتلافيـه لكم بخلافة أمير المؤمنين التى لمت شعثكم وأمنت سربكم ورفعت قـوتكم ... ... واستبدلتم بخلافته من الشـدة بالرخاء ... ... ألم تكن خلافته قفل الفتنة بعد انطلاقها من عقالها؟ ألم يتلاف صلاح الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها ؟ ... ... فلانت الأحوال بعد شـدتها ، وانكسرت شوكة الفتنة عند حدتها ... ... وفتح الله عليكم بخلافته

أبواب الخيرات ، وصارت وفـود الروم وافدة عليه وعليكم وآمال الأقصين والأدنين مستخدمة إليه واليكم ... ... فاحمـدوا الله أيها الناس على آلائه ، واسألوه المزيد من نعمائه فقـد أصبحتم فى خلافـة أمير المؤمنين ، أحسن الناس حالا وأنعمهم بالا وأعزهم قرارا، وأمنعهم دارا) .

بمثل هـذا الاحتفال المهيب استقبل الناصر وفد القسطنطينية ، وهو كما رأينا ، أفخـم من احتفال سلفه الأمير عبد الرحمن الأوسط . وقد كان هذا طبيعيا ، فزمن الناصر أفخم جاها ، وأكثر ثروة وانضج حضارة ، من أى زمن آخر فى تاريخ الأندلس العربية .

وسرح الناصر الوفـد بمثل الحفاوة التى استقبل بها ، ورافقـه حجاب الخليفة حتى خرج من بلاده .

والذى نستطيع أن نتبينه من دراسة هذه السفارات وغيرها أن الاتصال الدبلوماسى الذى يلجأ اليـه أهل العصور الحديثـة لحل بعض مشاكلهـم وعرض وجهات نظرهم فى المسائل المعلقة بين الدول ، كان معروفا فى تلك العصور البعيـدة . وقد ساهم أجدادنا فيه ، مثلما فعـلوا فى نواحى التطوّر الأخرى ، السياسية منها والفكرية .

٣ — فى مجـالس الأنس

احتـل العرب الأندلس وعمـروها واختلطوا بأهلها ، فتأثروا بالبلاد ، واعتنى الملوك والخلفاء بثروة القطر فتيسر لهم من ذلك ما تحتاجه حياة الترف والبذخ . فنشأت فى ديار الأندلس العربيـة حضارة قوامها العلم الأصيل والأدب الراقى والحياة المدنية الرفيعة .

وقد تجلت هـذه النواحى كلها فى مجالس الأنس التى كان أهل البـلاد يعقدونها و يروحون بهـا عن نفوسهم، ولم تقتصر هـذه المجالس على جماعة دون أخرى ، بل شملت طبقات الشعب كلها ، ولم تكن مجالس اللهو تعتبر سبة يتجنبها النابهون وأولو الشأن فى الأندلس . فمجالس الغناء غصت بهـا المحافل وشغلت الشـعراء فى أوقاتهم الكثيرة ، وفتحت على المتأدبين أبوابا من التفنن الشعرى لم تكن معروفة قبـلا حتى عزا بعض المشتغلين بتـاريخ الأدب نشوء الموشحات إلى هـذه المجالس . واشترك حتى فى الغناء كثير من كبار القوم مثل عبد الوهاب بن حسين الحاجب .

وقد كان أثر المرأة فى حياة الأندلس الأدبية والفنية كبيرا . فالشواعر والراقصات والمغنيات كن زينة هـذه المجالس ، فقـد كان يؤتى بهنّ من أصقاع العالم المختلفـة . ومقام المرأة كان محترما . ومن ثم كان أثرها الكبير فى تنشـئة الذوق الفنى فى الأدباء والشعراء ، فاحترموها وأشادوا بذكرها ، فقد كان لعبد الرحمن الناصر جارية حسنة الخط راو ية للشعر حافظة للأخبار عالمة بضروب الأدب . ومثلها جارية المعتمد فقد كانت لها معرفة واسعة باللغة والشعر حتى عدّت بين علمـاء أشبيلية . ومن كبيرات المغنيات فضل المدنية وقمر البغدادية .

والحياة الأدبيـة الأندلسية بجدّها وهزلها ، والحياة العقليـة بعمقها ، والحياة الاجتماعية بآدابها وقيودها — كل أولئك كانت تظهر بأجلى مظاهرها فى هـذه المجالس . وأ كثر ما يعبر عنهـا بالشعر الذى كان فى الأندلس غنـاء الراقص وزاجر النفوس . وسـلوة عن الفقر ، ومعـزة لمن يحب أن يفخـر به .

فهذا عبد الوهاب بن حسين الحاجب يصفه لنا صاحب نفح الطيب بقوله "كان واحد عصره فى الغناء الرائق والأدب الرائع والشعر الرقيق واللفظ الأنيق ورقة الطبع وإصابة النادر والتشبيه المصيب والبديهة التى لا يلحق فيها . وكان أعلم الناس بضرب العود وصنعة اللحون" و يحدثنا المؤلف نفسه بأنه كان إذا لم يزره أحد من إخوانه أحضر مائدته عشرة من أهل بيته ، بينهم ولده وكلهم يغنى فيجيد الغناء . فلا يزالون يغنون بين يديه حتى يطرب فيدعو بالعود ويغنى لنفسه . وكان له زامر من حذاق زمرة المشرق . وإذا هبط عليه زائر أكرمه وجدد له كرامته كل يوم حتى يأخذ منه ما معه من صوت مطرب أو حكاية لطيفة . روى أنه زاره يوما ضيف فأمر بإدخاله فإذا رجل أسمر رث الهيئة فسلم عليه فقال أين بلد الرجال قال البصرة فرحب به وأمره بالجلوس فجلس مع الغلمان فى صفه وأتى بطعام فأكل وسق أقداحا ودار الغناء فى المجلس حتى انتهى إلى آخرهم . فلما سكتوا اندفع يغنى بصوت ندى وطبع حسن :

ألا يا دار ما الهجر … لسكانك من شانى
سقيت الغيث من دار … وإن هيجت أشجانى
ولوا شئت لما استسـ … ـقيت غيثا غير أجفانى
بنفسى حل أهلوك … وإن بانوا بسلوانى
وما الدهر بمأمون … على تشتيت خلان

فطرب عبد الوهاب وصاح وتبين الحذق فى إشارته والطيب فى طبعه فقال يا غلام خذ بيده إلى الحمام وعجل على به . فأدخل الحمام ونظف ثم دعا له بخلعة من ثيابه فألقيت عليه ، ورفعه فأجلسه عن يساره وأقبل عليه فغنى له ثلاثا ثم وصله وأحسن إليه .

وكان من شعراء الأندلس المجيدين أبو عامر بن شهيد فحضر ليلة عند المظفر بقرطبة ، فقامت على سقايتهم وصيفة عجيبة صغيرة الخلق . ولم تزل تسهر على خدمتهم إلى أن هم جند الليل بالانهزام ؛ وكانت تسمى أسماء ، فعجب الحاضرون من مكابدتها السهر طول ليلتها فسأل المظفر أبا عامر أن يصفها فصنع ارتجالا :

أفدى أسماء من نديم ملازم للكؤوس راتب
قد عجبوا فى السهاد منها وهى لعمرى من العجائب
قالوا تجافى الرقاد عنها فقلت لا ترقد الكواكب

وكانت تدور فى مجالس الأنس هذه مناظرات ومساجلات بين الشعراء فقد روى أن ابن العريف دخل على المنصور وعنده صاعد البغدادى فأنشده ، وهو بالموضع المعروف بالعامرية :

فالعامرية تزهى على جميع المبانى
وأنت فيها كسيف قد حل فى غمدان

فقام صاعد وكان مناقضا له فقال أسعد الله المنصور ومكن سلطانه . هذا الشعر الذى قاله قد أعده وأنا أقول أحسن منه ارتجالا . فأذن له المنصور فقال :

يا أيها الحاجب المسـ ـتعلى على كيوان
ومن به قد تناهى فخار كل يمانى
العامرية أضحت كجنة الرضوان
فريدة — لفريد ما بين أهل الزمان

إلى أن قال :

انظـر إلى النهر فيها ينساب كالثعبان

والطـير يخطب شكرا عـلى ذرى الأغصان

والقضب تلتف سكرا بمَيْس القضبان

والروض يفتر زهـوا عن مبسم الأقحوان

والنرجس الغض يرنـو بوجنـة النعمان

فدم مدى الدهر فيها فى غبطـة وأمان

وهذه ولادة بنت المستكفى بالله كانت ماجنة ، بارعة فى الجمال، أديبة شاعرة ذات مكانة رفيعة بين الأدباء . فقـد كانت مجالسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر وفناؤها ملعبا لجياد النظم والنـثر ، فكان الشـعراء والكتّاب يتهالكون على حلاوة عشرتها فكانت تفاضلهم وتساجلهم ، وكانت لها صنعة الغنـاء ، وكان ابن زيدون ممن نال رضاها ووقـع من نفسها كما وقعت من نفسه، وفيها قال بعد جلسة معها .

ودع الصـبر محب ودعـك حافظ من سره ما استودعك

يقـرع السنّ على أن لم يكن زاد فى تلك الخطى إذ شيعك

يا أخا البـدر سـناء وسـنى حفـظ الله زمانا أطلعـك

إن يطل بعـدك ليـلى فلكم بت أشكو قصر الليل معـك

وابن خفاجة الأندلسى حضر مجلسا كان الساقى فيه رجلا أسود أحدب فقال يصف المجلس والساقى :

رب ابن ليـل سـقانا والشمس تطلـع غره

فظــل يسـود لونا والكأس تسطع نحمره

كأنه كيس فحم   قد أوقدت فيه جمره
وللمدام مدير   يشب جمرة خمره
تضاحكت عن حباب   يقبل الماء ثغره
فظلت آخذ ياقو   ته وأصرف دره
حتى ثنيت غصنا   واصفرت الشمس نقره
وارتد للشمس طرف   به من السقم فتره
يحول للغيم كحل   فيه وللقطرِ عبره

ومن حكاياتِ أهلِ الأندلس فى الطربِ والظرفِ ما يروونه عن أبى بكر ابن عمار وابنِ زيدون وابنِ خلدون أنهم خرجوا من أشبيلية إلى منظرة لبنى عباد تحف بها مروج مشرقة الأنوار مبتسمة عن تعقد النوار . وكان الزمان ربيعا ، فالأرض سقتها السحب ، فتجلت فى أبهى ملابسها وأجمل حليها ، وقد نووا الانفراد للهوِ والتنزهِ فى الروضِ والتذاكرِ فى الأدب وسماع الغناء ، وبعثوا صاحبا لهم اسمه خليفة ليأتيهم بشرابٍ . فلما رأوه مقبلا بادروا إلى لقائه واتفق أن فارسا من الجند ركض فرسه فصدمه ووطئ عليه فهشم عظامه وكسر قِمعال النبيذ وتوارى عنهم . فتأسفوا على ما حدث وقال ابن زيدون :

أنلهو والحتوف بنا مطيفة   وتأمن والمنون لنا مخيفة

فقال ابن خلدون :

وفى اليوم وما أدراك يوم   مضى قِمعا لنا ومضى خليفه

فقال ابن عمار :

هما فخارتا راح وروح   تكسرتا فأشقاف وجيفة

ولعل قصة زريابِ المغنى وما لقيه من الحفاوةِ فى البلاطِ الأندلسى خير ما يدلنا على عناية العربِ هناك بالأنسِ الراقى والغناءِ الأنيق .

وزرياب كان تلميذ إسحق الموصلى ببغداد ، فتلقف أغانيه وهدى من فهم الصناعة وصدق العقل مع طيب الصوت ما فاق به معلمه وهذا لا يشعر بذلك . وجرى يوما لهرون الرشيد حديث مع إسحق اقترح فيه الخليفة عليه أن يأتيه بمغنٍ جديد . فذكر له تلميذه زرياب فأمر بإحضاره ، فلما جيء به حدثه الرشيد فأعجب بحديثه ثم سأله عن الغناء فقال له إنه يجيد من الغناء ما لا يصلح إلا للرشيد ، واستأذن فى الغناء فدعا الرشيد بعود أستاذه إسحق فوقف زرياب عن تناوله واستأذن الرشيد فى أن يدخل عوده الخاص به . فلما أدخل لم يجد الرشيد فرقا بين العودين فسأله عن السبب فى امتناعه عن عود أستاذه ، فقال زرياب : إن كان مولاى يرغب فى غناء أستاذى غنيته بعوده ، وإن كان يرغب فى غنائى فلا بد لى من عودى ثم بين للرشيد فضل عوده من حيث صنعته وجودة أوتاره فاستبرع وصفه وأمره بالغناء . فجس عوده ثم اندفع وغناه ، فطار الرشيد طربا . ثم أمر إسحق بالعناية بشأنه حتى يفرغ الخليفة له .

وانصرف الأستاذ والتلميذ من عند الرشيد ، وقد غلب إسحق على أمره ، فلما انفرد بزرياب قال له : إن الحسد أقدم الأدواء ، والدنيا فتانة ، والشركة فى الصناعة عداوة ... وعن قليل تسقط منزلتى وترتق أنت فوق وهذا ما لا أصاحبك عليه ولو أنك ولدى . فتخير فى اثنتين إما أن تذهب عنى فى الأرض العريضة لا أسمع لك خبرا ، وإما أن تقيم على كرهى ورغمى مستهدفا إلى فلست والله أبقى عليك ، فخرج زرياب واختار الفرار ، فأعانه إسحق على ذلك وراش جناحه فرحل عنه ومضى به بعد مغرب الشمس ، ولما تذكره الرشيد بعد فراغه من شغله وطلبه قال له إسحق " ومن لى به يا أمير المؤمنين

ذاك غلام مجنون يزعم أن الجنّ تكلمه وتطارحه، وقد رحل لما استبطأ جائزة أمير المؤمنين " . " أما زرياب فمضى إلى المغرب وسمت به همته فكتب إلى أمير الأندلس الحكم يعلمه مكانه من الصناعة التى ينتحلها و يسأله الاذن فى الوصولِ إليه فسر الحكم بكتابه ، وأظهر له من الرغبة فيه والتطلع إليه و إجمالِ الموعد ما تمناه . فسار زرياب نحوه وركب البحر إلى الجزيرةِ الخضراء، وهناك توالت عليه الأخبار بوفاةِ الحكم فهم بالرجوع إلى أفريقيا لكن المنصور المغنى ، رسول الحكم إليه ، ثناه عن ذلك ورغبه فى قصدِ عبد الرحمن الأوسط والدِ الحكم . وكتب إليه بخبر زرياب بجاءه كتاب عبدِ الرحمن يذكر تطلعه إليه والسرور بقدومِه عليه ، و كتب إلى عماله على البلاد أن يحسنوا إليه وأن يوصلوه إلى قرطبة، وأمر خصيا من أكابر خصيانه أن يتلقاه ببغالٍ وآلاتٍ حسنةٍ فدخل هو وأهله البلد ليلا صيانة للحرم. وأنزله فى دارٍ من أحسن الدور وحملِ إليها جميع ما يحتاج إليه وخلع عليه . و بعد ثلاثة أيام استدعاه وكتب له فى كل شهر بمائتى دينار (أى قرابة مائة جنيه) راتبا وأن يجرى على بنيه الأربعةِ عشرون دينارا لكلِ واحدٍ منهم كل شهر ، وأن يجرى على زريابٍ من المصروف العام ثلاثة آلاف دينار كل عام فى العيدين والموسمين، وقطعة من الدورِ والمستغلات بقرطبة و بساتينِها ومن الضياع ما يقوم بأربعين ألف دينار . فلما قضى له سؤاله وأنجز موعوده وعلم أن قد أرضاه وملك نفسه استدعاه فبدأ بمجالستِه وسماع غنائه فما هو الا أن سمعه فاستهوله واطرح كل غناء سواه وأحبه حبا شديدا وقدّمه على جميع المغنين .

ولما خلا به ذاكره فى أحوال الملوك وسير الخلفاء ونوادر العلماء، فحرّك منه بحرا زخر عليه مدّه، فأعجب الأمير به وراقه وشرفه بالأكل معه . ثم فتح له بابا خاصا يستدعيه منه متى أراده .

وزرياب هذا إنما أعجب الأمير لا لإجادته الغناء فحسب ولكن لأنه كان يمثل ما يطلبه الأمير فى نديمـه فى مجالس أنسه . فقد كان يريد المغنى عالما بالأخبار عارفا بالشعر متذوقا له واسع المعرفة فى شئونِ العالم، وهكذا كان زرياب فهو فضلا عن حفظه عشرة آلاف قطعةٍ مغناةٍ وإجادته لها كان عالما بالنجوم وقسمةِ الأقاليم السبعة واختلاف طبائعها وأهويتها وتصنيف بلادها وسكانها وكان قد جمع إلى ذلك الاشتراك فى كثير من ضروب الظرف وفنونِ الأدب ولطف المعاشرة . فاذا أضفنا إلى ذلك أنه استحدث فى الموسيقى جديدا إذ أضاف وترا خامسا للعود واخترع مضراب العود من قوادمِ النسر، لم نستغرب سر احتفاءِ عبدِ الرحمن بمغنيه الجديد .

وقد كانت مجالس الأنس هذه سبل نشرِ الآراء الجديدة والأزياءِ الحديثة على الناس . فقد كان الحاضرون ينقلون ما يرون فيها وغيرهم يقلدهم . وقد بلغ إعجاب أهل الأندلس بزرياب أنهم قبلوا ما أدخله لهم فى الفنِ وآدابهِ وما سنه فى المجالسةِ والمنادمة ونقلوا عنه ما استحسنه من أطعمته وحلواه وما استعمله من آنية أو لباس وما اختطه من طرق لتعليم الغناء واختيار المطبوعين منهم .

والقصص التى تدور حول مجالس الأنس أكثر من أن يكفيها حديث. فنفح الطيب والإحاطة والذخيرة والمغرب والعقـد الفريد مليئـة بها . فمن رغب فى الزيادة فعليه بها .

٤ — صلات علمية بين الأندلس وأوروبا

فى أواسطِ القرنِ السابع للميلاد، أى قبل احتلال العرب للأندلس بنحو نصفِ قرن ، كان يعيش فى مدينةِ أشبيلية الاسبانيةِ عالم " أسبانى اسمـه ايزيدور . وقـد ألف إيزيدور هذا كتابا فى عشرين مجلدا سماه (الأصول)

جمع فيه خلاصة للمعرفة والعلم كما كان المتعلمون فى تلك الأحقابِ البعيدةِ يفهمون هذين الأمرين . ولم يلبث هذا الكتاب أن انتشر فى أسبانيا نفسِها ثم تخطى البرانيز إلى أوروبا ، فقبِله الناس ثم أصبح المرجع الرئيسى لكل من حدثته نفسه بطلبِ العلم . كان الكِتاب باللغةِ اللاتينية لغةِ العلم والدين فى تلك العصور، ولقد لقى هوى فى نفوسِ الأوروبيين لأنهم وجدوه يحوى كل نواحى المعرفة ، ولأنه كان مبوّبا كثير الجداول والخلاصات ، وفيه الأشياء الخارقة والأمور الغريبة . فوافق عصرا اعتمد أهله على ذاكرتهم فى تفهم شؤون الفكر . والمهم فى هذه المسئلة هو أن انتشار هذا الكتاب يدلنا على الدرجةِ التى انحطت إليها أوروبا الغربية بعد تحطم الامبراطورية الرومانية وغزواتِ البرابرة . وحتى فى القرنِ التاسع الميلادى كان كتاب ايزيدور مرجعا رئيسيا للمتعلمين فى أوروبا .

على أنه بالإضافةِ إلى هذا النوع مِن الكتب كان فى أوروبا نوع آخر من الدرسِ والبحث . ذلك هو درس الأمورِ الدينية والنصرانية ، وخاصة فى الأديرة . ويجدر بنا أن نذكر مدرسة القصر التى أنشأها شارلمان فى عاصمةِ ملكه لتعليم ابنائه وابناءِ الأمراء .

وبينما كانت أوروبا تتخبط فى هذا الظلام العلمى الحالك كانت ثمة نواحٍ فى العالم قد أشرق عليها نور الحضارة والمعرفة فأخذت تنبعث منها حركات علمية لم تلبث حتى أضاءت البقاع المجاورة لها تدريجا . ومن هذه الأماكنِ بغداد والقاهرة فى المشرق ومدن صقلية والأندلس فى المغرب .

ولسنا نريد فى هذا الحديثِ ، أن نعرِض للحضارةِ العربيةِ ونواحى الإجادةِ فيها ، كما أننا لا نرمى إلى بيانِ تأثيرها فى العالم ولكننا نريد أن نتحدث

عن هذه الصلاتِ العلمية التي كانت سبيلا لنقلِ ما كان عند عربِ الأندلس من معرفة إلى الأوروبيين .

ويجدر بنا أن نذكر باديء ذى بدء بضعة أمورٍ تسهل علينا تتبع هذه الصلات . وأول ما يترتب علينا الإشارة إليه ، هو أن أوروبا هذه التي كانت على ما ذكرنا عرتها هزة عنيفة فى القرن الحادى عشر نبهت ما فيها من عناصرِ النشاط وفتحت عيونها إلى النورِ المنبعثِ حولها ، فحاولت أن تستفيد من كلِ مكانٍ فيه للفائدةِ مجال . نشطت مدنها للتجارةِ وأديرتها وكنائسها للاصلاح وعلماؤها للدرس ورحالوها للاسفارِ وأمراؤها للحرب فى أسبانيا وفى الشرق فى الحملات الصليبية .

والأمر الثانى الذى يجب أن نذكره هو أن الأماراتِ الأسبانية التي لم يقضِ عليها العرب لما فتحوا الأندلس والتي جمعت جموعها فى القرنِ التاسع والعاشر ، أخذت تهاجم العرب وتحتل مدنهم تدريجيا . ولا شك فى أن احتلال طليطلة سنة ١٠٨٥ كان حادثا هاما فى حياةِ العربِ السياسيةِ فى الأندلس ، لكنه كان من جهة أخرى حادثا هاما فى تاريخ الحياةِ الاسبانيةِ لأنه كان مدعاة للاحتكاك المباشر بالعلماءِ العرب والمتعربين .

وثالث ما يجب أن نشير إليه هو أن الاتصال العلمى والمدنى بين أوروبا ومراكز الحضارةِ العربيةِ لم تستقل به الأندلس بل كان فى سوريا وكان فى صقلية أيضا ولكن اتصال أوروبا بالحضارةِ العربيةِ فى المشرق تناول النواحى المادية للمدنية كالبناء والزراعة والتجارة ، وأغفل فيه نِتاج العقلِ البحت . فإن الجيوش الزاحفة ومن رافقها لم تعن بالناحيةِ الفكريةِ عناية تتفق والدور الذى شغلته الحملات الصليبية فى التاريخ العسكرى والاقتصادى

والديني . وليس أدل على هذا الذى ذهبنا إليه من أنه لم يكن بين المشتغلين بترجمة الكتب العربية العلمية فى سوريا سوى اثنين فى هذه الفترة الطويلة : أولهما اسطفان البيزى الذى عاش فى أوائل القرن الثانى عشر، وثانيهما فيليب الطرابلسى الذى جاء بعده بقرن تقريبا .

أما صقلية والأندلس فقد كان الاتصال فيها شاملا للنواحى المختلفة العقلية والمادية والأدبية والفنية كلها . والظاهرة الطريفة فى هذا الاتصال أنه كان فى اتجاه واحد — فقد أخذ الغرب عن العرب علومهم وآدابهم، سواء فى ذلك ما أنتجوه بأنفسهم، وما نقلوه عن اليونان . والذى يجدر بنا ذكره هو أنه قد عمل فى ترجمة الكتب العربية إلى اللغة اللاتينية وغيرها من لغات أوروبا قرابة ثلثمائة مترجم، عاش كثيرون منهم فى أسبانيا .

أما المراكز التى عنيت بنقل آثار العرب العلمية إلى الغرب فقد انتشرت فى المدن الاسبانية مثل أشبيلية و برشلونه وتراغوثه وسراغوسه ، وفى مدن فرنسا مثل طولوز ومرسيليا ونربون ومونبليه إذ تقدمت الدراسات الطبية فى هذه المدينة الأخيرة تحت تأثير الأطباء العرب المباشر وغير المباشر، وفى مدن إيطاليا فى سلرنو و بولونيا .

ولم تقتصر الترجمة على فرع من فروع المعرفة دون آخر، بل تناولت كل النواحى فقد نقلت كتب الرياضيات والفلك والتنجيم والموسيق والطب والطبيعة والكيمياء والجغرافيا والتاريخ الطبيعى . لكن الكتب التى نالت عناية خاصة كانت كتب الفلسفة . ذلك لأن اتجاه التفكير الأوروبى فى تلك العصور كان أساسه معالجة المشاكل الدينية والفلسفية فنقلوا ما يساعدهم على فهم هذه المسائل وتوضيحها من كتب الفلسفة والمنطق .

ومن أغرب ما وصل إلينا من الاتصال العلمى والتعاون فى سبيل الترجمة خبر المدرسة التى أنشأها ألفونسو الحكيم فى طليطلة فى القرن الثالث عشر للميلاد . كان ألفونسو هـذا يقدّر الثقافة العربية حق قدرها ويدرك قيمتها للتعلمين فى أنحاء مملكته ، فقتح فى عاصمة ملكه مدرسـة جعل على رأسها أبا بكر الريقوتى العالم العربى المسلم . وكان تلاميذ الريقوتى الاسبانيون يتلقون على يديه علوم العـرب باللغة العربيـة . فمتى تم لهم حذق مادة العلم ولغته نقلوا الكتّاب إلى اللغة الأسبانية أو اللاتينية . فكانت هـذه المدرسة دارا للعـلم والترجمة فذاع صيتها وأمها طلاب العلم من مختلف أنحاء أسبانيا النصرانية وأوروبا .

وقبل أن ننتقل إلى تعداد نماذج من التراجم التى تمت فى تلك العصور النائية ، نريد أن نشير إلى مدى تأثر الأسبان باللغة العربيـة وآدابها ، حتى قبل الوقت الذى أشرنا إليـه قبلا . فقد نقل دوزى المستشرق الهولاندى ، بهذه المناسبة أن أهل أسبانيا هجروا اللاتينية واشتغلوا باللغة العربية وآدابها حتى شكا أحد أساقفتهم من انصراف قومه إلى قراءة الشعر والقصص العربية ودراسة المسائل الدينية والفلسفة باللغة العربية حتى أن قراءة الكتب المقدّسة باللغـة اللاتينية أهملت بالمرة ، وأشار العـالم نفسه إلى أن كثيرين من الأسبانيين كانوا يجيدون الكتابة بالعربيـة مع أنه قـد لا يوجد واحد فى الألف يستطيع أن يكتب كتابا باللاتينية. وقد رأى أحد قسوس أشبيلية أن يعالج الأمر بالحكمة فنقل أسفار الكتّاب المقدّس إلى اللغة العربية ليتمكن نصارى الأندلس من قراءة كتبهم الدينيـة . وحتى بعـد أن احتل الأسبان طليطلة ظلت قراءة الكتب الدينية باللغة العربيـة أمرا مألوفا . وعلى هذا فليس من المستغرب أن نجد فى طايطلة مدرسة الريقوتى التى أشرنا إليها .

كان قسطنطين الأفريقي من أهل القرن الحادى عشر أول من نقل إلى اللاتينية الطب العربي . وقسطنطين هـذا ولد فى قرطاجنة، والتحق بكلية الطب فى سلرنو وعمل على نقل كتاب الملكى الطبي ، وأتمـه تلميذه يوحنا الشرق . ثم عمل جرارد الكريمونى على نقـل كتاب التصريف للزهراوى ، والمنصورى للرازى، والقانون للرئيس ابن سينا . ثم نقل فرج بن سالم الصقلى كتاب الحاوى للرازى وتقويم الأبدان لابن جزلة . وهكذا نقلت البذور الرئيسـية للطب العـربى إلى أوروبا ، وانتقلت معهـا التعابير الطبيـة والاصطلاحات الكيماوية العربيـة مثل الجلاب والرب والشراب والصودا والكحول والأنبيق والقلى والأثمد والتوتيا .

وفى طليطلة ، حتى قبل أيام الريقونى، كان الأسقف ريموند قـد بدأ بنقل بعض الكتب العربية ثم تبعه غيره من الذين جذبتهم المدنية العربية إليها . وقـد كان بينهـم من علماء الانكليز روبرت تشستر، الذى ترجم كتاب الجبر للخوارزمى ثم عمل مع هرمن على نقل معانى القـرآن الكريم إلى اللاتينية . وعقب ذلك إنشاء مدرسة للعلوم الشرقية فى طليطلة .

ولا يجـوز لمن يتناول أمر الاتصال العلمى هـذا أن يغفل أمر أدلارد الانكليزى . كان أصـله من باث فى انكلترا وقد ساح فى سـوريا وصقلية وزار أسبانيا فى أوائل القرن الثانى عشر . وادلارد هو الذى ترجم الجداول الفلكية للجريطى أثناء إقامته فى أسبانيا .

وممن وفد على طليطلة ميخائيل الايقوسى وهناك عنى بنقل ابن رشد إلى اللاتينية كما نقل كتاب الهيأة للبطروجى وكتاب الكون والفساد لأرسطو مع شروح ابن رشـد . ولمـا انتقل ميخائيل إلى صقلية تابع عمله فى الترجمـة

تحت رعاية فردرك الثانى ملك صقلية ، فتم هناك على يديه ترجمة كتاب ابن سينا المبنى على كتاب الحيوان لأرسطو .

وقد أشرنا قبلا إلى ما نقله جيرار الكريمونى من كتب طبية ، لكن ترجمته شملت ، فضلا عن ذلك المجسطى لبطليموس وشرح الفارابى لأرسطو وكتاب المبادئ فى الهندسة لاقليدس . وقد بلغت الكتب التى ترجمها جيرار واحدا وسبعين كتابا .

ونود أن نذكر القارئ الكريم بأن هذه الترجمات التى أوردناها إنما هى نماذج ، وما كان لنا فى هذه الصفحات المعدودة ، أن نفعل أكثر من هذا .

وجدير بنا أن نشير إلى هذه الاتصالات العلمية فى أوروبا . وقد لخص رنان الفرنسى ذلك بقوله (ان نقل المؤلفات العربية إلى أوروبا غير الاتجاه الفكرى فيها . فبعد أن كانت أوروبا تعتمد على خلاصات مبوبة وبقايا جزئية مما خلفته المدنية الرومانية من أمثال كتب أزيدورو بيد ، أصبحت أوروبا وقد عاد إليها العلم بعد أن هذبته شروح المؤلفين العرب وإضافاتهم .

على أن الاتصال العلمى لم يقتصر على عصر السيادة العربية بل تعدّاها إلى أوائل العصر الحديث وحتى فى أسبانيا التى اشتدّت فى مقاومة الأثر العربى فيها حينا من الدهر . ومما يوضح لنا هذه الناحية حكاية مكتبة الأسكوريال . فقد اهتم فيليب الثانى فى القرن السادس عشر للميلاد وبعض خلفائه فى جمع ما تبقى من الكتب العربية القيمة فتجمع لديهم قرابة ألفى مجلد فجعلوها فى دير الأسكوريال بالقرب من مدريد . وفى القرن السابع عشر أضيف إليها نحو أربعة آلاف مجلد أخرى . وحكاية هذه أن الشريف زيدان ، سلطان مراكش ، هرب من عاصمته وحمل معه مكتبته العربية الثمينة ، لكن

ربان السفينة أبى أن يسلمه الكتب لأنه لم يدفع له الأجر . وفيما كانت السفينة فى طريقها إلى مرسيليا أحاط بها القراصنة الأسبان ونهبوها وأهدوا الكتب للملك فأمر هذا بأن تضاف هذه إلى مكتبة الأسكوريال . وبذلك أصبحت هذه المكتبة غنية جدا بالمخطوطات، ومركزا رئيسيا لدرس تراث العرب الفكرى فى الأندلس .

٥ — صلات أدبية بين الأندلس والمشرق

لما كان العالم العربى وحدة سياسية ، كان من اليسير على الناس أن يرحلوا فيه ويتنقلوا دون أن تعترضهم صعوبة ما . ولما توزعته دول رئيسية ثلاث العباسية فى المشرق والأموية فى المغرب والفاطمية فيما بينهما ، كانت قد احتفظت أنحاء العالم العربى باللغة العربية وبالاسلام . وهذان يسرا للناس أن يستمروا على ما كانوا قد اعتادوه من الرحلة والسفر . بل أن انتقالهم فى هذه العصور ازداد عما كان قبلا . وكان الحج وطلب العلم والتجارة الدوافع الرئيسية للتنقل . على أننا يجب أن نضيف إلى ذلك الوفود الرسمية التى كانت تحمل رسالاتٍ من ملوكِ الشرقِ إلى الغرب وبالعكس . فهذا التميمى يرحل من المشرق إلى المغربِ يحمل رسالة من الخليفة العباسى القائمِ بأمرِ الله إلى ابنِ باديس، ومثله الموصلى الذى وفد على الأندلس رسولا لملك مصر . على أننا عند ما نتحدّث عن بواعثِ السفرِ والتنقلِ يجب أن نشير إلى أن كثيرين من أهلِ المشرقِ رحلوا إلى الأندلس لينالوا حظوة فى عيون ملوكه وامرائه ، لما بلغهم من أخبارِ البذخ والترفِ واكرام فى البلاط الأندلسىِ . وأكثرهم لم يخب ظنهم، وفى مقدّمةِ أولئك عدد كبير من المغنينِ والمغنياتِ والشعراءِ والأدباءِ كزرياب وقمرِ والقالى وصاعد البغدادى .

وقد حفظت لنا كتب الأدبِ والتاريخ أسماء مئاتٍ من رجالِ العلم والدينِ والأدبِ رحلوا من المغربِ إلى المشرق فى طلبِ العلم والتفقه. وهذا نفح الطيب يشغل ذكر هؤلاء العلماءِ نحو ثلثه. ونحن إذا قلبنا صفحاته ووقفنا أمام بعض المترجم لهم فيه، استطعنا أن نتبين أمورا كثيرة فيها متعة فكرية ولذة عقلية وفوائد تاريخية وطرائف أدبية. فما نقع عليه هناك أن الرجال الذين كانوا يرحلون إلى مراكز العلم الشرقية كانوا يسمعون التفسير والحديث والفقه فى القاهرة والأسكندرية ومكة ودمشق و بيت المقدس و بغداد. وكان المألوف أن يقيم هؤلاءِ العلماء فى أربطةٍ خاصة بهم، ورباط أبى سعيد ببغداد كان فى مقدمتها، وكان بجوارِ المدرسه النظامية التى كانت دار علمٍ ودرس. وفى بيت المقدس نجد أنهم كانوا يسمعون فى المسجد الأقصى. هذا فضلا عن عددٍ كبيرٍ من المدارس كان منتشرا فى مدنِ الشرق.

وقد تولى كثير من المغاربة مناصب رفيعة فى الشرق كالقضاء وغيره. فهذا ابن مالك صاحب الألفية يتصدر بحماة وهذا ابن خلدون يتولى القضاء بمصر، وغيرهما كثير.

وقد لفتت أنظار الأندلسين الراحلين إلى الشرق شؤون كثيرة تركوا لها ذكرا فى نثرهم وشعرِهم. فإن القاضى ابن العربى، من أهل القرن الخامس للهجرة (الحادى عشر للميلاد) حكى أنه دخل بدمشق بيوت بعض الأكابر فرأى فيه النهر جاريا إلى موضع جلوسهم، ثم يعود من ناحية أخرى. فاستغرب ذلك ولم يفهم له معنى، حتى جاءت موائد الطعام فى النهر المقبل إليهم فأخذها الخدم ووضعوها بين أيديهم، فلما فرغوا منها ألقى الخدم الأوانى وما معها فى النهر الراجع فذهب بها الماء إلى ناحية الحريم من غير أن يقرب الخدم تلك الناحية، فعلم عندها السر.

وابن العربي هـذا رحل الى بغداد حيث قرأ على الامام الغزالى وسمع له فى المدرسة النظامية . أما فى بيت المقدس فقد تذاكر مع الطرطوشى فى المسجد الأقصى .

وابن سعيد يهبط مصر ويترك لأحوالها الاجتماعية وصفا طريفا ، ويؤثر فيه منظر النيل بعد الفيضان فيقول فيه :

نزلنا من الفسطاط أحسن منزل   بحيث امتداد النيل قد دار كالعقد
وقد جمعت فيه المراكب سحرة   كسرب قطا أضحى يرف على ورد
وأصبح يطفو الموج فيه ويرتمى   ويطرب أحيانا ويلعب بالنرد
حلا ماؤه كالريق ممن أحبه   فمدت عليه حلة من حلى الخد
وقد كان مثل النهر من قبل مده   فأصبح لما زاده المد كالورد

وقد وفد ابن سعيد هـذا على الناصر صاحب حلب فأنشده قصيدة أولها :

جد لى بما لقى الخيال من الكرى   لا بد للضيف الملم من القرى

فاستجلبه السلطان وسأله عن بلاده فروى له ابن سعيد ما حمله على الاعجاب به ثم أن السلطان قال له إنه اختار له اسم البلبل لحسن صوته وايراده للشعر الجميل ، وكانت من عادة شعراء بلاط الناصر أن يلقبوا بأسماء الطيور ، فرضى ابن سعيد شاكرا . ثم قال له السلطان يداعبه اختر يا هذا واحدة من ثلاث : فأما الضيافة التى ذكرتها فى أول شعرك ، وأما جائزة القصيد ، وأما حق الاسم ، فقال ابن سعيد يا خوند المملوك مما لا يختنق بعشر لقم لأنه مغربى أكول فكيف بثلاث ! فطرب السلطان وقال هـذا المغربى ظريف ثم اتبعه من الخلع والدنانير والتواقيع بالأرزاق ما لا يوصف . ولقى بحضرته جماعة من العلماء فتناظروا وتباحثوا وتبادلوا الفوائد . وأعانه السلطان على الوصول إلى خزائن العلم فى مملكته .

وممن لقى بالمشرق حفاوة كبيرة ابن مالك صاحب الألفية . وقد ذكرنا قبلا خبر تصدّره بحماة . وقد تتلمذ عليه الشيخ النووى القاضى المشهور وغيره وابن مالك كان كثير المطالعة سريع المراجعة لا يكتب شيئا من محفوظه حتى يراجعه فى محله ، وهذه حالة المشايخ الثقات والعلماء الإثبات ، ولا يرى إلا وهو يصلى أو يصنف أو يقرئ . وقد كان إمام المدرسة العادلية بدمشق وكان إذا صلى فيها شيعه قاضى القضاة ابن خلكان إلى بيته تعظيما له :

وقد اشمأز العبدرى المغربى من التفتيش الدقيق الذى اجتازه هو وجماعته على أيدى موظفى جمرك الأسكندرية لما زارها فى أواخر القرن السابع للهجرة فقال يصف ذلك . ومن الأمر المستغرب أنهم يعترضون الحجاج ويجرعونهم من بحر الإهانة الملح الأجاج ، ويأخذون على وفدهم الطرق والفجاج ، ويبحثون عما بايديهم من مال ويأمرون بتفتيش النساء والرجال فانه لما وصل اليها الركب ، يوم ورودنا عليهم ، جاءت شرذمة من الحرس فمدّوا فى الحجاج أيديهم وفتشوا الرجال والنساء وألزموهم أنواعا من المظالم ، واذا قوهم ألوانا من الهوان ثم استحلفوهم وراء ذلك كله .

وقد كان هؤلاء الناس تدركهم وهم بالمشرق وحشة فيشعرون بألم الغربة ويعبرون عنه تعبيرا رقيقا فياضا بالشعور . فمن ذلك قول أحدهم يقابل فيه المشرق بالمغرب :

هذه مصر فأين المغرب — مذ نأى عنى فعينى تسكب
فارقته النفس جهلا إنما — يعرف الشىء إذا ما يذهب
أين حمص أين أيامى بها — بعدها لم ألق شيئا يعجب
بلدة طابت ورب غافر — ليتنى ما زلت فيها أذنب

أين حسن النيل من نهر بها　　كل نغمات لديه تطرب
ملعب للهو مذ فارقته　　ما ثنانى نحو لهو ملعب
هذه حالى وأما حالتى　　فى ذرى مصر ففكر متعب
سوف أثنى راجعا لا غربى　　بعد ما جربت برق خلب

وقد أشرنا قبلا إلى بعض من رحل إلى الأندلس من أهل المشرق . فأما زرياب المغنى فقد عرضنا له فى حديث سابق ولذلك سندعه الآن وشأنه .
أما أبو على القالى فقد كان وحيد عصره معرفة فى اللغة والأدب ، وكتابه الأمالى هو ما أملاه على طلابه وتلامذته فى جامع قرطبة أو جامعتها ، فقد سمع من قبل بالموصل و بغداد، حيث أقام خمسا وعشرين سنة ثم خرج منها قاصدا الأندلس ودخلها فى أيام الناصر وصنف له ولولده الحكم وبث علومه هناك . وفى قرطبة اجتمع بابن القوطية أحد أئمة اللغة فى الأندلس وكان ابن القوطية على سعة علمه، من العباد النساك . وقد روى أن القالى توجه يوما الى ضيعة له بسفح جبل قرطبة فصادف ابن القوطية صادرا عن بقعة من بقاع الأرض الطيبة، فلما رآه عرج عليه فقال القالى مداعبا :

من أين قد جئت يامن لا شبيه له　　ومن هو الشمس والدنيا له فلك

فتبسم وأجاب بسرعة :

من منزل تعجب النساك خلوته　　وفيه ستر على الفتاك أن فتكوا

واذا كان عصر الناصر قد ازدهى بورود القالى من المشرق فان أيام المنصور الحاجب ابن عامر قد ازدهرت بقدوم صاعد البغدادى صاحب كتاب الفصوص وصاعد موصلى الأصل . وكان المنصور يأمل أن يكون محله فى بلاطه مثل محل القالى فى بلاط الناصر، لكن صاعدا لم يصل الى درجة سلفه . فمع أنه

كان واسع المعرفة فى الغريب من أمور اللغة وروايانها وآدابها ، فقد كان عريض الدعوى كثير الكذب فأعان مناوئيه على نفسه . ولعل هؤلاء المناوئين حسدوه على نعمته فأخذوا بملاحقته ومضايقته فعدّدوا عليه أنفاسه وهذا ضيق عليه الخناق . وقد كان من خصومه ابن العريف وفاتن غلام المنصور وأبو مروان الكاتب . وكثيرا ما بلغت الأمور بينهم حدّ المهاترة ووصلت إلى الأقذاع فى الهجاء . وقد كان المنصور الحاجب يحب صاعدا لكنه كان يرغب فى رؤية خصومه من أهل الأندلس متنصرين عليه . ومن ذلك أنه وقع صاعد مرة فى بركة فى مجلس المنصور وأخرج منها وقد كاد البرد أن يأتى عليه . فسأله المنصور إن كان قد حضره شىء فقال بيتا من الشعر استبرده أبو مروان وقال هلا قلت :

سرورى بغرتك المشرقة ... وديمة راحتك المغدقة
ثنانى نشوان حتى غرقت ... فى لجة البركة المطبقة
لئن ظل عبدك فيها الغريق ... فجودك من قبل قد أغرقه

فطرب المنصور لذلك وقال له " لله درك يا أبا مروان . قسناك بأهل بغداد ففضلتهم ، فبمن نقيسك بعد ؟ " .

وفى هذه القصة نلاحظ أمرين : الأوّل سرور المنصور بتفوّق الأندلسى على البغدادى ، والثانى المنزلة التى كانت لبغداد فى نفس الناس . فقد اعتبر المنصور نهاية الرفعة الأدبية أن يقابل أبو مروان بأهل بغداد فيفضلهم .

وقد عرض الأدباء الأندلسيون بصاعد كثيرا فاتهموه بسرقة الشعر وهدم معانيه القديمة ونحلها نفسه . وقد روى صاحب النفح كثيرا من ذلك فان ابن العريف سمع صاعدا يرتجل بيتين من الشعر فى حضرة المنصور

فاتهمه بالسرقة وخرج من ساعته الى صديق له شاعر نظم له قصيدة ضمنها البيتين ثم كتبها على رق مغبر بخط قديم وحملها الى المنصور ليثبت اختلاس صاعد .

ومع ذلك فقد أعجب الأندلسيون بظرف صاعد و بارع نكتته وجميل شعره فأحلوه صدور مجالسهم ، ووهبه المنصور مالا جزيلا وخلع عليه فقضى بقية حياته فى نعمة ورغد عيش .

من هذا العرض الموجز لبعض أخبار من تنقل بين أطراف العالم الاسلامى نستطيع أن نخلص الى أن التعاون الثقافى كان وثيقا بين مراكز الحضارة الاسلامية فى المشرق والمغرب ، وكانت بغداد ودمشق والقاهرة و بيت المقدس على اتصال بمراكش وقرطبة وأشبيلية وغرناطة . وأن هذا التعاون لم تؤثر فيه الخصومات السياسية أو توزع ثلاث قوى رئيسية للعالم الاسلامى . فلم يكن العالم البغدادى يعتبر نفسه غريبا فى قرطبة، أو الأندلسى غريبا فى الاسكندرية .

ولسنا نشك فى أن هذا التعاون الفكرى يرجع اليه الفضل فى أن الحضارة العربية كانت جمة النشاط تنبض بالحياة ، شاملة عامة . وهذا من عناصر الخلود فيها .

ونحن العرب الذين نرى أنفسنا على أبواب عصر جديد فى حياتنا السياسية والفكرية والروحية حرى بنا أن نتعرف إلى الوسائل التى اتبعها أسلافنا فى سبيل التعاون على أنواعه المختلفة لعلنا نستفيد منهم هديا ورشدا .

صفحات من تاريخ العرب

(١) عربى على عرش روما . (٢) مؤنة . (٣) معاوية يستقبل نساء العرب . (٤) العرب يبنون مدنية . (٥) حلم المأمون . (٦) ملك وخليفة . (٧) شاعر دمشق

١ — عربى على عرش روما

نحن فى القرن الثالث للميلاد ، وها نحن أولاء نستعرض رقعة واسعة من العالم المعروف آنئذ ، رقعة تتسع فتشمل حوض البحر المتوسط فى جهاته الأربع . وهذه الرقعة تخضع لسلطة سياسية واحدة هى الامبراطورية الرومانية .

كانت روما قد صرفت قرونا طويلة حتى ضمت كل هذه البلاد لسلطانها . فلما تم لها ذلك عنيت بتنظيم شؤونها وترتيب أمورها ، فبنت الطرق وأنشأت الحصون واهتمت بالتجارة وراقبت النقود . فنعم العالم الرومانى بسلم دام قرنين من الزمان . وبلغت الحضارة والرفاهية درجة لم يعرفها العالم قبل الرومان .

لكن العالم الرومانى كان متباعد الأطراف مختلف المناطق الطبيعية متباين الثقافات ، شرقه غير غربه ، وشماله غير جنوبه . فبينما يتحدث شرقه باليونانية كان غربه يتكلم اللاتينية ، وبينما كان شماله يتعرض لغزو قبائل الدانوب والراين ، كان جنوبه يتعرض لهجمات أهل الصحراء الكبرى . فكان لزاما على من يعتلى عرش روما أن يراعى هذه النواحى المختلفة . وكانت الحدود طويلة والخطر يهددها من الجهات العديدة ، فكان من الطبيعى أن ينصرف صاحب العرش إلى الجيش ينظمه ويقويه وينميه ويتعهده . ومن الطبيعى أيضا أن يشعر الجند بالمركز الذى يشغلونه ويحسوا بفضلهم على الامبراطورية ، وبذلك يتيهون دلا ويحاولون أن يقبضوا على زمام الأمور

و يسيروا المسائل وفق أهوائهم وطبق آرائهم . فاذا أنسوا من إمبراطور شدّة أو رغبة فى إخضاعهم أو إنصرافا عن مصلحتهم ، لم يمتنعوا عن خلعه أو قتله إذا كان ذلك فى إمكانهم .

وهذا ما حدث فى أوائل القرن الثالث للميلاد . كان هذا قد حدث قبل ذلك ، لكن الأمر لم يصبح عادة . أما فى القـرن الثالث فقد نظر الجيش إلى قائده الذى يعطف عليه و يتصل به مباشرة ، فاذا رضى عنه رفعه ولو مكرها إلى العرش وحمله ولو قسرا على لبس الأرجوان ، شعار الامبراطور . وهذا ما حدث لديسيوس ، فانه لم يطمع بالعرش ولم يرغب فيه ولكنه أجبر على اعتلائه ، وألبس الحلة الإمبراطورية رغم أنفه ، ولو لم يقبل لقتل .

فى هذا الجوّ المضطرب الحائر نشبت حروب متعدّدة بين الإمبراطورية و بين جيرانها وخاصة فى الشرق . فان الدولة الساسانية كانت حديثة عهد بالإحياء الذى تم سنة ٢٢٦ م . وكانت تطمع فى توسيع حدودها غربا على نحو ما كانت عليه الإمبراطورية الفرثية والإمبراطورية الفارسية من قبل . وقبائل الدانوب كانت تتحين الفرص بالإمبراطورية الرومانية فلا تلمح فترة انشغال أو حرب أو ثورة إلا وتهاجم الحدود لتغنم أو تفتح أو تنهب . فالحروب بين الساسانيين والرومان أتاحت لهذه القبائل الفرصة لتجديد غزواتها .

كان الإمبراطور الرومانى فيها لسنة ٢٤٠ م غورديان ، وقد وصل هذا إلى العرش بعد معارك دموية وحروب أهليـة أزهقت فيها أرواح الألوف من الناس . وإنمـا اختار أصحاب الشأن غـورديان لأنه كان فتى صـغيرا فيسهل ذلك لهم تسييره على الشكل الذى يريدون . ولكن غورديان قيض له الحظ معينا مخلصا أمينا فى شخص تيميزيتوس الذى كان رئيس الحـرس

البريتورى ، ومعنى ذلك أنه كان صاحب أكبر منصب فى الامبراطورية بعد الإمبراطور نفسه. وصرف الإثنان همهما نحو قبائل الدانوب وقوى الإمبراطورية الساسانية . فتغلبا على الأولى ثم اتجها إلى الشرق . ولقيت قواهما النصر فى سوريا . فقد أنقذت أنطاكية واستردّت نصيبين وكسر الجيش الساسانى فى رأس العين ، فى شمال الجزيرة . وصرف الإمبراطور وصاحبه بعض الوقت فى ترتيب البلاد التى استخلصاها من الساسانيين ثم هيئ الجيش للحملة ضدّ المدائن عاصمة الساسانيين ، للقضاء على الدولة . لكن التاريخ كان قد احتفظ باحتلال المدائن والقضاء على الدولة الساسانية لقوم أعز وأرفع ، فلم تتم رغبة غورديان . ذلك أن معينه تيميزيتوس توفى فى شتاء ٢٤٣ م .

ووقع اختيار غورديان على فيلبس العربى ليخلف تيميزيتوس، فأصبح رئيس الحرس البريتورى . وفيلبس هذا عربى من اللجاة، فى شرق سوريا. كان أبوه شيخا من شيوخ بلاده ، فنشأ فيلبس فارسا مغوارا شجاعا كريما . وبحكم ما كان بين عرب مشارف الشام والرومان من صلات ومعاهدات التحق فيلبس بالجيش الرومانى . وعرف رؤساؤه فيه مقدرته واكتسب بشجاعته وقوة شخصيته احترامهم فترقى بسرعة كبيرة . والظاهر أن فيلبس كان يجمع إلى الصفات الحربية والخلقية المتينة إحاطة تامة بالحياة الفكرية، وخاصة الفلسفية منها ، التى كانت تشغل بال المتعلمين فى ذلك الوقت . فلم يكن غريبا والحالة هذه أن يكسب فيلبس احترام رؤسائه ومرءوسيه . وكان طبيعيا أن يبلغ منصب المساعد لرئيس الحرس البريتورى. فلما مات الرئيس اختار غورديان فيلبس ليخلفه . وكان فيلبس آنئذ فى الخامسة والأربعين ، فى سنّ الطموح والقوة والنضج .

ولما ولى فيلبس الأمر تغيرت وجهة نظر الجند فى الإمبراطور ، فهو شاب بعد ، ولم يعرف عنه أنه برز فى عمل خاص ، وهذا صاحب جنده فارس كريم شجاع مفكر . فلماذا لا يحل الرجل المجرب المحبب مكان الشاب الغر ؟ هذا ما فكر به الجند . ووافق هذا رغبة فى نفس فيلبس الذى كان يرى نفسه أحق بالأمر من غورديان . ولم يكن فى تفكير ذلك العصر السياسى والخلق ما يمنع ذلك . ألم تكن هذه هى الطريقة التى سار عليها الأكثرية من الأباطرة للوصول إلى العرش ؟ ألم يكن الجند هو الذى يخلع ويجلس الإمبراطور ؟ ألم يصل غورديان نفسه إلى العرش بهذه الواسطة ؟ إذن فليجعل الجند فيلبس إمبراطورا .

وهذا ما حدث، ائتمر الجند بغورديان فخلعوه ونادوا بفيلبس إمبراطورا سنة ٢٢٤ وأبدى غورديان الكثير من الخوف والجزع ورجا الجند أن يبقوا عليه وليسمحوا له أن يكون تابعا لفيلبس يأتمر بأمره . ولكن منطق الجند فى ذلك العصر لم يكن يسمح بذلك . فالإمبراطور المخلوع لا يؤتمن ، وإذن فيجب أن يقتل . وتم ذلك فى شمالى العراق ، فى مكان يسميه المؤرخون زيتا ، يقع بين قرقيسيا والصالحية . كان الجند يحيطون بالإمبراطور السابق كأنهم يحرسونه خشية أن يهرب ، لكن نفرا منهم كانوا قليلى صبر اغتالوه فى غفلة من الحرس .

وقد اتهم بعض المؤرخين فيلبس بأنه هو الذى دبر قتل غورديان . وليس فى الوثائق التاريخية التى بين أيدينا ما يثبت ذلك . بل أن منطق الحوادث يكاد يثبت عكس ذلك . فان فيلبس كان من أتباع الفلسفة الرواقية التى لم يعرف عن تلاميذها مثل هذا ، ثم إن فيلبس لم يلجأ إلى

الاغتيال للتخلص من خصومه فيما بعد. وحتى لما ظهر له منافس على العرش لم يلجأ فيلبس إلى الحيلة فى قتله أو إلى اغتياله ، بل قاد جيشا لمحاربته مع أنه كان يعرف أن ثمة خطرا فى مواجهة خصمه ، وكانت النتيجة أن دارت الدائرة على فيلبس فقتل فى تلك المعركة. ولنضف إلى ذلك أن فيلبس احتفل بذكرى غورديان بعد عودته إلى روما وحمل المشيخة على تأليه الإمبراطور المتوفى.

نودى بفيلبس إمبراطورا والجيش بعد فى الشرق . ولم يكن يكفى أن يقبل جيشه به حتى تقبل به جنود الإمبراطورية . ولكن كان من حسن حظه أن جيشه كان أكبر الجيوش آنئذ وأكثرها نظاما وترتيبا ، ذلك لأنه كان مهيئا للقضاء على الإمبراطورية الساسانية . وكان فيلبس يعرف أن الحرب بين الرومان والساسانيين انتحار لا مبرر له ، فالرومان لا يستطيعون القضاء على تلك الدولة ولا يمكن أن يحتلوا من بلادها شيئا يستحق كل هذا الذى ينفق من المال والرجال . لذلك كان أول ما فعله هو عقد صلح مع سابور الأول الساسانى . وبحكم مواد هذا الصلح احتفظ الرومان بأرمينيا الصغرى، وهى حول أضنة ومرسين الحالية، وظلت لهم الجزيرة العراقية، أى الجزء الشمالى من العراق . ومثل هذا الصلح كان فى مصلحة روما بقدر ما كان فى صالح المدائن .

وبعد تنظيم شؤون الشرق عاد فيلبس إلى روما، عاصمة إمبراطوريته، ليدبرها من قبلها .

حكم فيلبس قرابة خمس سنوات . وكانت هذه المدّة، على قصرها ، على غاية من الأهمية فى أواسط القرن الثالث للميلاد فى تاريخ روما .

عاد فيلبس إلى روما بتاج بعد أن غادرها ضابطا كبيرا فقط . وانصرف عندها بكليته إلى مشاكل الإمبراطورية وواجباته نحوها يصرفها بما عنده من خبرة وحكمة واتزان. فكان أول ما فعله هو أن أعلن العفو العام عن جميع المنفيين والمسجونين لأمور سياسية أو بسبب وشايات أصحاب المراكز العليا والسلطان . ثم نظم طريقة الاستئناف إلى الإمبراطور ومجلسه . فبعد أن كانت كل الأحكام تستأنف إلى الإمبراطور شخصيا ، فصل فيلبس بين ما يجب أن يحل إليه وبين ما يجب أن تنظر فيه المحاكم . فالقرارات التى يصدرها مندوبو الإمبراطرر الشخصيون تستأنف إليه، أما القضايا الأخرى فتنظر فيها المحاكم المختصة . وحدّد فيلبس واجبات المجلس الإمبراطورى وحقوقه بحيث لايسمح له أن يفتات على حقوق المشيخة أوالمحاكم. وكانت شرور الإدارة المالية السيئة قد وصل أثرها إلى جميع أنحاء الإمبرطورية . فوضع فيلبس حدّا لتصرف رجال الخزينة وحدّد واجبات الناس من الضرائب ولكن كان أهل الإمبراطورية على ما يظهر يأملون أن يعفوا من كثير من الضرائب التى كانت مصاريف الدولة تحتاجها ، نخاب أملهم .

وعنى فيلبس ببناء الطرق لأنه كان جنديا يعرف قيمة الطرق الصالحة للجيش وكان يدرك الفائدة التى تعود على التجار والتجارة من الطرق الآمنة المحروسة. كذلك إهتم ببناء الحصون وترميم ما تصدع منها فى الحدود الدانوبية لأن تلك الجهة كانت مصدر خطر كبير لروما .

وكان من الطبيعى أن يهتم فيلبس بالجزء العربى من إمبراطوريته ، وهو الجزء الذى ولد فيه وشب والذى يسكن فيه أهله وعشيرته وقومه. فنحن نعرف أن فيليب بنى فى اللجاة مدينة فى المكان الذى ولد فيه سماها — فيليبو بوليس

أى مدينة فيليب . كما أنه رفع درجة بصرى إلى (مدينـة رومانية) ومنح نصيبين وسنجرا ألقاب الشرف وعمر مدينـة نابلس . وكم كنا نحب لو أن مؤرخا سوريا عاش فى أيام فيلبوس وأرخ له ولعصره ولعنايته بسوريا .

وقد شاء القدر أن تحتفل روما بعيدها الألفى أيام كان فيلبوس العربى على عرشها وقد احتفى الامبراطور به احتفاء كبيرا فى سنة ٢٤٧ م . فأقيمت حفلات الألعاب فى قاعة السرك الكبرى ، وكانت ألعاب المجالدة والمصارعة من أجلها . ذلك أن غورديان كان قد جمع حيوانات كثيرة تحضيرا للاحتفاء بانتصاره على الساسانيين فاستخدمها فيلبوس فى الذكرى الألفية لروما . وكان فيلبوس أنفق فى هذه المناسبة ما ادخره فى مناسبات أخرى ، فنال أهل روما شيئا كثيرا من الولائم والمـآدب وتمثيل الروايات . فخرج الناس بعد أيام من السرور الشامل وهم يلهجون بذكر الإمبراطور الذى يسر لهم مثل هذه النعم والخيرات .

وقد أشرنا من قبل إلى أن فيلبوس كان بين كبار مفكرى ذلك العصر ، وأن ثقافته كانت واسعة متنوعة . وكان أثر ذلك باديا فى حكمه وإدارته ، فنحن عنـدنا وثيقة من فيلسوف أثيـنى زار روما نائبا عن مدينته وقـدم للامبراطور مطالب مدينته . وقد أعجب السفير بالإمبراطور ومعرفته وسعة إطلاعه وقبل الإمبراطور كثيرا من مطاليب أثينا إكراما لسفيرها الفيلسوف .

لكن لدينا ما هو أثمن من هذه ، فهنالك خطاب محفوظ عندنا ألقاه أرسيتديس فى أيام فيلبوس سماه (إلى الملك) يتحدث أرسيتديس فيه عن الملك الصالح والحاكم المثالى . فيشـير إلى أنه هو الذى يكون عادلا مؤمنا بفلسفة الرواقيين غير النفعية . ويريد أرسيتديس هذا الحاكم أن يكون مستنيرا

ولو مستبدا ويجب أن يكون الإمبراطور خير رجل يمكن العثور عليه فى حدود الدولة ويترتب على الملك أن يكون سيد الجند لا خادمهم . والمؤرخون متفقون على أن خطاب أرسيتديس هذا يصور فيلبوس وشخصيته بحيث لا يعدو الحقيقة كثيرا .

وقد كان فيلبوس بحكم هذه النظرة الواسعة بعيدا عن التعصب ، فلم يضطهد النصارى على نحو ما عرف قبله وبعده ، بل عاملهم معاملة فيها الكثير من الحلم وسعة الصدر . وكان فى ذلك الوقت أحد آباء الكنيسة المسمى أوريغون يعيش فى سوريا فكتب إلى فيلبوس وزوجه رسائل حول النصرانية يفسرها ويشرحها ، فتقبلها الإمبراطور منه . وهذا ما حمل بعض المؤرخين على القول بأن فيلبوس تنصر . ولكن الواقع أن الإمبراطور لم يعتنق النصرانية .

ولم يخل حكم فيلبوس من ثورات ضده فادعى العرش ثلاثة وثارت قبائل الدانوب . وفكر فيلبوس فى اعتزال الحكم حسما للنزاع لكن لما أصبح المنافسون له ثلاثة رأى أن يهدئ الأمور قبل ترك العرش، وقد أعانه جند اثنين من الثائرين على زعيميهم فقتلوهما ،وأرسل فيلبوس جيشا بقيادة ديسيوس لقمع ثورة الدانوب، فلما نجح القائد أجبره جنده على أن يكون إمبراطورا .

والتقى فيلبوس بديسيوس فى معركة دارت فيها الدائرة على الإمبراطور العربى فيلبوس فقتل سنة ٢٤٨ م .

هذا هو العربى الذى حكم الإمبراطورية الرومانية فى ذلك العصر المضطرب وأدارها إدارة حكيم حازم . والمؤرخون مجمعون على أنه من خير من تولى العرش فى أثناء هذه الأزمة العصيبة فى حياة روما .

٢ — يـوم مؤتة

أغذ صاحباى السير، وكانا يجيدان ركوب الخيل وقد نشآ عليها ، وتبعتهما حذرا يقظا ، فما أنا من أهل الطراد إذا ثارت ثائرة الفرس . لكنهما ترفقا بى فلم يعرضانى إلى ما لا تحمد عقباه . وكانت الشمس قد قطعت من قوس نهارها جزءا كبيرا لما بدت لنا قبتامقام جعفر فى قرية البزار. وكنت قد منيت نفسى بزيارة هذا المكان سنوات طويلة ، وها هى أمنية الصبا تحقق اليوم ، وها نحن فوق الأرض التى شربت دماء جماعة من كرام المسلمين يوم أن جاءوا ليقاتلوا الروم فى معركة مؤتة .

وخفق قلبى طربا لزيارة المكان ، ولم ألبث أن تمثلت أمامى المعركة بتفاصيلها وبدت لعينى التضحية التى يقوم بها المؤمن بالمثل الأعلى الذى يدافع عنه وهو يعرف بأنه قادم على خطر أقل ما ينشأ عنه الموت ، ولكنه الإيمان والحق صبا فى قلوب القوم فكان منهم شهداء مؤتة .

وعادت بى الذكرى، ونحن ننتقل بين قبور الشهداء الأبرار، ثلاثة عشر قرنا وأزيد الى الوراء، فرابتنى أذكر أخبار هذه الحملة . فقد جهزها النبي فى جمادى الأولى من سنة ثمان للهجرة، واختار لها رجالا من خيرة جماعته من الأنصار والمهاجرين ، فقد رأى أن الشام ومشارفه طريق رسالته إلى العالم الخارجى، فأراد أن يتعرّف إلى هذا الطريق، وليس من تثريب عليه أن يؤمن لجيوشه هذه السيوف المشرفية التى كانت تصنع فى تلك الربوع على أن أمرا آخر كان فى نفس الرسول لما جهز هذا البعث : ذلك أن رسولا للنبى إلى صاحب بصرى كان قد قتل فى تلك الجهات فأراد أن يثار له ويؤدّب المعتدين عليه .

وتجهز القوم وكانوا ثلاثة آلاف ، وقد استعمل الرسول عليهم زيد بن حارثة وقال " إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس " . فلما تهيأوا للخروج ودعهم أهلهم وتمنوا لهم الخير .

والأمراء الثلاثة، وقد سموا أمراء رسول الله، هم من أعز الناس على النبي وأحبهم اليه ومن أصحاب السابقةِ بين الصحابة . فأما زيد فقد كان حِب النبي، نشأ فى حِجره وكان من أوائلِ من آمن برسالتِه وقبل الإسلام . وجعفر بن عم النبي عزيز عليه مقرّب لديه ، وعبد الله شاعر من الأنصار له فى الرسول قصائد غرر ، وهو الذى قال يوم توديع الرسول للجيش :

أنت الرسـول فمن يحـرم نوافله	والوجه منه، فقد أزرى به القدر
فثبت الله ما آتاك من حسنٍ	فى المرسلين، ونصرا كالذى نصروا
إنى تفرست فيـك الخير نافـلة	فِراسة خالفت فيك الذى نظروا

على أنه بالاضافةِ إلى هؤلاءِ الثلاثةِ الأمراءِ كان فى الجيش مسعود بن الأسود ووهب بن سعد وعباد بن قيس والحرث بن النعمان وسراقة بن عمرو وأبو كليب وجابر ابنـا عمرو بنِ زيد ، وابنا سـعيد بنِ الحرث وخالد بن الوليـــد .

سار الجيش القليل الفئة ، العامرة قلوب أهلِه بالايمان يقطع فيافى الحجاز وقفاره يحدو رجاله الأمل ويملأ نفوسهم المثل الأعلى الذى خرجوا من أجله، واستمرّوا على ذلك حتى هبطوا معان، فى جنوبِ شرق الأردن . ومعان نقطة اتصالٍ رئيسية بين الحجاز وجنوب سوريا من أقدم الأزمنة، وتقع على طريق شبيب إلى الكرك .

حمل إلى الجيش أن هرقل إمبراطور البيزنطيين قد نزل فى أرض البلقاء فى مائة ألف من رجاله الروم ، وأن جماعة كبيرة من أهل تلك الجهات انضمت اليه . فأقام المسلمون فى معان ليلتين يتشاورون فى أمرهم ، وخطر لهم أن يكتبوا إلى النبى يطلبون رأيه ، ويرجون منه المدد والمعونة . لكن عبد الله بن رواحة خطب فيهم قائلا "والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون ، الشهادة . وما نقاتل الناس بعددٍ ولا قوةٍ ولا كثرةٍ . ولا نقاتلهم إلا بهذا الدينِ الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين إما ظهور وإما شهادة" فأمن الناس على قوله ومضوا وقد زاولتهم الريبة وعاد اليهم إيمانهم . وقد قال ابن رواحة فى ذلك :

جلبنا الخيل من اجأ وفرع ... تغر من الحشيش لها العكوم
حذوناها من الصوان سِبتا ... أزل كأن صفحته أديم
أقامت ليلتين على معان ... فأعقب بعد فترتها جموم
فرحنا والجياد مسومات ... تنفس فى مناخرِها السموم
فلا وأبى مآب لنأتينها ... وإن كانت بها عرب وروم

وظاهر الأمرِ ، مما أورده مؤرخو العرب وجغرافيوهم ، أن الروم كانوا فى اللجون وهو حصن رومانى الأصل أو أقدم يقع شمالى الطريق الممتدة من الكرك إلى القطرانه . فتحرك الجيش الرومى جنوبا وتحرك المسلمون شمالا من معان ، فالتق الجمعان فى هذا السهلِ الفسيح المحيط بمؤتة ، والذى يمتد البصر فيه مسافاتٍ شاسعة . وانحاز الجيش العربى إلى مؤتة متخذا من التل الذى يرتفع جنوبها درعا يقيه التفاف الروم . وعبئت هذه الآلاف الثلاثة ، وكان زيد على القلب وقطبة العذرى على الميمنة ، وعبادة

الأنصارى على الميسرة . وهجموا وزيد يحمل راية النبى فاقتتل الناس فقاتل زيد حتى هلك فى رماح القوم فتقدم جعفر إلى الراية فقاتل بها، فلما ألحمه القتال ترجل عن فرسه الشقراء وقاتل وقطعت يمينه وكان يحمل اللواء بها، فأخذ عبد الله بن رواحة اللواء وتقدم به وهو على فرسه وقال :

يا نفس إلا تقتلى تموتى   هذا حِمام الموت قد صليتِ
وما تمنيتِ فقد أعطيتِ   إن تفعلى فعلهما هديت

وتقدم فقاتل حتى قتل .

وجاء ثابت بن أرقم فتناول الراية وطلب الى المسلمين أن يختاروا رجلا منهم يتولى أمرهم ، فلما رفض هو اصطلحوا على خالدِ بن الوليد .

وكانت مهمة خالدٍ شاقة جدا . فالجيش الكبير قد كاد يفتك بالجماعةِ الصغيرة، وأدرك هذا الرجل أنه يتحتم عليه أن ينقذ جماعته من وسطِ هذا العراكِ الذى لا تناسب فيه، فنظم قومه ودافع العدو وتحاشى الاتصال به، فأنقذ من بقى وانصرف بهم .

وبلغ خبر مؤتة النبى وأهل المدينة، فكان وقعه عليهم شديدا ، و إن اختلف أثره فى الناس . أما النبىّ فقد حزن على الذين استشهدوا هناك حزنا شديدا، فقد روى أنه دخل على أسماء زوج جعفر وقد عجنت عجينها وغسلت بنيها ودهنتهم ونظفتهم فطلب منها أن تأتيه ببنى جعفر فأتته بهم فتشممهم وذرفت عيناه ، فسألته عما يبكيه فأبلغها أن جعفر وأصحابه أصيبوا ذلك اليوم . فصاحت حزنا وأسى واجتمع إليها النساء وخرج النبى فقال " لا تغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعاما فإنهم شغلوا بأمرِ صاحبهم " وقد ورد أن الناس عرفوا الحزن فى وجهِ الرسول فى ذلك اليوم .

وأعلن النبى الخبر إلى أهلِ المدينة فقال عن الأمراء الثلاثة أنهم قاتلوا فقتلوا شهداء ورفعوا إلى الجنة .

أما أهل المدينة فقد نقِموا على الذين عادوا أحياء ، فقد خرج النبى للقائهم فلما دنوا من حول المدينة لقيتهم الناس فكانوا يحثون التراب على الجيش ويقولون « يا فرار فررتم فى سبيل الله » . أما الرسول فكان يقول لهم ”ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله“ .

وتغيب سلمة بن هشام، وكان فيمن عاد من مؤتة، عن حضور الصلاة مع رسول الله ومع المسلمين، فلما سئِلت زوجه فى ذلك قالت ”والله مايستطيع أن يخرج، كلما خرج صاح به الناس يافرار فررتم فى سبيل الله حتى قعد فى بيته فما يخرج“ .

وقد حفِظت لنا أبيات قالها قيس بن المسحر اليعمرى يعتذر مما صنع وصنع الناس إذ تحاشوا القتال وانصرفوا :

فوالله لا تنفك نفسى تلومنى ... على موقفى والخيل قابعة قبل
وقفت بها لا مستجيرا فنافذا ... ولا مانعا من كان حم له القتل
على أننى آسيت نفسى بخالد ... ألا خالد فى القوم ليس له مثل
وجاشت إلى النفس من نحوِ جعفر ... بمؤتة إذ لا ينفع النابل النبل

وبمناسبةِ معركةِ مؤتة ، على ما يروى الطبرى ، سمى النبى خالدا ”سيف الله“ ، وقد كانت التسمية صحيحة كما ثبت من أعمالِ هذا الرجل فيما بعد .

وقد شغِل الناس بشهداء مؤتة، فرثاهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وغيرهما . فمما قاله الأول :

تأوبنى ليل بيثرب أعسر وهم إذا ما نوم الناس مسهر
لذكرى حبيب هيجت لى عبرة سفوحا، وأسباب البكاء التذكر
بلى إن فقدان الحبيب بلية وكم من كريم يبتلى ثم يصبر
رأيت خيار المؤمنين تواردوا شعوب، وخلفا بعدهم يتأخر
فلا يبعدن الله قتلى تتابعوا بمؤتة منهم ذو الجناحين جعفر
وزيد وعبد الله حين تتابعوا جميعا، وأسباب المنية تخطر
غداة مضوا بالمؤمنين يقودهم إلى الموت ميمون النقيبة أزهر
أغر كضوء البدر من آل هاشم أبى إذا سيم الظلامة مجسر
فطاعن حتى مال غير موسد بمعترك فيه قنا متكسر
فصار مع المستشهدين، ثوابه جنان وملتف الحدائق أخضر
وكنا نرى فى جعفر من محمد وفاء، وأمرا حازما حين يأمر

أما كعب بن مالك فكان مما قاله :

نام العيون ودمع عينك يهمل سحا كما وكف الطباب المخضل
فى ليلة وردت على همومها طورا أخن وتارة أتململ
واعتادنى حزن فبت كأننى ببنات نعش والسماك موكل
وكأنما بين الجوانح والحشا مما تأوبنى شهاب مدخل
وجدا على النفر الذين تتابعوا يوما بمؤتة اسندوا لم ينقلوا
صلى الإله عليهم من فتية وسقى عظامهم الغمام المسبل
صبروا بمؤتة للإله نفوسهم حذر الردى ومخافة أن ينكلوا

وثمة غير هذا كثير مما قيل، ورد ذكره فى كتب الأدب . والذى نراه من ذلك أن يوم مؤتة كان يوم حزن فى المدينة .

ولكن يوم مؤتة شيء آخر فى تاريخ العرب والإسلام . كانت معركة مؤتة انكسارا لهذا الجيش من المسلمين، إذ كان مقياس النصر والانكسار التقدم فى الموقعة والتراجع . أما إذا اعتبرت الناحية المعنوية فى القضية فيوم مؤتة يوم أغر فى التاريخ . لقد كان نصرا مبينا . فقد انتصرت فيه الفكرة على المادة، ذلك لأن الجماعة التى تقدمت للقتال كانت تعرف، منذ أن بلغها نبأ الجيش، أنها لا قبل لها بالغلب عليه ، ورغم ذلك أقدمت لأنها تسير نحو غاية سامية . ويوم مؤتة كان نصرا لأنه كان فاتحة لما جاء بعده . فقد قال النبي عن الجيش العائد، ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله . وقد كانوا كرارا . ألم يقد أسامة بن زيد حملة ثأر فيها لأبيه، ألم يقد ابن العاص وابن الوليد وابن حسنة وابن الجراح حملات ثارت لمؤتة وحققت ما كان يرمى اليه النبي من امتلاك الشام لأن الشام طريق دعوته وسبيل رسالته !

تلك كانت رسالة يوم مؤتة فى تاريخ العرب والاسلام !

عدت ذلك اليوم من مؤتة وأنا أفكر بالمعركة وشهدائها . لقد اضطررنا إلى التنقل بين البيوت للوصول إلى قبور الشهداء ، فلما وصلنا اليها هالنا ما رأيناه . إنه الاهمال بعينه ، أيجوز ذلك ؟ أيجوز أن تبقى قبور هؤلاء الناس مهملة إلى هذا الحد .

يوم مؤتة ورسالته وأبطاله وشهداؤه يجب أن يكرمهم أحفادهم وورثة فكرتهم وحملة رسالتهم ، فلنتقدم إلى ذلك .

٣ — معاوية يستقبل نساء العرب

ولى معاوية الخلافة سنة ٤١ للهجرة ، وهو منشئ البيت الأموى ، واتخذ دمشق عاصمة له . وكان قد وصل إلى منصبه بعد خلاف طويل بينه وبين على ، وقد بلغ هذا الخلاف أشده فى معركة صفين. فلما اطمأن معاوية

إلى بيعة المسلمين له فى عام الجماعة عمل على تأليف القلوب فكان يحسن إلى خصومه ويلاينهم، وكانت معاملته لهم أساسها الكرم والحلم، ومعاوية من أحلم من عرف التاريخ العربى. وقد كان لهذه السياسة أكبر الأثر فى نفوس الناس — مؤيديه منهم وخصومه، فالتف القوم حوله وأعاد الى العالم العربى وحدته، ورفع شأن الدولة العربية ونجح فى تثبيت قواعدها وتنظيمها نجاحا كبيرا .

وقد كان للمرأة العربية حظ كبير من سياسة تأليف القلوب هذه . ذلك أن كثيرات من النساء كن ذوات شأن فى معركة صفين، وكن يقفن بين الصفوف فينا دين الرجال إلى نصرة على وآله فيحملن الجبان على القتال ، والمدبر على الإقبال ، والمسالم على الحرب ، والفار على الكر ، والمتزلزل على الاستقرار. فكان معاوية يحاول الاتصال بشهيراتهن فيتحدث إليهن ويقضى لهن حاجاتهن وحاجات قومهن، ولطالما سمع منهن قارس الكلام فعفا وهو الأمير المقتدر، وإنما العفو عند المقدرة . وقد عنى مؤلفو الكتب الأدبية والرواة بأخبار الكثيرات ممن اتصلن بالخليفة العظيم فنقلوها إلينا . وكان ممن اجتمعن به أم الخير البارقية وسودة بنت عمارة والزرقاء بنت عدى وعكرشة بنت الأطرش ودارمية الحجونية وبكارة الهلالية وأروى بنت الحارث وأم سنان المذحجية وليلى الأخيلية. وبعض هؤلاء استدعاهن معاوية فقربهن وأكرم مثواهن ، وبعضهن وفدن عليه من تلقاء نفوسهن فقضى حاجاتهن ، وبعضهن مر بهن فى سفره ، فأحسن إليهن ، مع أنه سمع منهن ماساءه .

وليس يتسع المقام لعرض كل ما دار بين الخليفة وبين هؤلاء النساء الكريمات فلنكتف إذن ببعض ما كان فى تلك الاجتماعات وليرجع الى الباقى من شاء فى العقد الفريد والأغانى وزهر الآداب .

أما سودة بنت عمارة فقد وفدت عليه فأذن لها ، فلما دخلت سلمت عليه فسألها عن حالها وذكرها كيف كانت تحرض أخاها يوم صفين ليبطش بمعاوية وصحبه وروى لها قولها :

شمر كفعل أبيك يابن عمارة يـوم الطعان وملتق الأقران
وآنصر عليا والحسين ورهطه وآقـدر لهنـد وابنها بهـوان

وآبن هند هو معاوية ، فلم تنكر سودة قولها ولم تعتـذر وكان أخوها قد أبلى بلاء حسنا فى المعركة فذكرته بالخير ، فرأى معاوية متانة خلقها وثبات مبدئها فطلب إليها أن تذكر حاجتها فقالت " يا أمير المؤمنين إنك أصبحت للناس سيدا ولأمورهم متقلدا ، والله سائلك عما افترض عليك من حقنا . ولا تزال تقـدم علينا من ينهض بعزك ويبطش بسلطانك ... ... وهـذا آبن أرطاة ... ... قتـل رجالى وأخذ مالى ... ... ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة . فإما عزلته فشكرنا لك وإما لا ، فعرفناك " . فنبهها معاوية إلى أنها هدّدته بقومها ، ثم أطرق ساعة ، ثم قال لكاتبه "آكتبوا بالانصاف لها والعدل عليها " . قالت : " إلىّ خاصة أم لقومى عامة " . قال : " وما أنت وغيرك " . قالت : " هى والله إذن الفحشاء واللؤم . إن كان عدلا شاملا ، وإلا يسعنى ما يسع قومى " فقال معاوية : آكتبوا لها ولقومها .

أما الزرقاء فقد ذكرت فى مجلس معاوية بأنها كانت تقوم يوم صفين بين الصفوف على جمل أحمر فتوقد نار الحرب وتحرض على القتال بقولها : " أيها الناس الحـق كان يطلب ضالته فأصابها . فصبرا معشر المهاجرين والأنصار ... ... فكأنكم ، وقد التأم شمـل الشتات وظهرت كلمة العدل وغلب الحـق باطله . فانه لا يستوى المحق والمبطل ... ... فالنزال النزال

والصبر الصبر ألا أن خضاب النساء الحناء وخضاب الرجال الدماء . والصبر خير الأمور عاقبة . إئتوا الحرب غير ناكصين ، فهذا يوم له ما بعده . "وسأل معاوية جلساءه عما يشيرون فيها ، فأشاروا بقتلها فقال لهم معاوية " بئس ما أشرتم به ، وقبحا لما قلتم . أيحسن أن يشتهر علىّ أنني بعد ما ظفرت وقدرت قتلت امرأة قد وفت لصاحبها ؟ إني إذن للئيم . لا والله لا فعلت ذلك أبدا " . ثم كتب إلى والى الكوفة أن ينفذ إليه الزرقاء بنت عدى مع نفر من عشيرتها وفرسان قومها ، وأن يمهد لها وطاء لينا ، ومركبا ذلولا . فحملها الوالى فى هودج مبطن بالخز ثم أحسن صحبتها . فلما قدمت على معاوية رحب بها وأهل وسألها عن سفرتها وذكرها بيوم صفين وما قالته فيه ، فأكدته وذكرت عليا بالخير فأعجب معاوية بوفائها له بعد وفاته ، أكثر من إعجابه بحبها له فى حياته ... ... ثم سألها حاجتها فقالت : " يا أمير المؤمنين إنى آليت على نفسى ألا أسأل أحدا أعنت عليه أبدا " فقال " قد أشار علىّ بعض من عرفك بقتلك " فقالت " لؤم من المشير ، ولو أطعته لشاركته " . قال " كلا بل نعفو عنك ونحسن إليك ونرعاك " فقالت " يا أمير المؤمنين كرم منك . ومثلك من قدر فعفا ، وتجاوز عمن أساء ، وأعطى من غير مسألة " . فأعطاها كسوة ودراهم واقطعها ضيعة تغل لها فى كل سنة عشرة آلاف درهم وأعادها إلى وطنها سالمة وكتب إلى والى الكوفة بالوصية بها وبعشيرتها .

وأما بكارة الهلالية فقد استأذنت على معاوية ، فأذن لها فدخلت عليه وعنده مروان بن الحكم وعمرو بن العاص . وكانت امرأة قد أسنت وغشى بصرها وضعفت قوتها وكانت ترعش بين خادمين لها . فسلمت وجلست فردّ معاوية السلام وسألها عن حالها وأشار إلى تغيير الدهر لها فقالت " كذلك

الدهر ذو غير . من عاش كبر، ومن مات قبر" . قال عمرو بن العاص يا أمير المؤمنين هى القائلة يوم صفين :

يازيد! دونك فاحتفر من دارنا سيفا حساما فى التراب دفينا
قد كنت أذخره ليوم كريهة فاليوم أبرزه الزمان مصونا

وروى مروان بيتين آخرين قالتهما فى تلك المناسبة، ثم روى سعيد ابن العاص أبياتا أخرى وكلها فيها حملة على معاوية فسكت الجميع، فالتفتت بكارة وقالت " نبحتنى كلابك يا أمير المؤمنين واعتورتنى فقصر محجنى، وكثر عجبى وغشى بصرى . وأنا والله قائلة ما قالوا لا أدفع ذلك بتكذيب ، وما خفى عنك منى أكبر فامض لشأنك" . فضحك معاوية وطلب إليها أن تذكر حاجتها فقالت " أما الآن فلا" .

وكان معاوية فى مجلسه وبين يديه عمرو بن العاص ومروان بن الحكم فدخلت عليه أروى بنت الحارث بن عبد المطلب وهى عجوز، فرحب بها معاوية وسألها عن نفسها فذكرته بأنه اغتصب حقا لم يكن له ونالت منه ومن أعوانه. وأدرك عمرو ومروان تعريضها بهما فلاماها وزجراها فوجهت إليهما تهما قاسية ولامت معاوية على صمته عن أمثال هذين ورغب معاوية فى إزالة ما بها، فاصمت جليسيه، وسألها عن حاجتها قالت " تأمر لى بألفى دينار، وألفى دينار، وألفى دينار" . قال (ما تصنعين ياعمة بألفى دينار) قالت : " أشترى بها عينا جارية فى أرض منخفضة تصلح للزراعة تكون لولد الحارث بن عبد المطلب ! قال معاوية نعم الموضع وضعتها. فما تصنعين بألفى دينار" قالت " أستعين بها على عسر أهل المدينة ، وزيارة بيت الله الحرام" قال " نعم الموضع وضعتها . فما تصنعين بألفى دينار" قالت

"أزوج بها فتيان عبد المطلب من أكفائهم" قال نعم الموضع وضعتها. هى لك يا عمة أنفق هذه فيما تحبين فإذا احتجت فاكتبى إلىّ أحسن اعطاءك ومعونتك إن شاء الله".

وقد كان معاوية يتقرب إلى الناس أحيانا بالعفو عن ذنوبهم التى اقترفوها أيام خلافته، لا عن خصومتهم القديمة له فحسب. فمن ذلك أن أم سنان المذحجية كلمت مروان بن الحكم، وهو والى معاوية على المدينة، فى أمر حفيد لها حبسه مروان، فأغلظ لها وذكرها بولائها لعلى، فخرجت إلى معاوية بدمشق فدخلت عليه فانتسبت فعرفها، ورحب بها، وسألها حاجتها فقالت "يا أمير المؤمنين أن لبنى عبد مناف أخلاقا طاهرة، وأحلاما وافرة لا يجهلون بعد علم، ولا يسفهون بعد حلم، ولا ينتقمون بعد عفو. وأن أولى الناس باتباع ما سنّ آباؤه لأنت". فأمن معاوية على كلامها لكنه ذكرها ببعض ما قالته فيه فما أنكرته، وفعل بعض جلسائه مثل فعله فما أنكرته، لكنها أضافت "يا أمير المؤمنين لسان نطق، وقول صدق، ولئن تحقق فيك ما ظننا! لحظك الأوفر. والله ما مثلك مدح بباطل ولا اعتذر إليه بكذب. وإنك لتعلم ذلك من رأينا وضمير قلوبنا ... ... كان على أحب إلينا منك، وأنت أحب إلينا من مروان بن الحكم وسعيد بن العاص ... ... وقد استحققت ذلك بسعة حلمك وكريم عفوك ... ... فهذا مروان فى المدينة لا يحكم بعدل ولا يقضى بسنة، حبس ابن ابنى فأتيته فأغلظ لى القول فألقمته أخشن من الحجر، وألعقته أمر من الصبر ثم رجعت الى نفسى باللائمة وقلت لم لا أصرف الأمر الى من هو أولى منه بالعفو عنه. فأتيتك يا أمير المؤمنين لتكون فى أمرى ناظرا، وعليه ناصرا" قال معاوية "لا أسألك عن ذنبه

ولا عن القيام بحجته، اكتبوا لها باطلاقه " قالت " يا أمير المؤمنين وأنى لى بالرجعة وقد نفد زادى وكلت راحلتى " فأمر لها بخمسة آلاف درهم وراحلة .

وحج معاوية سنة فسأل عن امرأة من بنى كنانة يقال لها دارمية الحجونية وكانت سوداء كثيرة اللحم، فأخبر بسلامتها ، فبعث إليها فجئ بها فتحدث إليها ساعة يسألها عن حالها وعن حبها لعلى وكرهها له (أى معاوية) فقالت له " أحببت عليا على عدله فى الرعية ، وقسمه بالسوية، وواليته على حبه المساكين واعظامه لأهل الدين ! وعاديتك على سفكك الدماء وشقك العصا وحكمك بالهوى . فقد رأيته والله لم يفتنه الملك الذى فتنك ولم تشغله النعمة التى شغلتك . وكان كلامه يجلو القلوب من العمى، كما يجلو الزيت الصدأ .

قال " صدقت " ثم سألها حاجتها فاشترطت عليه أن يفعل اذا سألته ، فقبل، فطلبت أن يعطيها مائة ناقة حمراء فيها فحلها وراعيها،فسألها عما تصنع بها فقالت " أغذو بألبانها الصغار ، واستحيي بها الكبار، واكتسب بها المكارم وأصلح بها بين العشائر " فوهب لها ما سألت وأنشأ يقول :

إذا لم أعد بالحلم منى عليكم فمن ذا الذى بعدى يؤمل للحلم

خذيها هنيئا واذكرى فعل ماجد جزاك على حرب العداوة بالسلم

وكان معاوية يسير فرأى راكبا فأرسل بعض شرطه ليأتيه به دون أن يروعه . فلما قيل له ذلك قال " أمير المؤمنين أردت " فلما دنا الراكب أزل لثامه فاذا ليلى الأخيلية الشاعرة فأنشأت تقول :

معاوى ! لم أكد آتيك تهوى برحلى نحو ساحتك الركاب

تجوب الأرض نحوك ما تأتى إذا ما الأكم قنعها السراب

وكنت المرتجى وبك استعاذت لتنعشها إذا بخل السحاب

فسألها حاجتها فقالت "ليس مثلى يطلب حاجة، فتخبر أنت" فأعطاها خمسين من الإبل .

هـذا معاوية بن أبى سفيان ، وهو من تعرفون رجاحة عقـل ، وسعة صدر ، وسعة علم ، عرف قدر المرأة العربية متينة الخلق ثابتة المبدأ ، وأدرك قيمتها فى تربية بنيها على قويم الأخلاق ، وصادق العزيمة ، والدفاع عن الحق ، فرفع من شأنها ليكون له من أبنائها درع تحميه ، ومؤيدون أقرباء يركن إليهم إذا جدّ الجدّ . أعاد الله الى قومى مثل أولئك النساء ، وأعاد إليهم مثل معاوية فيعود إليهم ما كان لهم من شأن وقوة .

٤ — العرب يؤسسون مدينة

كانت البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان فى مقدّمة المدن التى أنشأها العرب بعد فتحهم بلاد الشرق العربى . وكانت هذه المدن ، بادئ الأمر ، مراكز عسكرية حربية ، تتخذ قواعد للهجوم ، ومنها تمتار الجنود وتزود بالسلاح والعتاد والمؤن ، واليها تلجأ لتستجم . لكن العرب لم يلبثوا أن أخذوا ببناء مدن كبيرة اتخذت مراكز للادارة المدنية ، وعواصم للدول وموئلا للحضارة . وفى طليعة هذه المدن دار السلام : بغداد .

والمنصور أول من مصرها وجعلها مدينة . أما قبـله فقد وردت أخبارها فى التاريخ العربى مرة واحدة أثناء فتوح العراق . ذلك أنه لما احتل العرب الحيرة وأخذوا يغيرون على السـواد وانتفضت مصالح فارس قال أهل الحيرة للمثنى "ان بالقرب منا قرية تقوم فيها سوق عظيمة مرة فى كل شهر فيأتيها تجار فارس والأهواز وسائر البلاد يقال لهـا بغداد" . فأخذ المثنى على البر حتى أتى الأنبار فتحصن أهلها ، فاستدعى المثنى مرزبانها

وأمنه بجـاء فأخبره أنه ينوى الاغارة على سوق بغداد وطلب اليه أن يبعث معه أدلاء وأن يعقد له الجسر ، ليعبر الفرات عليـه ، فعقد المرزبان الجسر فعبر المثنى مع أصحابه وبعث معـه الأدلاء ، فسار حتى وافى السـوق صحوة فهرب الناس وتركوا أموالهـم فأخذ العرب من الذهب والفضة وسائر الأمتعة ما قدروا على حمـله ، ثم رجعوا الى الأنبار وكان ذلك سنـة ١٣ للهجـرة .

واختفى اسم بغداد وسوقها من التاريخ حتى سنة ١٤٥ للهجرة (٧٦٢م)، لما رغب أبو جعفر المنصور فى اتخاذ عاصمة جديدة له ، ذلك أن أهل الكوفة كانوا يفسدون جنـده ، وكان الراوندية قـد ثاروا به ، فأرسـل المنصور روادا ليفتشوا له عن موضع يبنى فيـه مدينة على أن يكون الموقع واسطا رافقا بالعامة والجند . وخرج المنصور بعدهم بنفسه يجرب أماكن مختلفة ثم تخير موقع بغداد . فقد روى أهل السير أنه أتى موضع بغداد وعبر موضع قصر السلام ثم صلى العصر ، وذلك فى صيف وحر شديد وبات اغيب مبيت وأقام يومه فلم ير إلا خيرا ، فقال هذا موضع «صالح» للبناء: فان الميرة تجيئه من أرمينيه وأذربيجان والموصل والشام والسند والصين والبصرة، والمادة تأتيه من الفرات ودجلة ولا يحمل الجند والرعية إلا مثله ، فخط البناء وقدر المدينة ووضع أول لبنة بيده .

وقد أضاف غيرهم من الرواة إلى هذا قصة أخرى ننقلها لطرافتها وهى أن المنصور لما خرج يلتمس موضعا لبناء مدينته نزل الدير الذى على الصراة فى العتيقة ، فما زال على دابته ذاهبا جائيا منفردا عن الناس يفكر . وكان فى الدير راهب «عالم» فاقترب من على بن يقطين (وهو راوية هذه القصة)

وساله عن الملك لم يذهب ويجيء ، فأخبره على بأمره ، فقال الراهب ان فى علمنا أن الذى يبنى مدينة فى هذا الموضع يسمى مقلاص ، وما هو باسم ملككم هذا . فذهب على الى المنصور يخبره بالأمر ليريحه من العناء الذى هو فيه فلما سمع المنصور ذلك منه ضحك واستبشر ونزل عن دابته فسجد وأخذ سوطه وأقبل يذرع به ثم التفت الى على وقال " أنا كنت ملقبا بمقلاص فى صغرى ثم نسى الناس لقبى " . فاعتبرها المنصور وجماعته بشرى خير .

ووجه المنصور فى حشر الصناع والفعلة من الشام والموصل والجبل والكوفة وواسط والبصرة ، فأحضروا ، وأمر باختيار قوم من ذوى الفضل والعدالة والفقه والأمانة والمعرفة بالهندسة فكان ممن أحضر لذلك الحجاج بن أرطاة وأبو حنيفة النعمان . واستشار المنصور نو بخت الفلكى عن طالع المدينة فلما استتم له ذلك أمر فبدئ بالعمل . وأحب المنصور أن يرى عيانا ما يمكن أن تكون عليه مدينته فأمر أن يخط محيطها بالرماد ، وتخطط فصلاتها وطرقاتها ورحابها ثم أقبل يدخل من كل باب ويمر فى الطرق ، فلما أتم ذلك أمر أن يجعل على تلك الخطوط حب القطن ويصب النفط عليه ثم يشعل ، فنظر اليه والنار تشتعل ففهمها وعرف رسمها وأمر أن يحفر أساس ذلك على الرسم . وكان ذلك سنة ١٤٥ للهجرة .

وجعل أبو جعفر المدينة مدورة ، لأنه أراد أن يكون سكانها على بعد واحد من مركز الملك حيث أقام قصره والمسجد الجامع وكان طول المدينة من الباب الى الباب خمسة آلاف ذراع أو ما يزيد على الكيلو مترين ،

وجعل لها أربعة أبواب وعمل لها سورين وأحاط سورها الخارجى بالخنادق وجعل عرض السور من أسفله خمسين ذراعا هاشمية أو ما يزيد على عشرين مترا .

بنيت أسوار بغداد من اللبن المجفف بالشمس وكانت اللبنات كبيرة الحجم ثقيلة الوزن . فقد وجدت فيما بعد لبنة ، وعليها بمغرة ، ان وزنها مائة وسبعة عشر رطلا فوزنت فكانت كذلك . وربطت اللبنات بعضها ببعض بالخيزران . وكان فى كل دور من أدوار السور السفلى مائة ألف وخمسون ألف لبنة ، ثم تناقصت هذه بارتفاع السور ، لأن أعلاه كان عشرة أمتار أو يزيد . وقام أبو حنيفة النعمان بضرب اللبن وعده كله ، وكان يعده بالقصب وهو أول من فعل ذلك ، واستفاد الناس ذلك منه . وعمل فى بنائها مائة ألف من العمال :

وجاء المنصور بأبواب المدينة من واسط والشام والكوفة . وبلغت نفقات بناء بغداد ، فى الدور الأول ، بما تقرب قيمته بعملة اليوم من نصف مليون جنيه من الذهب . أما التقدير الذى نجده عند بعض القدماء من المؤرخين بما يساوى تسعة ملايين جنيه من عملة اليوم فلعل المقصود به ما أنفق عليها بعد التوسع الكبير وبعد أن نشأت حولها أرباضها وضواحيها وقصورها .

ونحن إذ دخلنا مدينة المنصور من أحد أبوابها بعد عبور الخندق كان أول ما قابلنا الباب الخارجى ثم دهليز ورحبة ثم الباب الرئيسى ، وهو الذى فى السور الداخلى . والرحبة ينفتح على جانبيها بابان الى الفصيل ، وهو الجزء الخالى من البناء الذى يدور بالمدينة بين سورها الخارجى والداخلى . والباب

الثانى أو الداخلى عليه مجلس له درجة على السور يرتقى اليه منها وعلى هذا المجلس قبة عظيمة مزخرفة ذاهبة فى السماء ، وعلى رأسها تمثال تديره الريح . وهكذا كانت حال كل باب . وكانت هذه القبة مجلس المنصور . فاذا أحب الماء ، ورغب فى مراقبة من يقبل من المشرق ، جلس فى قبة باب خراسان واذا أراد النظر الى الأرباض وما والاها جلس فى قبة باب الشام ، وكان مجلسه فى قبة باب الكوفة اذا أحب النظر الى البساتين والضياع . فاذا كانت له رغبة الى رؤية الكرخ جلس فى قبة باب البصرة . وكان على كل باب قائد فى ألف . وكان لا يدخل أحد من هذه الأبواب إلا راجلا .

فاذا تجاوزنا الباب الداخلى فنحن فى ساحة هى التى أعدها المنصور لإقامة أبنية أتباعه ورجاله ممن انتقل معه الى عاصمته الجديدة . وكان يفصل هذه الساحة عن المنطقة الداخلية للمدينة جدار . ونحن نسير من الباب الى مركز المدينة المدورة ، فتكون على جانبينا أسواق بغداد ومراكز تجارتها . وهذه الطرق الرئيسية للمدينة تصل أبوابها بوسطها وتنتهى كلها عند المسجد الجامع والقصر . وكانا يتوسطان مدينة المنصور وتحيط بهما باحة واسعة خالية من الابنية .

وكان فى صدر قصر المنصور إيوان طوله ثلاثون ذراعا وعرضه عشرون ذراعا وفى صدر الإيوان مجلس وسقفه قبة وعليه مجلس مثله ، فوقه القبة الخضراء التى يرتفع رأسها عن الأرض ثمانون ذراعا . وعلى رأس القبة تمثال فرس عليه فارس . وكانت القبة الخضراء ترى من أطراف بغداد . وقد ظلت هذه القبة مائة ونيفا وثمانين سنة ، وسقطت فى أيام الخليفة الواثق .

أما المسجد الجامع فقد كانت المساحة التى أقيم عليها مائتى ذراع فى مثلها . وكان، مثل القصر، مبنيا من الآجر وأعمدته من الخشب .

على أن بغداد هذه لم تلبث أن أخذت تتسع . فنشأت حولها قصور ومتنزهات وأسواق وما شاكل ذلك، حتى شغلت مساحة كانت أضعاف مساحتها الأصلية . فكانت محلة الكرخ أول اتساع تجارى لبغداد ، وكان قصر الخلد أول امتداد رسمى لها وكانت الرصافة أول محاولة للاستمتاع بخيرات الطبيعة الجميلة .

روى أن وفد على المنصور وفد ملك الروم ، فأمر أن يطاف بهم فى المدينة ثم دعاهم فقالوا للمنصور يا أمير المؤمنين أنك بنيت بناء لم يبنه أحد كان قبلك ، وفيه ثلاثة عيوب : أولها بعده عن الماء وثانيها أنه ليس فى بنائك هذا بستان وثالثها أن رعيتك معك فى بنائك وإذا كانت الرعية مع الملك فشا سره . فتجلد المنصور وقال أما قولك الماء فحسبنا من الماء ما بل شفاهنا ، وأما البستان فانا لم نخلق للهو واللعب . وأما قولك فى سرى فما لى سر دون رعيتى . ولكن بعد سفر الوفد أمر المنصور بمد قناتين من دجلة ، وغرس العباسية ، ونقل الناس الى الكرخ .

ومع ما فى هذه القصة من الطرافة ، فنحن نرى غير هذا فما كان المنصور بحاجة الى وفد رومى ليرشده الى هذه الأمور . وكل ما فى المسألة هو أن بناء المدينة ، فى سنة وبعض السنة ، لم يكن من المنتظر أن يتم كله، وكانت لا تزال بحاجة الى اتمام . وهناك ما يثبت أن مد القناتين كان لغير هذا، فانه رأى المنصور أن الماء ينقل بالروايا فتصل بغالها الى رحابه ، واتخذ فنيا بالساج . ثم زاد عدد هذه القنوات الوثيقة فكانت تدخل المدينة وتنفذ

فى الشـوارع والدروب والأرباض وتجـرى صيفا وشـتاء لا ينقطع ماؤها فى وقت . ومثل ذلك يقال فى مغانيها وأسـواقها . فسوق الكرخ بنيت ، على رواية هى أقرب الى المنطق ، لازدياد التجار والباعة وقيامهم بالشغب وكثرة الضوضاء، فحول المنصور الاسواق خارج العاصمة نفسها . ولعله قصد أن يوسع بعض دروب مدينته الاصلية ، لأنها ضاقت . وهذا ما حدث ، فانه أمر فى نفس السـنة بهدم بعض الدور ليتم له ما يريـد . ومن لطيف ما يروى أن المنصور قال ، لمـا نقلت الأسـواق الى الكرخ ، جعلوا سوق القصابين فى آخر الأسواق فان فى أيديهم الحديد القاطع . وكانت الأسواق لا غلة عليها فى أيام المنصور، ولعله رمى من وراء ذلك الى تشجيع النـاس على تركيز شؤونهم حتى يستقروا .

ولم يكد يفرغ من تحويل الأسواق الى الكرخ حتى انصرف الى بنـاء قصر الخلد على دجلة . ولمـا وفد المهدى من الرى سـنة ١٥٩ بنى المنصور الرصافة ، وهى التى تم بناؤها تحت اشراف المهدى نفسه .

وأصبحت بغداد عاصمة العـراق وعاصمة العـالم العربى والامبراطورية الاسلامية ، وظلت على ذلك نيفا وخمسة قرون، وكانت تتسع وتكبر وتنمو فى كل ناحية من نواحيها . فالمكاتب والمدارس ودور العلم والمساجد كانت تشاد بالاضافة الى القصور ودور الادارة والأسواق ، وكان يقطنها من كل أصناف الناس على اختلاف مشاربهـم ومنازعهم . فلم يكن مبالغة ما قيل فيهـا .

أعاينت فى طول من الأرض أو عرض
كبغداد دارا ، انهـا جنة الأرض

صفا العيش فى بغـداد واخضر عوده

وعيش ســواها غير صاف ولا غض

تطـول بهـا الأعمار إن غذاءها

مرىء وبعض الارض أمرأ من بعض

وقد نقل الخطيب البغدادى ، مؤرخ بغداد فى القرن الخامس للهجرة ، طائفة مما قيل فى مدح بغداد ومحاسن أخلاق أهلها ، ونقل ياقوت فى معجم البلدان بالاضافة الى ذلك الكثير ممـا قيل فى ذمها ، ولن تعدم الحسناء ذاما .

فقـد روى أن ذا النون كان يقول : من أراد أن يتعـلم الظرف فعليه بسقاة المـاء ببغداد ، فلما سئل فى ذلك قال : انه حمل الى بغداد ورمى بباب السلطان مقيدا فمر به رجل متزر بمنديل مصرى معتم بمنديل دبيق ، بيده كيزان خزف رقاق وزجاج مخروط فسأل عنه : أهو ساقى السلطان فقيل له بل هو ساقى العامة ، فأومأ اليه فسقاه فشم فى الكوز رائحة مسك فلما هم بأن يدفع اليه أبى وقال « أنت أسير وليس من المروءة أن آخذ منك شيئا » .

وقيل إن بغداد صوّرت لملك الروم أرضها وأسواقها وشوارعها وقصورها ونهارها غربيها وشرقيها وجسورها فكان ملك الروم إذا شرب دعا بالصـور فيشرب على مثال شارع سويقة نصر .

وكان زلزل الضارب غلاما لعيسى بن جعفر فحفر بركة للسبيل واحاطها بالمغانى الجميلة حتى قيل فيها :

لو ان زهيرا وامرأ القيس أبصرا　　ملاحـة ما تحـويه بركة زلزل

لمـا وصـفا سـلمى ولا أم سالم　　ولا أكثرا ذكر الدخول فحومل

وكان بعض الصالحين إذا ذكرت عنده بغداد يتمثل :

قل لمن أظهر التنسك فى النا س وأمسى يعد فى الزهاد
الزم الثغر والتواضع فيه ليس بغداد منزل العباد
إن بغداد للملوك محل ومناخ للقارئ الصياد

على أن التناقض فى شأن بغداد بين الكتاب والشعراء هو ما نعثر عليه دائما فى شأن المدن الكبيرة والذين رأوها فى عظمتها ونالوا فيها بغيتهم وسروا بها مدحوها، وخالفهم فى ذلك غيرهم ، وليرجع من يحب الى تاريخ بغداد وياقوت ليرى بنفسه صحة هذا الأمر .

وقد نقل البغدادى وصفا لما كانت عليه بغداد أيام المقتدر بالله، فى أوائل القرن الرابع للهجرة، يوم أن زارها وفد ملك الروم، وقد استغرق ذلك ثلاث صفحات تبدأ فى الصفحة المائة من الجزء الأول، فليرجع اليها من رغب فى أن يعرف ما وصلت اليه ابهة الملك والخلافة فى عصر هو من انضج العصور فى التاريخ العربى .

ولعل خير ما اختم به هذا الفصل هذه الأبيات التى قالها الهمذانى

فدى لك يا بغداد كل قبيلة من الأرض، حتى خطتى ودياريا
فقد طفت فى شرق البلاد وغربها وسيرت رحلى بينها وركابيا
فلم أر فيها مثل بغداد منزلا ولم أر فيها مثل دجلة واديا
ولا مثل أهليها أرق شمائلا وأعذب الفاظا وأحلى معانيا
وكم قائل لو كان ودك صادقا لبغداد لم ترحل فكان جوابيا :
يقيم الرجال الأغنياء بأرضهم وترمى النوى صفر اليدين المراميا

٥ — حلم المأمون

روى أهل السير أن المأمون رأى فيما يرى النائم كأن رجلا على كرسى جالسا فى المجلس الذى كان المأمون فيه فتعاظمه وتهيبه ، ثم سأل عنه فقيل له هو أرسطوطاليس فعن له أن يسأله ، فتقدم منه وقال (ما الحسن ؟) فأجاب ما استحسنته العقول، فقال المأمون ثم ماذا؟ فأجاب وما استحسنته الشريعة فقال المأمون ثم ماذا فأجاب ما استحسنه الجمهور . فلما سأله ثم ماذا أجاب ثم لا ثم وأضاف الرواة الى ذلك أن هذا هو الذى حدا بالمأمون الى إخراج كتب الحكماء، ونقلها الى اللسان العربى .

ونحن لا نستبعد الحلم، لكننا نرى أنه نتيجة لتفكير المأمون فى الحكمة والعلم لا سبب لذلك . فاننا نعرف أن الأحلام التى تنتابنا فى ليلنا الطويل إنما هى ما تبقى من آمال النهار وأمانيه أو مخاوفه، مما لم يتح له الفرصة الكافية لمناقشته أو تحقيقه، فيظهر لنا فى أحلامنا، وقد يرضينا وقد يخيفنا لأن ذلك متوقف على ما قد يرافق الحلم من أعمالنا النهارية وتفكيرنا الواعى وغير الواعى .

وحلم المأمون يظهرنا على ما كان يشغل بال الخليفة العظيم من شؤون . فهو يحاول أن يدرك وجه الحكمة فى نواح ثلاث من نواحى الحياة . يريد أن يتعرف حكم العقل والمعرفة وأثر العلوم فى تسيير الإنسان وتوجيهه نحو الحسن والخير . وهو يريد أن يدرك أسرار الشريعة فى تعيينها الخير والشر والحسن والقبح، وهو يريد أن يسعد شعبه تحت إشرافه، ويحاول أن يتبين خير السبل للوصول الى ذلك . وهنا نستطيع أن نلمح فى المأمون شخصية قوية ، تنظر الى الأمور نظرة شاملة عامة فاحصة، لتتقرى ما ينفع فتبقيه، وتتعرف الى ما يؤذى فتقصيه . وهذا هو سبيل الحاكم العادل القوى .

وإذا عرضنا للمأمون فى صفحات معدودة، فلسنا نحاول أن نرسم صورة لحياته ولكننا نأمل أن نتعرف من هـذا الحلم الذى رآه الخليفة الى النواحى الفكرية التى عرض لها المأمون فى مجالسه العامة والخاصـة . وليس علينا من ضير أن نسبق ذلك بالاشارة الى ما كان عليـه العباسيون قبله من عناية بأهل العلم والأدب والفضل والشعر . فقـد كان المنصور له مشاركات فى الفلسفة والنجوم وكانت للرشيد مجالس أدبية لا يبلى الحديث عنها جدتها، وكان العرب قبل المأمون قد أخذوا أنفسهم بدراسة الأدب الفارسى والعلم اليونانى ، بل ونقلوا بعض نتاجه إلى لغتهم ، فالمأمون نشأ فى جو مشبع بالحياة الفكرية ، وترعرع فى بيئة صالحة . لكن المأمون ترجع مكانته لا الى أنه استمر فى هذا السنن القويم فحسب، ولكن الى أنه زاد فى الحركة أولا والى أنه طبع كل شىء بطابعـه الخاص ثانيا فكنت ترى أن شخصيته تطغى على كل من حوله، وتبعث فى كل شىء قبسا منها يلهبه فيشتـد أواره وتلمع ناره ويصيب كلا منـه شرر . وهـذا سر اللمعان الفكرى فى أيام المأمون .

فهـذا محمد بن أيوب والى البصرة فى أيام المأمون يدعو اليـه شاعرا ظريفـا خبيثا ماكرا ويحمله على الذهاب الى المأمون ويزوده فى سبيل ذلك بنجيب فاره ونفقة سابغة . خرج الشاعر الى الشام، وكان المأمون هنالك، فبينا هـو فى غزاة قرة وهو يروم العسكر إذا بكهل على بغـل فاره فتلقـاه مكافحة ومواجهة وهـو يردد أرجوزته ؛ فحيـا فرد الشاعر التحية وتبادلا كلاما انتسب فيـه الشاعر وبين قصده . فقال الكهل بينـك وبين أمير المؤمنين عشرة آلاف رامح ونابل وأنت قلت أنك تطمع من الخليفـة بألف

دينار فأنا أعطيكها إن أنشدتنى شعرك فوجدته حسنا كما تقول . فقبل الشاعر وأنشده :

مأمون ياذا المنن الشريفة ... وصاحب المرتبة المنيفة

وقائد الكتيبة الكثيفة ... هل لك فى أرجوزة لطيفة

أظرف من فقه أبى حنيفة ... لا والذى أنت له خليفة

ما ظلمت فى أرضنا ضعيفة ... أميرنا مؤنته خفيفة

وما اجتبى شيئا سوى الوظيفة ... فالذئب والنعجة فى سقيفة

* واللص والتاجر فى قطيفة *

فلم يعد أن أنشده فاذا زهاء عشرة آلاف فارس قد سدّوا الأفق يقولون السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فاضطرب الشاعر لكن المأمون هدأ روعه وأمر خادمه باعطائه ما معه ، فكان ثلاثة آلاف دينار .

وفى هذه القصة ما يشعرنا بهذه الرغبة التى كانت عنده فى التعرّف إلى الجمهور دون ضجة ولا زهو . والقصة كما أوردتها مختصرة لكن الأصل ، وهو طويل ، فيه من تبادل النكات البارعة ما يدل على معرفة المأمون بالأدب وأخبار العرب . ولكن أدل من ذلك على طول باعه فى الشعر هذه القصة التى رواها عنه عمارة بن عقيل إذ قال إنه أنشد المأمون قصيدة مائة بيت فيبتدئ بصدر البيت فيبادره المأمون الى قافيته كما قفاه . حتى قال له والله يا أمير المؤمنين ما سمعها منى أحد قط ، فقال هكذا ينبغى أن يكون . وعن عمارة هذا أن عبد الله بن أبى السيط قال أنه أنشد المأمون بيتا فيه

فلم يتحرك له ، وكان عبد الله يقصد إلى اتهام المأمون بأنه لا يتحرك للشعر الجيد لأنه لا يفقهه . فسأله عمارة عنه فرواه :

أضحى إمام الهدى المأمون مشتغلا بالدين ، والناس بالدنيا مشاغيل

فقال عمارة والله ما صنعت شيئا . هل زدت على أن جعلته عجوزا فى محرابها ، فاذا من الذى يقوم بأمر الدنيا إذا تشاغل عنها ، وهو المطوق بها . فأدرك عبد الله خطأه .

وكان للمأمون شغف كبير بعقد مجالس الأدب والمناظرة . وكانت هذه المجالس تمتاز بأمور ثلاثة : أولها أنها مثل المأمون نفسه ، كانت شاملة للشعر والنثر والعلم والشريعة والطب والغناء والمنادمة . وثانيها أنها كانت تقوم على أساس المساواة فى المناظرة بين المأمون وجلسائه . وثالثها وهو فى نظرنا أهم ما امتازت به أنها كانت توجيهية ، فقد كان المأمون يتخير هذه الفرص للفت نظر أهل المعرفة إلى مسائل هامة يجب أن يعرضوا لها .

تذاكر المأمون وجلساؤه الشعر والشعراء فقالوا : النابغة وقالوا : الأعشى وخاضوا فى غيرهما فقال المأمون : لا أشعرهم إلا واحدا الحسن بن هانئ فقالوا : صدق أمير المؤمنين، فقال الصدق على المناظرة أحسن من الصدق على الهيبة . فصمتوا خجلا ثم سألوا و بماذا قدمته قال بقوله :

يا شقيق النفس من حكم نمت عن ليلى ولم أنم

إلى قوله :

ثم دبت فى عروقهم كدبيب البرء فى السقم

وقد روى أن المأمون لما دخل بغداد وقر بها قراره ، أمر أن يدخل عليه من الفقهاء والمتكلمين وأهل العلم جماعة يختارهم لمجالسته ومحادثته وكان

يعقد فى صدر نهاره على لبود فى الشتاء ، وعلى حصر فى الصيف ليس معها شئ من سائر الفرش . واختير له من الفقهاء لمجالسته مائة رجل فما زال يختارهم ، طبقة بعد طبقة ، حتى حصل منهم عشرة بينهم يحيى بن أكثم وابن أبى دؤاد والمريسى والأنماطى . فتغدّوا عنده يوما فوضع على المائدة ألوان من الطعام كثيرة جدا ، فكلما وضع لون كان المأمون ينظر إليه فيخبرهم عن صلاحه أو ضرره ، وعن ملاءمته لنوع من المتطبيين ، حتى رفعت الموائد . فقال يحيى بن أكثم (يا أمير المؤمنين أن خضنا فى الطب كنت جالنوس فى معرفته ، أو فى النجوم كنت هرمس فى حسابه ، أو فى الفقه كنت على بن أبى طالب ، أو ذكرنا السخاء فأنت فوق حاتم فى جوده . فسر بذلك الكلام) وقال (يا أبا محمد إن الإنسان إنما فضل على غيره من الهوام بفعله وعقله وتمييزه ولولا ذلك لم يكن لحم أطيب من لحم ، ولا دم أطيب من دم) .

ومع ما قد يكون فى كلام يحيى من مبالغة فلا شك فى أن فيه شيئا كثيرا من الصدق . وقد نقل الرواة كثيرا من الأخبار التى تدل على بداهة المأمون وسعة علمه ، والقصة التالية ترينا ذلك بوضوح . روى أن رجلا من أهل خراسان آرتدّ عن الإسلام فحمل إلى المأمون فلما مثل بين يديه قال له أخبرنى ما الذى أوحشك مما كنت به آنسا من ديننا . فوالله لأستحييك بحق أحب إلى من أن أقتلك بحق ، وقد صرت مسلما بعد أن كنت كافرا ثم عدت كافرا بعد أن كنت مسلما . فان وجدت دواء دائك تعالجت به ، إذ كان المريض يحتاج الى مشاورة الأطباء . فان أخطأك الشفاء ، ونبا عن دائك الدواء كنت قد أعذرت ولم ترجع على نفسك بلائمة فان قتلناك

بحكم الشريعة ترجع أنت فى نفسك إلى الاستبصار والثقة ، وتعلم أنك لم تقصر فى اجتهاد ولم تدع الأخذ بالحزم . قال المرتد (أوحشنى ما رأيت من كثرة الاختلاف فى دينكم) فقال له المأمون (إن لنا اختلافين أحدهما كالاختلاف فى الأذان وتكبير الجنائز والاختلاف فى التشهد وصلاة الأعياد وتكبير التشريق ووجوه القراءات واختلاف وجوه الفتيا، وما أشبه ذلك . وما هذا باختلاف إنما هو تخيير وتوسعة وتخفيف من المحنة ، فمن أذن مثنى وأقام فرادى لم يؤثم من اذن مثنى وأقام مثنى ، لا يتعايرون ولا يتعايبون ، أنت ترى ذلك عيانا وتشهد عليه بيانا . والاختلاف الآخر كنحو الاختلاف فى تأويل آية من كتابنا وتأويل الحديث، مع إجماعنا على أصل التنزيل واتفاقنا على عين الخبر. فان كان الذى أوحشك هذا حتى أنكرت كتابنا فقد ينبغى أن يكون اللفظ بجميع ما فى التوراة والإنجيل متفقا على تأويله كالاتفاق على تنزيله . وينبغى لك أن لا ترجع إلا إلى لغة لا اختلاف فى ألفاظها . ولو شاء الله أن ينزل كتبه ، ويجعل كلام أنبيائه وورثة رسله لا تحتاج الى تفسير لفعل . ولكننا لا نرى شيئا من الدين والدنيا دفع لنا على الكفاية، ولو كان الأمر كذلك لسقطت البلوى والمحنة وذهبت المسابقة والمنافسة ولم يكن تفاضل وليس على هذا بنى الله عز وجل الدنيا) . فقال المرتد (أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن المسيح عبده ورسوله وأن محمدا صلى الله عليه وسلم صادق وأنك أمير المؤمنين حقا) . فانحرف المأمون نحو القبلة فخر ساجدا ثم أقبل على أصحابه فقال . (وفروا عليه عرضه ولا تبروه فى يومه ريثما يعتق إسلامه كيلا يقول عدوه أنه يسلم رغبة ولا تنسوا نصيبكم من بره ونصرته وتأنيسه والفائدة عليه) .

أليس فى هذه القصة ما يدلنا على بصر المأمون بأسرار الدين والشريعة وعلى فهمه لخلجات القلوب والنفوس . كل هذا مع سعة صدر ورحابة خلق يطمئن اليها مناظره الخراسانى فيحسن إيمانه بعد أن يفهم المسألة فهماجيدا .

على أن صورة للمأمون، مهما كانت مقتضبة وسريعة، لاتتم إلا بالتحدث عن عنايته بالعلوم والفلسفة . وقد تكون هذه أغزر نواحى النشاط الفكرى فى شخص المأمون وفى الذين التفوا حوله . فقد كان فى بغداد (بيت الحكمة) ولعل الذى أنشأه الرشيد أو حتى المنصور ، ولكن تاريخ بيت الحكمة والخدمات العلمية التى أداها للفكر العربى تخص المأمون وعصره . ذلك أن هذا الخليفة تعرف إلى ما كان عند اليونان من آثار عقلية ، فاهتم بنقلها إلى اللغة العربية . وكانت بينه وبين ملك الروم فى بزنطية مراسلات ، وكان المأمون قد استظهر عليه ، فكتب إليه يسأله الإذن فى إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة فى بلد الروم فأجاب بعد امتناع ، فأخرج المأمون جماعة منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلم صاحب بيت الحكمة وغيرهم فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا . وثمة رواية تقول بأن المأمون كتب مثل ذلك إلى ملك صقلية ، إذ طلب منه أن يرسل إليه ما عنده من ذخائر العلوم القديمة . على أن النقل لم يقتصر على علوم اليونان . بل تعداه الى أدب الفرس وطب الهنود وعلومهم . وأصبح بيت الحكمة هذا دار ترجمة وتصحيح وتبويب وتنقيب ، وكان ممن عمل فيه حنين بن اسحق وابنه اسحق ابن حنين و بنو شاكر . وقد بلغ مما رزقه النقلة خمسمائة دينار (٢٥٠ جنيه) فى الشهر للنقل والملازمة . أما حنين بن اسحق فقد كان المأمون يعطيه فيما يحكى عنه ، زنة ما ينقله من الكتب إلى العربية ذهبا .

أما ماترجم فى عصر المأمون فقد شمل كتب أفلاطون وأرسطو فى الفلسفة والعلم وكتب أبقراط وجالينوس فى الطب وكتب أقليدس وأرخميدس فى الرياضيات وكتب أطباء الهنود ، وكتبا أدبية فارسية وهندية . وقد بلغت الكتب التى ترجمت بضع مئات .

على أنه يجدر بنا أن نشير هنا إلى أن الحركة العلمية لم تقتصر على الترجمة، بل أن المشتغلين بالعلوم بدأوا، منذ أيام المأمون، بالنسج على منوال هؤلاء القدماء فى السير بالعلم والمعرفة قدما . فان المأمون جمع عددا من العلماء قاسوا له طول درجة الطول، وصنفوا له كتبا بما فى وصف الأرض ورسموا له الصورة المعروفة بالصورة المأمونية . هذا إلى المناقشة فى قضايا الفلسفة ومشاكلها فى مجالس المأمون ومجالس العلم الأخرى التى أدت إلى ظهور آراء جديدة فى آفاق التفكير العلمى والدينى كان لها فيما بعد شأن كبير .

ولعل خير ما أختم به هذا الحديث هو رأى السير وليم ميور فى المأمون إذ قال : « كان حكم المأمون عادلا مجيدا ، وكان عصره مزدهرا بأنواع العلوم والفنون والفلسفة ، وكان هو أديبا مولعا بالشعر متمكنا منه . وكان مجلسه حافلا بالعلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة اذ كان يقربهم ويجزل لهم العطاء على اختلاف مذاهبهم ونحلهم . وكان جماعة المحدثين والمؤرخين والفقهاء كثيرين فى أيامه . وقد أخرجت فى عصره من أديرة سوريا وآسيا الصغرى كتب الفلسفة والعلوم ترجمت الى العربية . ولم تقتصر جهود هؤلاء العلماء على نقل العلوم الى اللغة العربية ، بل توسعو فيها وأضافوا اليها ما اكتسبوه من مباحثهم واطلاعهم . فقد كان لهم فى سهل تدمر مرصد مجهز بجميع الآلات اللازمة لدرس الفلك والهندسة . وصنفوا كتبا فى التاريخ والرحلات والطب والكيمياء والتنجيم » .

وهـذا هو حلم المأمون . أليس من حقنا بعد هذا أن نأمل بأن يكثر بيننا الحالمون بمثل هذا ، على أن تحقق أحلامهم كما تحقق حلم المأمون .

٦ — ملك وخليفة

فى منتصف القرن الثالث عشر للميلاد قامت دولة المماليك فى مصر . قامت وقلب العالم العربى ، العراق وسوريا ومصر، مهدد بخطرين : من الغرب ومن الشرق . فأوروبا كانت تستولى على الساحل السورى كله، وتطمع فى مصر، وترنو بعينها إلى شمال أفريقيا . والتتار كانوا قد خرجوا من بلادهم كالموج الزاخر المتدافع ، يتلو بعضه بعضا، فلا تقوى الهيئات فى الشرق على ردّه، وقد خصصت له الواحدة تلو الأخرى فلا يلبث التتار أن يحتلوا بغداد ، ويقضى على الخلافة العباسية ثم هم يهمون بسوريا لولا أن لطف الله، فأوقفوا . هذا إلى خطر آخر كان يهدّد البلاد من الداخل أساسه ما كان بين السلطات المختلفة والأمراء العديدين من تنابذ وتناحر وخصومة ونزاع .

فى وسط هـذه الصعوبات المختلفة تولى عرش مصر وسوريا الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى أحد كبار حكام العالم الاسلامى فى العصور الوسطى المتأخرة . وكان الملك الظاهر قد اشترك فى رد التتار فى معركة عين جالوت أيام كان أحد قواد قطز، لكنه ما عتم أن أصبح السيد الأعلى لشؤون هـذه البلاد . وكان الملك الظاهر يتأثر خطى صلاح الدين فى سياسته العامـة ، وأساسها أمران الأول أن تكون سوريا ومصر موحدة سياسيا وحربيا واقتصاديا بحيث تكون كل مرافقها ومصادر ثروتها وقوتها تحت إشراف دولة واحدة ورجل واحد يستطيع توجيهها عند الحاجة

فى الوجهة الصحيحة ويستطيع ، من ناحية أخرى ، أن يأمن الخلافات المحلية بين الأمراء والمتآمرين . والأساس الثانى لسياسة صلاح الدين والملك الظاهر هو أن يضرب القلاع الصليبية فى سوريا من الداخل بانتظام واستمرار، بحيث يزيلها من الوجود الواحدة بعد الأخرى، وبذلك يتيسر القضاء على المحتلين وإخراجهم من البلاد . وكان على الملك الظاهر أن يقوم بالأمر الأول — أى توحيد البلاد، قبل أن ينصرف إلى مقارعة خصوم بلاده .

كانت غارة المغول على بغداد، قبل تولى الملك الظاهر بسنتين، قد انتهت بقتل المستعصم بالله آخر خليفة عباسى وقتل ولديه معه، ومعنى هذا أن الخلافة انتهى شأنها . ولكن الخلافة رئاسة دينية، فضلا عن ناحيتها السياسية، ومن ثم فهى محببة إلى قلوب المسلمين، وليس يجوز أن يظل العالم الاسلامى بدون هذا الرأس الذى اعتاد أن يتلق منه الهدى، قرونا طويلة . لذلك فكر كثيرون من الأمراء فى إعادة الخلافة وكان صاحب حلب وصاحب دمشق وقطز ممن اهتم بالمسألة، وبحث عن أحد رجال البيت العباسى ليعيد الخلافة فى شخصه .

لكن الذى تم له هذا الأمر هو بيبرس . فقد رأى أنه من المفيد له أن يعيد الخلافة ثم يتولى هو السلطنة بعده من الخليفة وبذلك يقوى مركزه إذ يجعله شرعيا، ويمكنه هذا من التفوق على نظرائه معنويا، ويمهد ذلك سبيل القضاء عليهم . فضلا عن أن هذا العمل يجعل لمصر قيمة خاصة فى تزعم العالم الاسلامى ، ومصر هى مركز عرش بيبرس وغيره . لذلك انصرف الملك الظاهر نحو هذه المسألة يوليها من عنايته وتفكيره ماتستحقه.

وقد روى المقريزى فى كتاب السلوك أنه فى سنة تسع وخمسين وستمائة وردت على الملك الظاهر وهو بالقاهرة مكاتبة من دمشق جاء فيها (إنه ورد إلى الغوطة رجل ادعى أنه أبو القاسم أحمد الأسمر بن الامام الظاهر ابن الامام الناصر، وهو عم المستعصم ، وأخو المستنصر، ومعه جماعة من عرب خفاجة فى قريب الخمسين فارسا ، وأن الأمير سيف الدين البغدادى عرف أمراء العرب المذكورين وقال بهؤلاء يحصل المقصود) . ونرى من العبارة الأخيرة بأن الملك الظاهر ونوابه كانوا يبحثون عن أحد أفراد البيت العباسى بحثا دقيقا . وأبو القاسم أحمد هذا فرّ من بغداد لما قتل هولاكو الخليفة بالله، ونزل عند خفاجة ، من عرب العراق ، مدة ثم أراد أن يلحق بالملك الظاهر بمصر. ويجدر بنا بهذه المناسبة أن نذكر أن مصر أصبحت مأمنا لكل من نجا العباسيين فيما بعد . فقد هبطها كثيرون ، لأنهم ضمنوا لأنفسهم مقاما هادئا بعيدا عن جو الدسائس والانتقام، وأكثرهم لم يشترك فى مكائد البلاط المملوكى فى تلك الأيام، على ما كان فيها من اغراء وإثارة أطماع .

فلما بلغ السلطان خبر قدوم أبى القاسم أحمد العباسى إلى دمشق كتب السلطان إلى نوابه بالقيام فى خدمته وتعظيم حرمته وأن يسير معه حجاب من دمشق، بأوفر حرية إلى جهة مصر. وخرج السلطان من قلعة الجبل بالقاهرة يوم الخميس تاسع شهر رجب إلى المطرية بظاهر مصر للقائه، وكان فى صحبته الوزير الصاحب بهاء الدين بن حنا وقاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز وسائر الأمراء وجميع العسكر وجمهور أعيان القاهرة ومصر ومعظم الناس من الشهود والمؤذنين . وخرج النصارى بالإنجيل . وهناك استقبل الأمير

العباسى استقبالا حافلا . فان الملك الظاهر لما وقع نظره على الأمير ترجل وعانقه . ثم سار به السلطان إلى باب النصر، ودخل إلى القاهرة وقد لبس الشعار العباسى وخرج الناس إلى رؤيته وكان اليوم من أعظم أيام القاهرة. وشق المدينة وصعد الى قلعة الجبل وهو راكب . وكان تصرف الملك الظاهر فى كل حركاته يدل على مبلغ احترامه للرجل الذى اختاره للخلافة ، وتقديسه للمنصب الذى يشغله . فانه لما وصل باب القلعة أبى أن يتقدم الامام أحمد . وأنزل أبو القاسم فى مكان جليل هيئ له ، وبالغ السلطان فى إكرامه وإقامة ناموسه .

وبعد أيام قليلة عقد السلطان مجلسا عاما كبيرا فى قاعة الأعمدة فى القصر وحضره قاضى القضاة ونواب الحكم وعلماء البلد وفقهاؤها وأكابر المشايخ وأعيان الصوفية والأمراء ومقدمو العساكر والتجار ووجوه الناس وحضر أيضا الشيخ عز الدين بن عبد السلام. فمثلوا كلهم بحضرة الأمير أحمد العباسى وجلس السلطان متأدبا معه بغير كرسى ولا طراحة ولا مسند. ثم شهد العربان وخادم من البغاددة بأن الأمير أحمد هو ابن الامام الظاهر بن الامام الناصر، ثم شهد القاضى جمال الدين والفقيه علم الدين وغيرهما كثيرون بمثل ذلك ، فقبل قاضى القضاة تاج الدين شهادات القوم وأسجل على نفسه بالثبوت وهو قائم على قدميه فى ذلك المحفل العظيم حتى تم الاسجال والحكم .

وكان أول من بايعه قاضى القضاه تاج الدين . ثم قام السلطان وبايع أمير المؤمنين المستنصر بالله أبا القاسم أحمد على العمل بكتاب الله وسنة رسول الله وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله وأخذ أموال الله بحقها وصرفها فى مستحقها . ثم تتابع على مبايعته الأمراء وكبار رجال

الدولة . فلما تمت البيعة قلد الخليفــة المستنصر بالله السلطان الملك الظاهر البــلاد الاسلامية وما ينضاف إليها وما سيفتح الله على يديه من البــلاد . وكتب فى الوقت نفسه إلى الملوك والنواب بسائر الممـالك أن يأخذوا البيعة عمن قبلهم للخليفة المستنصر بالله وأن يدعى له على المنابر ثم يدعى للسلطان بعده وأن تنقش السكة باسمهما .

ثم عقب ذلك ما يصح أن نسـميه حفلات التتـويج احتفاء بمبايعة الخليفة .

ففى أول يوم جمعة تلا المبايعة صلى الخليفة بالناس فى جامع القلعة وخطب فترضى عن الصحابة ، وذكر شرف بنى العباس ودعا للملك الظاهر فاستحسن الناس منه ذلك ، واهتم السلطان بأمره ونثر عليه جملا مستكثرة من الذهب والفضــه .

وبعد يومين ركب الخليفة والسلطان من قلعة الجبل إلى مدينــة مصر وركبا فى الحراريق وسارا فى النيل إلى قلعة الجزيرة وجلسا فيها . وأحضرت الشوانى الحربية فلعبت فى النيل على هيئة محاربتها العــدو فى البحر . ثم ركبا إلى الــبر وعادا إلى القلعة وقــد خرج النــاس لمشاهدتهما فكان من الأيام المشهودة .

وأراد السلطان أن تتخذ تولية الخليفة له شكلا رسميا ، فأقام لذلك حفلة جامعة فى يوم الاثنين الرابع من شهر شعبان . فضربت لذلك خيمة كبـيرة فى البستان الكبير خارج القاهرة . وركب إليها السلطان ومعه أهل الدولة . وحملت الخلــع . فدخل السلطان إلى خيمة أخرى وأفيضت عليــه الخلع الخليفية وخرج بهــا وهى عمامة سوداء مذهبة مزركشــة ودراعة بنفسجية

اللون وطوق ذهب وقيد من ذهب عمل فى رجليه وعدّة سيوف تقلد منها واحدا وحملت البقية خلفه ولواءان منشوران على رأسه وسهمان كبيران وترس . وقدّم له فرس أشهب فى عنقه مشدة سوداء . وطلب الأمراء ، واحداً بعد واحد، وخلع عليهم وعلى قاضى القضاة تاج الدين . ونصب منبر وجلل بثوب حرير أطلس أصفر ، فصعد عليه ابن لقمان ، صاحب ديوان الإنشاء، وقرأ تقليد الخليفة للسلطان . ولما فرغ من قراءته ركب السلطان بالخلعة والطوق الذهب والقيد الذهب ، وحمل التقليد الأمير جمال الدين وسار به بين يدى السلطان وسائر الأمراء ومن دونهم مشاة . ودخل الجمع من باب النصر وشق القاهرة وقد زينت ، وبسط أكثر الطرق بثياب فاخرة مشى عليها فرس السلطان . وضج الخلق بالدعاء بخلود أيامه وإعزاز نصره وأن يخلعهما خلع الرضى. فكان يوما مشهودا تقصر الألسنة عن وصفه.

ولما كان التقليد الذى أشرنا إليه يعطينا صورة صحيحة للانشاء الرسمى فى ذلك العصر، ويظهر العلاقات بين الخليفة والسلطان من الناحية الرسمية، ويوضح واجبات السلطان فى رعيته رأيت أن أختم هذا الحديث بمختارات منه . فقد جاء فيه، على لسان الخليفة، مخاطبا فيه السلطان .

” أمير المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع ، ويعترف أنه لولا اهتمامك لاتسع الخرق على الراقع . وقد قلدك الديار المصرية والبلاد الشامية والديار بكرية والحجازية واليمنية والفراتية ، وما يتجدّد من الفتوحات غورا ونجدا ، وفوض أمر جندها ورعاياها إليك حين أصبحت بالمكارم فردا ، ولا جعل منها بلدا من البلاد ولا حصنا من الحصون يستثنى، ولا جهة من الجهات تعد فى الأعلى ولا فى الأدنى .

” فلاحظ أمور الأمة فقد أصبحت لها حاملا ؛ وخلص نفسك من التبعات اليوم ففى غد تكون مسئولا لاسائلا ، ودع الاغترار بأمر الدنيا فما نال أحد منها طائلا ، وما رآها أحد بعين الحق إلا رآها خيالا زائلا . فالسعيد من قطع منها آماله الموصولة ، وقدم لنفسه زاد التقوى ، فتقدمة غير التقوى مردودة لامقبولة . وابسط يدك بالاحسان والعدل ، فقد أمر الله بالعدل وحث على الاحسان ، وكرر ذكره فى مواضع من القرآن ، وكفر به عن المرء ذنوبا كتبت عليه وآثاما ، وجعل يوما واحدا منها كعبادة العابد ستين عاما . وما سلك أحد سبيل العدل إلا واجتنيت ثماره من أفنان ، ورجع الأمر به بعد تداعى أركانه وهو مشيد الأركان ، وتحصن به من حوادث زمانه والسعيد من تحصن من حوادث الزمان ، وكانت أيامه فى الأيام أبهى من الأعياد وأحسن فى العيون من الغرر فى أوجه الجياد ، وأحلى من العقود إذا حلى بها عاطل الأجياد .

وهذه الأقاليم المنوطة بك تحتاج إلى نواب وحكام ، وأصحاب رأى من أصحاب السيوف والأقلام . فإذا استعنت بأحد منهم فى أمورك فنقب عليه تنقيبا ، واجعل عليه فى تصرفاته رقيبا . وسل عن أحواله ففى يوم القيامة تكون عنه مسئولا وبما أجرم مطلوبا ، ولا تول منهم إلا من تكون مساعيه حسنات لك لا ذنوبا . وأمرهم بالاناة فى الأمور والرفق ، ومخالفة الهوى إذا ظهرت أدلة الحق ، وأن يقابلوا الضعفاء فى حوائجهم بالثغر الباسم والوجه الطلق ، وألا يعاملوا أحدا على الإحسان والإساءة إلا بما يستحق ، وأن يكونوا لمن تحت أيديهم من الرعايا إخوانا ، وأن يوسعوهم برا وإحسانا ، وألا يستحلوا حرماتهم إذا استحل الزمان لهم حرمانا ، والسعيد من نسج ولاته

فى الخير على منواله ، واستنوا بسنته فى تصرفاته وأحواله ، وتحملوا عنه ما تعجز قدرته عن حمل أثقاله .

" ومما يجب أيضا تقديم ذكره أمر الجهاد الذى أضحى على الأمة فرضا ، وهو العمل الذى يرجع به مسود الصحائف مبيضا . وقد وعد الله المجاهدين بالأجر العظيم ، وأعدّ لهم عنده المقام الكريم ، وخصهم بالجنة التى لا لغو فيها ولا تأثيم . وقد تقدمت لك فى الجهاد يد بيضاء أسرعت فى سواد الحساد ، وعرفت منك عزمة ، هى أمضى مما تجنه ضمائر الأغماد ، وأشهى إلى القلوب من الأعياد .

" ولا تخل الثغور من اهتمام بأمرها تبسم له الثغور ، واحتفال يبدل مادجى من ظلماتها بالنور . واجعل أمرها على الأمور مقدما ، وشيد منها كل ما غادره العدو متهدما ، فهذه حصون بها يحصل الانتفاع ، وهى على العدو داعية افتراق لا اجتماع . وأولاها بالاهتمام ما كان البحر له مجاورا ، والعدو له ملتفتا ناظرا ، لا سيما ثغور الديار المصرية ، فان العدو وصل إليها رابحا وراح خاسرا ، واستأصلهم الله فيها حتى ما أقال منهم عاثرا .

" وكذلك أمر الأسطول الذى ترجى خيله كالأهلة ، وركائبه سابقة بغير سائق مستقلة . وهو أخو الجيش فان ذلك غدت الرياح له حاملة ، وهذا تكفلت بحمله المياه السائلة . وإذا لحظها جارية فى البحر كانت كالأعلام ، وإذا شبهها قال هذه ليال تقلع بالأيام .

" وقد سنى الله لك من السعادة كل مطلب ، وآتاك من أصالة الرأى ، يريك المغيب ، وبسط بعد القبض منك الأمل ، ونشط بالسعادة ما كان من كسل ، وهداك إلى مناهج الحق وما زلت مهتديا إليها ، وألزمك المراشد ،

ولا تحتاج إلى تنبيه عليها . والله يمدك بأسباب نصره، ويوزعك شكر نعمه، فان النعمة ستتم بشكره " .

وبمثل هـذا التقليد الرسمى أصبح موقف الملك الظاهر قويا شرعا وغدت القاهرة مركز الخلافة بعد أن فقد العرب بغداد إلى حين .

٧ ـــ شاعر دمشق

الأيام التى يجب على العرب أن يذكروها ويحيوها كثيرة ، وليس ذلك غريبا على أمة شغل تاريخها القرون الطوال ولا يزال يشغل ، وامتد سلطانها من الهند الى المحيط الاطلسى . ولسنا الآن بسبيل تعـدادها ، ولكن ثمـة عهـد يزهو على غيره من العهود ويدل بمكانته : هو عصر صـلاح الدين . ذلك انه يمثل فى تاريخ العرب يقظة بعـد فتور وقومة بعد هجوع ، وائتلافا بعد انقسام .

كانت أيام صلاح الدين وخليفته الملك العادل أياما غراء، تكاتف فيها الأمير والجندى والعامل والزارع والناثر والشاعر والعالم والمتعلم ليدفعوا أذى وقع عليهم ويقصوا مصيبة ألمت بهم أيام حاربوا الصليبيين فى سورية ومصر، وجاد كل فى تلك الأيام باعز ما لديه وأفرغ جعبته، فلم يضن بالروح أو المـال أو الولد. ولذلك نجح الجميع . فلما تم لهم النصر احتفوا به واستمتعوا بخيراته، وجاء خلفاؤهم فأتموا عملهم .

ليس غريبا ، والنفوس ثملة بخمر النصر والأرواح نشوى بالفوز الباهر والعقول تتفتق عن رائع انتاجها ليس غريبا أن تكثر المدارس وينتشر التعليم ويزهو الشعر ويكتب التاريخ ويزدهر الفكر . ليس غريبا أن تعـد فى هذا

العصر جماعة من خير من ظهر فى آفاق الفكر العربى كابن خلكان وابن عساكر والنيسابورى والقاضى الفاضل وعماد الدين وابن عنين .

وابن عنين الشاعر هو الذى نريد أن نتحدث عنه الآن . فهو من أهل القرن السادس للهجرة والقرن الثانى عشر للميلاد . ولد فى دمشق وبها نبه شأنه وبها مات لكنه شرق فى الآفاق وغرب، فأفاد من الرحلة كما أفاد من سماعه لكبار العلماء والمحدثين والنحويين والفقهاء وهو بعد يافع فى دمشق .

تفتقت شاعريته وهو بعد فتى غض الإهاب، ولعله رغب فى أن يشق طريقه الى المجد بسرعة فنال من أهل دمشق فى هجو مرير، لكنه تناول فى هجوه ما ثبت على الناس . إلا أن أولئك الذين آذاهم تربصوا به حتى أوغروا صدر صلاح الدين عليه، لأنه نال حتى السلطان بجارح كلامه، فحنق عليه ونفاه عن دمشق .

وهنا تبدأ رحلات ابن عنين التى تمتد سبع عشرة سنة يقضيها متنقلا فى الشام والعراق والجزيرة وأذربيجان وخراسان وخوارزم وما وراء النهر والهند واليمن ومصر . وكانت هذه البلاد قد أظلها الاسلام برايته وانتشرت فى أكثرها اللغة العربية لغة العلم والأدب، فكان ابن عنين يقضى بعض وقته فى مدح رجال الدولة فيها لينال منهم مالا، ولكن أكثر وقته كان يصرفه فى مجالس العلماء والأدباء وصحبة أولى الأمر والشأن، فنال من ذلك كله ثقافة واسعة ومشاركة فى الآداب رائعة، كانت له سندا وعضدا لما آن له أن يستوزر فى اليمن وفى الشام .

ولعل من أطرف ما حدث له وهو فى رحلاته أنه كان يحضر يوما درسا للامام فخر الرازى، وكان اليوم باردا والأرض يكسوها الثلج، فبيناهم كذلك

إذا بحمامة تدخل المجلس وخلفها طير من الجوارح يطاردها فتركها الجارح لما رأى الناس، فارتجل ابن عنين قائلا :

يا ابن الكرامِ المطعمين إذا اشتووا	فى يومِ مسغبةٍ وثلج خاشف
من نبأ الورقاء أن محلكم	حرم وأنك ملجأ للخائف
وفدت عليك وقد تدانى حتفها	فحبوتها ببقائها المستأنف
جاءت سليمان الزمانِ بشكوِها	والموت يلمع من جناحى خاطف
قرم يطاردها فلما استأمنت	بجنابه ولى بقلب واجف

والأيام التى تمتع فيها ابن عنين بعز ومجد، وهو مغترب عن دمشق، هى الأيام التى قضاها فى اليمن عند طغتكين وهو أخ لصلاح الدين ولا اليمن . فنزل ابن عنين عنده ومدحه وأعجب الملك بالشاعر وعرف قدره فقلده الوزارة وعندها استقر ابن عنين سنوات يعمل للملك و يمدحه و ينال من عطفه و بره حتى تجمع له مال كثير . ولكن أمرين كانا يحزان فى نفسه هذه المدة أولهما أنه لم يتمكن من أن يمتدح صلاح الدين بمناسبة انتصاره فى معركة حطين وثانيهما أنه لايستطيع العودة إلى وطنه : دمشق . وقد نظم ابن عنين كثيرا من الشعر يتوجع فيه لدمشق و يحن إليها . ومن ذلك ما قاله وهو باليمن .

وكم قيل لى فى ساحةِ الأرضِ مذهب	وعن وطرٍ فى النفس ميل الى الوطن
وما نافعى أن البلاد كثيرة	أطوف بها والقلب بالشام مرتهن
وما كنت بالراضى بصنعاء منزلا	ولو نلت من غمدان ملك ابن ذى يزن
عسى عطفة من جوده تعكس النوى	فألفى قرير العين بالأهل والوطن

والمشار اليه هنا فى قوله هو صلاح الدين . ولكن أدل من هذا على شوقه إلى دمشق قوله :

دمشق فبي شـوق اليهـا مـبرح ... وأن لج واش أو ألح عـــذول
بلاد بهـا الحصباء در وتربهـا ... عمـير وأنفـاس الشمال شمـــول
تسلسل فيها ماؤها وهـو مطلق ... وصح نسيم الروض وهـــو عليـل
وفى كبـدى من قاسيون حرارة ... تزول رواسـيه وليس تزول

ولكن لا شوق ابن عنين وتحرقه ولا سعى أصحابه وذوى المكانة غير من قلب صـلاح الدين، فلم يسمح له السلطان بالعودة إلى دمشق وهـو حى . فلما توفى صـلاح الدين حزم ابن عنين أمتعته وجمع ماله ، وهو كثير، واتجه نحـو الشام بطريق مصر . وكان صاحب مصر ابن صلاح الدين فلما نزلها ابن عنين طلب منه أن يدفع زكاة أمواله . فقال يهجو عزيز مصر، مقابلا بينه و بين عزيز اليمن :

ما كل من يتسمى بالعـزيز لهـا ... أهل ـ ولا كل برق سحبه غدقـة
بين العـزيزين بون فى فعالهما ... هذاك يعطى وهذا يأخذ الصدقة

ولم يبرح ابن عنين مصر إلى الشام إلا بعـد أن تولى القطرين الملك العادل . عندها تقدّم اليه ابن عنين بقصيدة مدحه فيها وذكر شوقه الى دمشق وطلب العفو، ونال بها رضى الملك العادل وعاد الى وطنه وأهـله ، واستمتع فى دمشق بمنزلة رفيعة أيام العادل وأيام خلفه الملك المعظم عيسى .

عاد الشاعر وقـد علمته أسفاره فوق ما علمته دروس النحـو والفقه والأدب ومجالس العلماء ، و رأى فيه الملك المعظم عيسى رجلا كامل الثقافة بعيـد النظر عارفا بأمور الدنيا عالما بأصول الفقه والحـديث فاصطحبه . وخادنه حتى أنه زاره فى بيته لما مرض . ولم يلبث حتى استوزره ، وان كان ذلك جاء متأخرا . وعندها نال ابن عنين ما كان يأمـله — فهو وزير

الملك القوى وشاعر البلاط الأول و يقيم فى دمشق ويجرى عليه الرزق سهلا يسيرا . وإذن فليمتع نفسه بعمل الخير وخدمة مليكه .

ومن أجمل ما قاله ابن عنين فى مدح الملك المعظم قصيدتان أنشدهما لمناسبة سيره لمساعدة أخيه فى مصر لإخراج الصليبيين من دمياط فقد جاء فى الأولى قوله .

ومستخبر عنى وما من جهالة — كشفت الغطا عنه وزال ارتيابه
وذكرته أيام دمياط بيننا — و بين العدى ، والموت يهوى عقابه
وجيش خلطناه رحاب صدوره — بجيش من الأعداء غلب رقابه
تركناهم فى البر والبحر لحمة — تقاسمهم حيتانه وذئابه

وقال فى الثانية :

سلوا صهوات الخيل تخبركم عنا — اذا جهلت آياتنا والقنا اللدنا
غداة لقينا دون دمياط جحفلا — من الروم لا يحصى يقينا ولا ظنا
قد اتفقوا رأيا وعزما وهمة — ودينا وان كانوا قد اختلفوا لسنا
فما برحت سمر الرماح تنوشهم — بأطرافها حتى استجار وا بنا منا
لقد صبروا صبرا جميلا ودافعوا — طو يلا ، فما أجدى دفاع ولا أغنى
سقيناهمو كأسا نفت عنهم الكرى — وكيف ينام الليل من عدم الأمنا

ويخص فى قصيدته المعظم عيسى بقوله :

لعمرك ما آيات عيسى خفية — هى الشمس للأقصى سناء وللأدنى
سرى نحو دمياط بكل سميدع — بحيث يرى ورد الوغى المورد الأسنى
فأجلى علوج الروم عنها وأفرجت — قلوب رجال حالفت قبلها الحزنا

⁂

لكن ابن عنين لم يقتصر فى مديحه على المعظم . فقد كان معجبا بملوك الأيوبيين لجهادهم فى سبيل بلاده وبلادهم، فلم يتأخر عن مدح أحد منهم، فلما دافع الملك الأشرف موسى عن حلب قال فيه قصيدة رائعة ، منها :

أنت الذى أجليت عن حلب العدى — وحميت بالسمر اللدان الموصلا
كم موقف ضنك فرجت مضيقه — وطريقه لخفائه قد أشكلا
كم يوم هول قد وردت ، وطعمه — مر المذاق كريه نار المصطلى

ومثل ذلك يقال فى غيرهم :

ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أن المديح الذى يقوم على أعمال من البطولة، والذى أساسه اعتراف الشاعر بحق الممدوح عليه مديح جميل . وابن عنين إذ ينظم قصائده فى ملوك الأيوبيين إنما يعبر عن رأى الناس فى سورية ومصر. لأن الأيوبيين رفعوا عنهم عادية الخطوب فحق لهم أن يشكروا ويمدحوا ووجب على الشعراء أن يتقدموا إليهم بمثل هذا الشعر العاطفى القوى تخليدا لمآثرهم واعترافا بفضلهم .

على أن شعر ابن عنين لا يقتصر على مديح الملوك والتوجع لدمشق أثناء أسفاره . بل إنه تناول ، شأن جميع الشعراء المعاصرين له ، فنون النظم وأساليب القصيد كلها ، حتى أنه نظم فى الألغاز ، ما دامت الألغاز شيئا يجوز قول الشعر فيه :

وشاعرنا يجيد الوصف والرثاء والهجاء . فمن جيد وصفه قوله فى دمشق :

أنّى اتجهت رأيت ماء سائحا — متدفقا أو يانعا متهدلا
وكأنما أطيارها وغصونها — نغم القيان على عرائس تجتلى

وكأنما الجوزاء ألقت زهرها فيها وأرسلت المجرة جدولا
ويمر معتل النسيم بروضها فتخال عطارا يحرق مندلا

وأما هجاؤه ففيه خفة ومرح، إلا إذا كان متألما من المهجو فانه يكون مؤلما . فمن النوع الأول قوله فى الملك العادل وكان قد قطع عنه رزقا :

إن سلطاننا الذى نرتجيه واسع المال ضيق الانفاق
هو سيف كما يقال، ولكن قاطع للرسوم والأرزاق

ومن ذلك قوله فى كحال أى طبيب عيون كان اسمه الصباغ :

لو أن طلاب المطالب عندهم علم بأنك للعيون تغور
لاتوا اليك بكل ما أملته منهم، وكان لك الجزاء الأوفر
ودعوك بالصباغ لما أن رأوا يغشى العيون لديك ماء أصفر
وبكفك الميل الذى يحكى عصا موسى فكم عين به تتفجر

ومن شعره قصيدة داعب فيها صديقا له أثناء إقامته فى مصر. وصديقه هذا هو سليمان بن موسى المصرى . أهدى سليمان ابن عنين خروفا هزيلا، فبعث إليه الشاعر بأبيات، جاء فيها وصفه للخروف بقوله :

أتانى خروف ما شككت بأنه حليف هوى قد شفه الهجر والعذل
إذا قام فى شمس الظهيرة خلته خيالا سرى فى ظلمة ماله ظل

المدينة فى الاسلام

١ — المدينة فى الاسلام

إن العرب قبل الإسلام غلبت عليهم البداوة فى جزيرتهم . فكانت حياتهم أساسها التنقل انتجاعا للمراعى ، وعمادها بيت يسهل تركه ، وخيام تضرب فى المكان أياما ثم تحمل إلى غيره ، وما أحسن ما وصف رحيلهم الحارث بن حلزة إذ قال :

أجمعوا أمرهم عشاء فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء

من مناد ومن مجيب ومن تصهال خيل خلال ذاك رغاء

فاذا اطمأنت جماعة منهم إلى ماء لا ينضب له معين ، فى قلب القفار الشاسعة ، وأرض تنبت الحب والنخيل ، وتغذو الإبل والشياه ، أقامت الجماعة فيه إقامة مازج بداوتها شئ من الحضارة ، ورافق الرعى بعض الصناعة ، واستقر القوم فى قرية أو بلد . وهذه واحات نجد تقوم شاهدا على ما كانت عليه تلك البلاد قبل الاسلام .

وقد تقع إحدى هذه الواحات فى طريق قافلة تحمل المتاجر من صقع إلى آخر ، فينشد رجالها مأوى فى الواحة ومطعما ، ويألف التجار النزول فيها والاستقرار ، ثم يتخذونها سوقا يتبادلون فيها السلع مع غيرهم ، بدل أن يقطعوا جميعهم المسافات البعيدة ، فيصبح المكان مدينة كبيرة ، كما كانت مكة قبل الاسلام . فقد جعلها موقعها على طريق القوافل بين الشام واليمن سوقا ومتجرا يهرع إليه البائع والشارى فيصيب كل طرفا وتحفا ،

ويحمل إلى أهله وبلده من غلات الأقاليم النائية ما عز وغلا . بل إن أهل مكة أنفسهم أصبحوا يحملون المتاجر التى كانوا ينقلونها من اليمن والشام . فمع أن مكة كانت فى واد غير ذى زرع ، فقد كان لها من تجارتها مصدر ثروة كبيرة، وكان سكانها أصحاب رحلة الشتاء إلى اليمن والصيف إلى الشام وقد ذكر ذلك فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾ . ونحن نلمح آثار هذه النعمة فيهم فى وصف قوافل التجار التى كانت تنتقل بين مكة ودمشق وصنعاء، فما كان أشبهها بحملات كبيرة يقوم على حمايتها جيش من الأحباش المأجورين لذلك . وما يحمى جيش إلا قافلة عظيمة الغنى ، كبيرة المتجر .

إلى هذين اللونين من الحياة العربية قبل الإسلام — لون البداوة المحضة، والحياة التجارية المتركزة حول السوق — يمكن أن نضيف حياة متحضرة على خير ما عرف العالم القديم . حياة أساسها استغلال الأراضى فى الزراعة وجمع الماء خلف السدود لإروائها وتوسيع مدى عمل الإنسان فيها ، واستثمار سفوح الجبال فى زراعة الفواكه، بل والتنقيب عن الثروة المعدنية فى باطن الأرض . كل هذه الأعمال عنوان حياة حضرية قوامها سكنى المدن وتجمع الناس والتعاون بينهم، وتنظيم العمل، وتبادل المنافع والمرافق . وهذه صنعاء ومأرب وغيرهما من مدن اليمن تشهد بأن أهل تلك البلاد كانوا يعيشون فى المدينة والقرية، لا فى الخيام و بيوت الشعر. وهذا سد مأرب هو كما قال فيه الشاعر :

رخام بنتـه لهم حمير	إذا جاء مـواره لم يرم
فأروى الزروع وأعنابها	على سعة ماؤهم إذ قسم

وكانت للعرب قبل الإسلام مدن أخرى فى مشارف الشام والعراق . كانت لهم البتراء وبصرى وتدمر والحيرة . مدن قامت حيث مرت طرق القوافل ، فكانت مراكز للتجارة ، وكانت فضلا عن ذلك مراكز للمدنية . فثمة الشوارع الجميلة والأعمدة البديعة النقوش والهياكل الفخمة . وهذه المدن التجارية اعتمدت حياتها على مرور المتاجرين منها، فلما انقطع سيلهم لسبب من الأسباب أفل نجم المدينة ، وخربت ، ولم يبق منها أو من بعضها على الأقل ، إلا الأطلال التى تشير إلى أيام الثروة والرخاء .

هذه نظرة عامة إلى ألوان الحياة من حيث تجمع الناس فى بلاد العرب قبل الإسلام . فلما نزل الإسلام بين العرب وغير حياتهم هذا التغيير الذى نعرفه ، والذى حملهم من قفار بلاد العرب إلى سهول الهند وجبال طوروس وشواطىء البحر المتوسط ، وسواحل المحيط الأطلسى ، كان طبيعيا أن يتغير لون حياتهم ، ونظام معيشتهم ، وطرق توزيع السكان . فقد احتلوا بلادا كانت للحياة الزراعية فيها قبلهم دولة، وفتحوا أقطارا كانت تجارتها راسخة ، ونزلوا أصقاعا ثبتت صناعتها على غير الزمن ، وكانت المدن فيها معروفة مأهولة،وحياة المدينة عماد تنظيمها السياسى والاقتصادى والاجتماعى .

انتقل العرب إلى محيطهم الجديد ، ونقلوا معهم مثلهم العليا الجديدة التى جاء بها الإسلام ، ولغتهم الحية الناضجة التى نزل بها القرآن ، ونشاطهم وحيويتهم وعواطفهم . ومزجوا ذلك بأدب الفرس وعلم اليونان و إدارة الرومان ، نخرج للعالم من كل ذلك المدنية الإسلامية العربية التى انتشرت بدورها من المدن التى عمرها العرب .

وهذه المدن التى ازدهرت فى العصور العربية المختلفة كان بعضها مما بنته الأقوام السابقة ، فسكنه العرب وأصلحوه و إن كان قد أهمل أو تهدم

وبعضها مما أنشأه العرب من جديد وهذا هو النوع الذى أريد أن أتحدث عنه وأنا واثق من أن المجال لا يتسع لهـذا البحث كله ، ولذلك فاننى أنوى أن أعرض للأمر من نواحيه العامة .

جاء بناء المـدن واختطاط المنازل فى الدولة العربية أمرا طبيعيا بعـد احتلال المدن وفتح الأقطار ، فما كان لهم وهم بدو بعيدون عن حياة الترف والدعة، أن يفكروا فى المـدن والأمصار . فلمـا اضطروا إلى إدارة البـلاد المفتوحة ، وعرفوا منازع الحضارة عمروا المدن، وكانوا كلما أمعنوا فى الملك والاستقرار انتشرت مدنهم واتسعت . وقد خضعت المدن التى أنشأتها الدول لأغراض سياسية خاصة لقاعدة الخراب مع زوال الدولة ، أما المدن التى قامت على أسس صحيحة من حيث الموقع والمناخ فقد عمرت طويلا ، ولا يزال الكثير منها قائما إلى الآن كالبصرة وعيذاب و بغداد والقاهرة .

وكانت أقـدم الأمم التى أنشأها العـرب البصرة والكوفـة والفسطاط والقيروان وواسط . ونحن إذا استعرضنا هذه المدن وجدنا أن أصلها مراكز لجند ، فقد كانت البصرة معسكرا للجند قبل بنائها مدينة بنحو ثلاث سنوات ثم اختطت المدينـة لتكون مركزا للجنـد ولإدارة جنوب العراق المفتوح ، وأصبحت البصرة والأبلة فيما بعد مركزا تجاريا لمنطقة شط العرب . و بعد القادسـية أمر عمر سعد بن أبى وقاص باتخاذ معسكر للجند فى أواسط العراق فأقيم المعسكر سنتين ثم بنيت الكوفة فى موضعه بناها سعد بأمر عمر . ولمـا فتح العرب مصر واحتلوا الإسكندرية أراد عمرو بن العاص أن يتخذها عاصمة لمصر ، فكتب إلى عمر، فلما عرف الخليفة أن النيل إذا امتلأ يفصل بينه و بين المسلمين، منع عمرا إتخاذها عاصمة . وأمر أن تكون الفسطاط عاصمة

مصر ، فكان ذلك أصل هـذه المدينة . وكذلك فتح عقبة بن نافع شمال أفريقيا . واحتاج إلى مركز للعمليات الحربيـة . ودار للتمرين والسلاح ولمهاجمة البلاد الباقية ، فبنى القيروان بالقرب من تونس الحالية ، ولما ولى الحجاج إدارة العراق ، وهدأ ثورته على الأمويين ، أراد أن يتخـذ له مركزا لإدارته ومقرا لجنده بحيث يكون بين البصرة والكوفة . وبحيث يبق جنده الشامى بمعزل عن جند العراق وأهـله ، فبنى « واسط » بين المدينتـين المذكورتين واتخذها مقرا لعسكره .

وبناء المدينـة والادارة والفتـح أمر طبيعى لأن الدفاع عنها أسهل من الدفاع عن المعسكر المكشوف فى حالة قيام ثورة . وقد عرض ابن خلدون لذلك إذ قال " إن القبائل والعصائب إذا حصل لهم الملك اضطروا إلى الاستيلاء على الأمصار . لدفع ما يتـوقع على الملك من أمر المنازعين والمشاغبين ... فيعتصم (صاحب الأمر) فى المصر ويغالبهـم . ومغالبة المصر على نهاية من الصعوبة والمشقة . والمصر يقوم مقام العساكر المتعددة لما فيه من الامتناع ونكاية الحرب من وراء الجـدران من غير حاجة إلى كثير عدد ، ولا عظيم شركه " .

وينطبق هـذا القول بشكل خاص على نوع من المدن عنى العرب به فى العصرين الأموى والعباسى بشكل خاص . ذلك أنهم لما لم يتمكنوا من التغلب على الدولة البيزنطية واضـطروا إلى الوقوف فى جبال طوروس وأرمينية ، عمروا مـدنا كثيرة كانوا يسمونها الثغـور أو العواصم ، كانت أكبرها ملطية . وقد كانت الغاية من هذه أن يقيم فيها الجند فى فصل الشتاء حتى إذا بدت طلائع الصيف قاموا منها بحملات عسكرية ضد البزنطيين ،

وهذه بقيت معسكرات . والحق أن العرب لم ينشئوا هنا مدنا جديدة لكنهم عمروا بلدانا كان العصر قد أناخ عليها بكلكله فتهدّمت وعفت آثارها .

ومما يلفت النظر فى حياة المدينة فى العالم الاسلامى أن كل دولة قامت اتخذت لها عاصمة جديدة . فقد كانت المدينة عاصمة النبى الكريم وعاصمة خلفائه الراشدين حتى انتقل علىّ إلى الكوفة . فلما قامت دولة الأمويين اتخذت دمشق عاصمة لها ودمشق أقدم من الأمويين لكن دمشق العربية أموية المولد والنشأة، وهو الأمر الذى حافظت عليه دمشق إلى يوم الناس هذا . أما العباسيون فلم يتخذوا مدينة قديمة خاصة و إنما أنشأ المنصور بغداد لتكون عاصمة للفكرة الجديدة والخلافة الجديدة والملك الجديد . فكانت بغداد فى اختيار مكانها وتخطيطها وسكانها ممثلة للحركة التى عرفها العالم الاسلامى على أيدى العباسيين . ومثل عمل العباسيين فى العراق ، عمل الفاطميين فى مصر فقد كانت القيروان عاصمتهم حتى فتح جوهر مصر وبنى القاهرة عاصمة الدولة الجديدة ونحن لا ننكر أن المدينة الجديدة أقيمت على مقربة من عواصم مصر الاسلامية السابقة كالفسطاط والعسكر والقطائع ، لكن بناء القاهرة كان إعلانا للناس بأن عهدا جديدا قد انبثق بفجره فى مصر . وهكذا كانت كل من بغداد والقاهرة حصنا للدولة التى قامت بانشائها ورمزا لسياستها .

على أن إنشاء المدن وانتقال الناس اليها واستقرارهم فيها ، وعنايتهم بالصناعة والتجارة أمر طبيعى متصل بنوازع الحضارة . ونمو الملك واتساعه فكلما اتسعت رقعة الدولة وانتشر الأمن فى ربوعها ، وتقارب الناس فى مصالحهم وتعاونوا فى سبيل الجماعة ، كان نشوء المدن أمرا ضروريا .

وعندها يتحتم على أولياء الأمر أن يتعهدوا هـذه الحركة و يوجهوها توجيها صالحا يحول دون اضطراب الأمور فيها . وقـد انتبه الأمراء والخلفاء إلى ذلك ،فعنى سيف الدولة بالمدن فى مملكته على نحو ماحدث فى بنائه عينتاب واهتم الأمويون بقرطبـة ووجه بنو الأحمر عنايتهـم الى غرناطة . كما عنى الخلفاء ببناء المدن التى كانت الغاية فيها المتعة والسرور ، مثـل سر من رأى (سامراء) والمتوكلية والزهراء ، والزاهرة . وهـذه أشبه شىء بالحدائق الغناء ، والقصور الفسيحة التى تبنى فى العالم المتمدن اليوم . وكان انشاء هذه المـدن فى عصر نمت فيه ثروة العالم الاسلامى ، وبلغت حضارته الأوج ، فأصبحت مدنه ومدارسه يتعلم فيها العالم المعروف عندئذ .

والمدن العربية التى أنشئت فى صـدر الاسلام تعين موقعها بنسبة الغاية منها . فقد كان عمر يعنى بصحة جنده و يحب ألا يحول بينه ماء، وعلى هذا الأساس بنيت البصرة والكوفة والفسطاط وقد روى المؤرخون أن نفرا من جند العراق وفـد على عمر ، فرأى اصفرارا فى وجوههم ، ولما عرف أن الهواء الفاسـد هو السبب أمر أن يفتش عن مكان نقى الهواء يتخذ معسكرا لهم ، فاتخذ معسكر الكوفة ، ثم بنيت المدينة التى تحمل الاسم نفسه بعد ذلك بمدة قصيرة .

ونحن إذ نروى رغبة عمر فى ألا يفصل بينه و بين المسلمين ماء، نود أن نلاحظ أن كل المـدن التى نشأت فى صدر الاسلام فى العراق كانت غربى الفرات أو دجلة ، مثل الكوفة والبصرة وواسـط . ونعتقد أن ثمة أمرين يفسران هـذه الخطة ؛ أما الأول فالناحية الصحية وهى التعرض لهـواء الصحراء الجاف ، وهـو الذى يغلب على تلك الأماكن، فلوكانت المـدن

شرق النهر كان هواؤها رطبا ؛ أما الثانى فهو هذه الطبيعة البدوية التى كانت ترشد الفاتحين والغزاة والقواد فى ذلك العصر ، وهو أن يكونوا على آخر حجر من الصحراء وأول مدر من العراق ، وهـذا الأمر على بساطته يسهل على البدوى أن ينتقل من خيمته الى المدينـة ، و بذلك تبق المدينة على اتصال بالأم التى يأتى منها ، الحين بعد الحين ، مدد من العنصر النشيط . فكانت المدينة هناك كما يقول ابن خلدون ، لها ضواح من البادية فيهـا مادة يفيدها العمران بترادف الساكن من بدوها . و بذلك تعمر المدينة حتى بعد انقراض الدولة التى أنشأتها .

أما تخطيط المدينـة فى الاسلام فـلم يكن له قواعد موحدة ، ذلك أن إنشاءها كان يتأثر بالمدن الموجودة فى ذلك الصقع نفسه ؛ فالبصرة مثلا كانت مقسمة خمسـة أقسام تسمى بالاخماس ، نزلت فى كل خمس منها قبيلة ، وجعـلوا عرض شارعها الأعظم ستين ذراعا وهو المربد ، وجعـلوا عرض كل زقاق سبع أذرع ، وجعلوا وسط كل خمس رحبة فسيحة مربطا للخيول ؛ و بنيت بيوتها بالقصب أولا ثم خيف الحريق فبنيت باللبن ، وأمر الكوفة يشبه أمر البصرة .

وقد مر بنا ذكر الغاية التى من أجلها بنى عقبة بن نافع القيروان ، وكانت طريقته أن اختط بها المسجد ، ثم دار الأمارة ، ثم بيوت الجند . و بنـاء المسجد أمر أساسى فى كل بلد بناه المسلمون .

ويمثل بناء بغداد والقاهرة درجة خاصة من العناية الفنية التى سمحت بها الأحوال الخاصـة التى أحاطت بهاتين المدينتين . أما بغداد فقد عنى المنصور بنفسـه بأمرها . كانت مستديرة يبلغ قطرها نحوا من ثلاثة آلاف

متر إذا اعتبر سورها الخارجى حدًا لها ؛ وقد اختطت بالرماد أولا ، إذ وضعت كُل من القطن مغموسة بالنفط على الأرض واحترقت ، ثم حفر الخندق الدائرى . وقسمت أربعة أقسام متساوية ، وجعلت للمدينة أربعة أبواب يبعد الواحد منها عن الآخر ربع دائرة تماما . وليس من شك فى أن هذه الخطة كانت أمرا جديدا فى الاسلام ، ويعزو بعض المؤرخين هذه الفكرة الى تأثر المنصور بفن البناء الفارسى . وكان المسجد والقصور فى مركز المدينة . وقد استقدم المنصور المهندسين ومهرة العمال من أقطار العالم العربى وعمل فى بناء بغداد مائة ألف عامل وتم بناؤها سنة ١٤٥ ﻫ .

أما القاهرة فقد وضع جوهر أساسها فى الليلة التى دخل فيها الفسطاط (١٧ شعبان ٣٥٨ — ١٧ تموز ٩٦٩) بنى جوهر قصر الخليفة وأقام حوله السور ، ثم اختطت القبائل التى كانت مع جوهر خططا وحارات حول هذه المنطقة . وجاء بناء الأزهر متأخرا عن بناء القاهرة قليلا ، ذلك أن جوهرا رأى ألا يفاجئ المصريين بتغيير فى مذهبهم السنى ، فاكتفى بمساجدهم حتى استوثق من قوة جند الخليفة الفاطمى فبنى الأزهر ، وبدأ ينشر الدعوة الشيعية .

ولسنا نريد أن نعرض فى هذا الحديث القصير إلى المدن التى آختطها الخلفاء والملوك والأمراء للترف والبذخ والسرور ، والتى قامت وقد بلغت الدول الاسلامية غاية فى الثراء واتساع الرقعة والنعيم الحضرى ، فقد كان طبيعيا أن تبلغ من الجمال والأناقة ما بلغته الزهراء وغرناطة .

على أنه يتعين علينا أن نلق نظرة عجلى إلى السكان الذين نزلوا هذه المدن عند إنشائها ؛ ذلك لأن هذه المسألة كبيرة الأهمية فى توضيح الكثير من

نواحى النشاط الفكرى والعقلى والسياسى بل ومن نواحى الخصومات التى عرفت عن كثير من المدن العربية والاسلامية فى عصورها المختلفة . ونحن نرى أن الكوفة والبصرة والفسطاط قد سكنها أول الأمر الجند الذين عسكروا فيها ومن انضم إليهم من قبائلهم؛ فكانت البصرة يسكنها الأزد وتميم بكروعبد القيس وأهل العالية أى بطون قريش ، ونزل الفسطاط بنو يشكر وبنو الأزرق وغيرهم ولما نزل أهل برقة القاهرة اختطوا حارة البرقية،وكان سكان واسط العراق جند الحجاج الشامى ، لكن هذا الحال لم يدم فسرعان ما هبط البصرة أتراك نقلوا إليها من بلاد ما وراء النهر ، كما نقل منهم جماعة إلى واسط. ونحن نعرف أن سياسة نقل السكان كانت مما يلجأ إليه فى سبيل القضاء على الفتنة، ولا بد أن مدن العراق الجديدة نالها منهم نصيب؛ وقد كان سكان سامراء بادىء ذى بدء أتراكا هم جند المعتصم وحرسه .

وأكثر ما يكون اختلاط الناس فى المدن التجارية . فالبصرة والقيروان مثلا اختلط فيها السكان بحكم الموقع التجارى ، وإن كان الاختلاط أكثر فى الأولى منه فى الثانية بسبب قربها من البلاد المختلفة الاجناس . ويمثل نمو البصرة نمو المدينة العربية التجارية ، فقد بلغ عدد سكانها سنة خمسين للهجرة، أى بعد بنائها بجيل واحد، ثلثمائة ألف . واتسعت عمارتها فى أيام الأمويين حتى بلغت مساحتها وضواحيها ستة وثلاثين ميلا مربعا ثم زادت ثروتها فى أيام العباسيين لاجتماع التجار فيها ، وكانت تجارتها تمتد الى الهند والصين واقصى المغرب والحبشة . وقد قال ابن حوقل فى وصف متنزهاتها « وهى موصوفة بالمجالس الحسنة ، والمناظر الأنيقة ؛ والميادين العجيبة ، والفواكه البديعة ، والبرك الفسيحة ، لا تخلو من المتنزهين ، ولا تعرى من

المتطرقين، منحدرين ومصعدين » . واشتهر أهل البصرة بالاسفار التجارية إلى كل الجهات حتى ضرب المثل بهم فقيل « أبعد الناس نجعة فى الكسب بصرى وخوزى . ومن دخل فرغانة (فى الشرق) والسوس الأقصى (فى الغرب) فلا بدّ أن يرى فيها بصريا أو خوزيا » .

والفسطاط ، وهى اليوم آثار دارسة ، كانت إلى قبل بناء القاهرة عظيمة متسعة، إذ لم تلبث بعد أيام عمرو بن العاص حتى أصبح فيها عشرون من الخطط ، ثم اتسعت حتى بلغ طولها على ضفاف النيل ثلاثة أميال . وقد قال فيها الشريف العقيلى :

أحن إلى الفسطاط شوقا وإننى — لأدعو لها ألا يحل بها القطر
وهل فى الحيا من حاجة لجنابها — وفى كل قطر من جوانبها نهر
تبدّت عروسا والمقطم تاجها — ومن نيلها عقد كما انتظم الدر

ولسنا نقصد أن نتابع نمو المدن الاسلامية فى عصورها المختلفة، فهذا أمر تضيق عنه الكتب بله الحديث المقتضب . ولعل فيما أشرنا إليه الكفاية .

والمدينة تمثل فى حياة الدولة العربية المبكرة دورا كبير الأثر من الناحية القومية . فقد كانت عصبية عرب الجاهلية قبلية محضة، فلما جاء الاسلام صارت حياتهم أساسها الدين ومثله . واهتم الأمويون بالعصبية العربية القومية وبتعريب الادارة ، وكانت اللغة العربية قد انتشرت فى كثير من الأصقاع خصوصا فى المدن التى بناها العرب . ولما عمر العرب المدن وسكنوها حلت عصبية المدينة مكان عصبية القبيلة حتى إننا نرى أبناء القبيلة الواحدة فى البصرة يقاتلون اخوانهم من نفس القبيلة فى الكوفة .

ففى وقعة الجمل كانت الحرب بين البصرة والكوفة ، فلما نشب القتال تصدرت قبائل اليمن البصرية لقبائل اليمن الكوفية ، ونزلت قبائل مضر إلى مضر، وربيعة إلى ربيعة . وكذلك فى معركة صفين، وهى بين أهل الشام وعلى رأسهم معاوية وبين أهل العراق وقائدهم على ، فلما التحم القتال استحث على من معه من القبائل على اخوانهم فى معسكر عدوه .

على أنه لما عنى الأمويون بالدولة العربية على أساس عروبة اللغة والنسب والفكر والأدب والشعر، أصبحت المدن مراكز لهذه الحركة القومية التى لم يكتب لها عمر طويل لأن الدولة الأموية قضت سريعا . أما فى زمن العباسيين فقد أصبحت العواصم والمدن الكبرى مركزا للتعريب الفكرى والعقلى والعلمى .

والمدينة العربية ، شأن كل مدينة فى العالم القديم والحديث، كانت مركز الحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية : منها قامت المدارس ونشأت الجامعات وعقدت مجالس الأدب والمناظرة ؛ وفى هذه الحلقات المختلفة نضجت الحياة العقلية الاسلامية العربية وأتت ثمرها . ومن هذه المدن فى العراق وسورية ومصر وصقلية والأندلس انتشرت الآراء والأفكار التى نقلت أوروبا من عقلية القرون الوسطى الى النهضة الحديثة . هذه هى الخدمة التى قدمتها المدينة العربية ، وهى شبيهة بما قامت به المدينة اليونانية والرومانية للتمدن .

والفرق بين أثر الحضارة اليونانية والرومانية وأثر الحضارة الاسلامية فى بلادنا هو أن هذه الحضارة كانت وسيلتها اللغة العربية التى انتشرت فى المدينة والريف ولذلك تركت لنا وحدة روحية قومية لاسبيل إلى التغلب عليها .

فى دور العلم الاسلامية

كانت دار العلم فى مقدّمة الأمور التى عنى بها المسلمون، وكان المسجد أول مكان اتخذ لتعليم القرآن الكريم والحديث الشريف، فكان أول دار علم فى الاسلام . والحديث عن دور العلم فى الاسلام حديث طريف لا أطمع فى أكثر من اجماله الآن . وكلى أمل فى أن أثير رغبة القراء الكرام الى تقصى أخبار هذه المؤسسات، لعلهم يظفرون ببعض المتعة التى ظفرت بها، وأنا أقرأ .

وليس من السهل أن يجمل المرء أخبار المدارس التى انتشرت، فى مدى ستة قرون أو أكثر، من الهند الى البرانس، ومن طوروس الى عدن، فى مثل هذه الصفحات القليلة . هذه المدارس التى كانت منارا يهتدى به فى ظلمات الجهل الحالكة، التى كانت تكتنف العالم الخارج عن نطاق الدول الاسلامية فى القرون الوسطى .

بدأت دور العلم فى الاسلام فى المشرق، بالعناية بالقرآن وعلوم الشريعة واللغة . فلما تعرّف العرب الى علم اليونان وفلسفتهم ومنطقهم نقلوا عنهم، وعربوا ما أخذوه ، فصار جزءا من حياتهم الفكرية ؛ ان تعليا وان كتابة . فصارت دور العلم تعنى بالرياضيات والطب والفلك عنايتها باللغة . فلما طغى الأتراك وغيرهم على المشرق، بعد القرن السادس الهجرى، اتخذوا من بعض دور العلم وسيلة للدعاية السياسية والتقرب من الجماهير ، فضعفت الحياة العلمية فى دور العلم ، وغلب عليها لون من التعليم الدينى والسياسى . أما فى الأندلس ، التى تتعرض لمثل هذا المؤثر، فقد بقيت دور العلم فيها مراكز للبحث العلمى الخالص الى آخر عهد العرب فى البلاد، بل قد استمرت

التقاليد العلمية التى أورثتها جامعات تلك البلاد حية هناك قرونا عديدة ، بعد زوال الملك العربى .

وقد تركزت دور العلم فى عواصم الاسلام الكبرى فى بغداد والقاهرة وقرطبة ، وفى عواصم الأقاليم والدويلات التى نشأت فى ظلال الخلافة العباسية مثل نيسابور ودمشق والقدس والقيروان وغرناطة وأشبيلية .

كانت علوم الدين واللغة تشمل ، بالإضافة الى ما يتبادر الى الذهن مباشرة ، التشريع والتاريخ والمسائل المالية ، لأن كل هذه كانت جزءا أساسيا لازما لفهم القرآن الكريم وأحكامه فى الإدارة والجزية والزكاة . وكانت العلوم الأخرى ، التى سميت العلوم المنقولة ، تشمل الرياضيات والطب والفلك . وهذان العلمان كانا يدرسان دراسة علمية عملية فى البيمارستانات أى المستشفيات والمراصد .

كان المسجد أول دار للعلم كما قلنا قبلا . لكن ذلك لم يطل . فقد لوحظ أن المناقشة قد تؤدى الى الخروج عن الأدب الذى تجب مراعاته لبيت الله ، فخرج الناس الى غيره لمثل هذه المحاولات . وكان ذلك فى القرن الرابع الهجرى . وفى زمن نظام الملك الوزير السلجوقى ، أى فى القرن الخامس الهجرى ، بنيت المدارس الرسمية . لكن قبل ذلك كان قد بنى الخلفاء والأمراء دورا للعلم والحكمة ، كانت تحوى كل منها مكتبة تفتح لطلاب العلم وأهله ، و بعضها يجرى فيها أرزاق على المشتغلين بالعلم ، و بعضها كانت مراكز للنقل والترجمة ، ونلاحظ أنه منذ أواخر القرن الرابع الهجرى كان لكل جامع كبير مكتبة . وكانت هذه المكتبة تسمى (خزانة الحكمة) . ثم زيد التعليم على هذه الخزائن . فمن ذلك ما روى ياقوت فى الارشاد أن أبا القاسم

الفقيه الموصلى، أسس دارا للعلم فى بلده وجعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم، ووقفها على طلاب العلم، فلم يمنع أحد من دخولها، وإذا جاءها غريب يطلب الأدب، وكان من المعسرين، أعطاه ورقا وورِقا . وكان أبو القاسم نفسه يجلس فيها، ويجتمع اليه الناس فيملى عليهم شعره وشعر غيره وحكايات وطرفا من الفقه .

وتلا فترة خزائن الحكمة هذه عصر زهت فيه دور للعلم كانت مراكز للبحث . وفى مقدّمتها بيت الحكمة البغدادى ودار العلم القاهرية . أما الأول فقد أنشأه الرشيد وعظم شأنه فى زمن المأمون، ثم تضاءل بعده . وقد استخرج الدكتور خليل طوطح أن الفلسفة والعلم كانا الموضوعين الرئيسيين فى برامج دروسه . على أن رسالة بيت الحكمة الأساسية كانت ترجمة الكتب اليونانية الى العربية على يد ابن ماسويه وابن إسحق . وقد كان سلم خازن بيت الحكمة فى زمن المأمون . وممن حاضر فيه الخوارزمى .

وأما دار العلم القاهرية فقد أنشئت فى زمن الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥هـ، وأمر فحملت اليها الكتب من خزائن القصور المعمورة، (ودخل سائر الناس اليها يقرءون وينسخون ، واقيم لها خزان وبوابون ورتب فيها قوم يدرسون للناس العلوم) وقد روى المقريزى أخبار دار العلم هذه ، ومن طريف ما وصل إلينا على يديه ميزانيتها . فقد كان ينفق عليها مائتان وسبعة وخمسون دينارا (أى نحو مائة وثلاثين جنيها) فى العام الواحد منها تسعون دينارا ثمن الورق وثمانية وأربعون دينارا أجرة الخازن وخمسة عشر دينارا للفراشين والباقى للحبر والأقلام ولمرمة الكتب والأستار ولطنافس الشتاء وثمن الماء .

أما المدارس التى عرفها الشرق الإسلامى فيما بعد فأهمها النظامية التى أنشأها نظام الملك السلجوقى وكان الغرض منها نشر المذهب الشافعى ، ولذلك كان اتجاهها دينيا فقهيا قبل كل أمر آخر . وتمثل النظامية دورا جديدا فى المدرسة الاسلامية من حيث اشراف الدولة عليها اشرافا تاما . فقد كانت نفقاتها من الخزانة الرسمية كما كان اختيار أساتذتها ومدرسيها بيد الخليفة . ومن كبار من درّس فيها الغزالى وبهاء الدين صاحب كتاب المحاسن اليوسفية فى حياة صلاح الدين الأيوبى .

وقد زار ابن جبير المدرسة النظامية فى القرن الخامس وترك لنا صورة طريفة للتدريس بها رأيت أن أنقلها لكم قال "فأول من شاهدنا مجلسه منهم (أى فقهاء بغداد) الشيخ الإمام رضى الدين القزوينى رئيس الشافعية وفقيه المدرسة النظامية والمشار اليه بالتقدّم فى العلوم الأصولية . حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة اثر صلاة العصر من يوم الجمعة ... فصعد المنبر وأخذ القرّاء أمامه فى القراءة على كراسى موضوعة ، فتوقوا وشوقوا وأتوا بتلاحين معجبة ونغمات مطربة ... ثم اندفع الشيخ الامام المذكور (القزوينى) فخطب خطبة سكون ووقار وتصرف فى أفانين من العلوم من تفسير كتاب الله عز وجل وإيراد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والتكلم على معانيه . ثم رشقته شآبيب من المسائل من كل جانب فأجاب وما قصر ، وتقدم وما تأخر، ودفعت اليه عدّة رقاع فيها فجمعها جملة فى يده وجعل يجاوب على كل واحدة منها وينبذ بها الى أن فرغ منها وحان المساء فنزل وافترق الجمع . فكان مجلسه مجلس علم ووعظ . وحضر ابن جبير مجلسه يوم الجمعة التالى . والذى يخيل الينا أن هذا المجلس، الذى كان أسبوعيا، لم يكن يقصد به

طلبة العلم النظاميون ، بل كان من نوع المحاضرات العامة والمناقشات التى تقوم بها الجامعات الآن رغبة فى تيسير العلم للجمهور. والظاهر أن مثل هذه المجالس كان شائعا فى المدارس الكبرى، فضلا عن الدروس التى كان الطلاب يتلقونها بانتظام .

وفى السنة ٦٣١هـ (١٢٣٤م) أنشأ الخليفة العباسى المستنصر بالله المدرسة التى عرفت باسمه . وقد ترك لنا الرحالون المؤرخون أخبار المستنصرية تحصلنا لها على صورة تكاد تكون تامة . فقد فاقت كل ما سبقها من حيث فخامة البناء وسعته، وجمال التأسيس وأناقته، وكان فيهما أربعة أروقة كبيرة كل واحد منها خاص بواحد من المذاهب السنية الأربعة . ولكل فقيه خاص يرأسه . كان عدد طلابها ثلاثمائة موزعين بالتساوى على الأروقة الأربعة، كلهم كانوا يتلقون العلم بالمجان، ويعطى لكل طالب دينار واحد بالشهر ينفق منه على شؤونه . أما الطعام فكان يتناوله الجميع من مطبخ المدرسة الكبير . لكن العناية بالطلاب لم تقتصر على الأكل والمسكن بل كانت الأقلام والمحابر والأوراق والمصابيح تقدّم لهم، وكان فى المدرسة مكان تحفظ فيه المياه الباردة للشرب . أضف الى كل هذا الحمام الذى كان مفتوحا للطلبة والمستشفى التابع للمدرسة لمعالجة المرضى منهم ، وكان له طبيب خاص .

والظاهر أن المدرسة المستنصرية سلمت من يد هولاكو لما احتل بغداد ودمرها سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨ م). فقد رآها ابن بطوطة بعد ذلك بنحو مائة عام ووصفها بقوله "وفى آخر سوق الثلاثاء المدرسة المستنصرية ونسبتها الى أمير المؤمنين المستنصر بالله ... وبها لكل مذهب إيوان ... (ويكون)

جلوس المدرّس فى قبـة خشب صغيرة على كرسى عليه البسط ، ويقعد عليه المدرّس وعليه السكينة والوقار . لابسا ثياب السواد معتما وعلى يمينه ويساره معيدان يعيدان كل ما يمليه وهكذا ترتيب كل مجلس من هـذه المجالس الأربعة " .

ويقـول ابن الفرات : أن كل أنواع الكتب المختلفة كانت موجودة فى مكتبة المدرسة المستنصرية .

وكان للقاهرة نصيب فى حفـظ التراث العلمى العربى الاسلامى مثـل نصيب بغداد . إن لم يزد عليه . فقد كان هنا الأزهر ، أقدم جامعات العالم الموجودة الآن . أنشئ الأزهر سنة ٣٧٨ ﻫ (٩٧٢م) لنشر الدعوة الشيعية . لكنه لم يلبث ، بعـد زوال الخلافة الفاطمية ، أن أصبح مركزا للدراسات الفقهية واللغوية فيه أربع مدارس لكل من المذاهب الأربعة واحدة . ومع أن الأزهر معروف عنـه أنه جامعة دينية قبل كل شىء ، فعندنا رواية عن عبد اللطيف البغدادى أنه حاضر فى الطب فى الأزهر فى القرن السابع الهجـرى .

وقـد ازدهرت دور العلم فى الأندلس فى عهـد العرب ، فقد كانت مكتبة صاحب الأندلس فى القـرن الرابـع الهجرى يتألف فهرسها من أربع وأربعين كراسة ، فى كل منها عشرون ورقة ولم يكن بهـا سوى أسماء الكتب . ومع أننا لا نعرف إلا الشىء اليسير عن جامعـة قرطبة التى بلغت شأوها فى زمن عبد الرحمن الناصر والحكم ، فهـذا اليسير الذى وصـل إلينا يدلنا على الدور الذى لعبته فى توجيه الحياة الفكرية فى الأندلس ، وتهيئة الجو العلمى للترجمة من اللغة العربية الى اللغات الأوروبية التى تمت فى إسبانيا

فى القرون التى تلت ذلك . وكان طلابها يعدّون بالآلاف و يفدون اليها من إفريقيا وإسبانيا و بقية أوروبا . ولم يقتصر التعليم فيها على العلوم الدينية واللغوية ، بل تناول مواضيع الطب والرياضيات والفلسفة ، وفروعا أخرى من العلم . وكان من كبار أساتذتها أبو بكر بن معاوية والقالى صاحب الأمالى وابن القوطية ...

وقد أنشئت جامعة أخرى كبيرة فى غرناطة فى أواسط القرن الثامن الهجرى وكان يوسف الناصرى أوّل من درّس بها .

ومن طريف أخبار دور العلم فى إسبانيا ما وصل الينا عن جامعة أشبيلة التى أنشأها ليون الحكيم فى القرن الثالث عشر الميلادى. فقد بنى مدرسة وعين رئيسا لها أبا بكر الريقوتى من أعلم أهل زمانه ، فكان يحاضر طلابه فى أرض مملكة قشتالة الاسبانية فى جميع أنواع العلوم باللغة العربية . وهذه المدرسة ظهرت فيها أول جماعة من التراجمة الذين نقلوا من العربية الى اللاتينية وغيرها علوم أهل الأندلس وخصوصا الفلك . فهذه الجامعة العربية اللاتينية كانت حجرا أساسيا فى نشر الحركة العلمية فى اسبانيا ومن ثم فى أوروبا .

ودور العلم الإسلامية كانت فى الغالب غنية لأن بانيها كان يقف عليها الأرض أو العقار أو جزءا من ضريبة المدينة ، فقد كانت حصن الأكراد فى لبنان موقوفا دخلها على المدارس .

وقد حفظ لنا المؤرّخون أخبار دور العلم والمدارس ونحن إذا ضممنا ما ذكروه الى بعضه البعض وجدنا أنها قاربت الأربعمائة عددا . فقد كان فى القدس مثلا أربع وأربعون مدرسة ، وفى بغداد أربعون وتجاوزت مدارس دمشق المائة . وقد كان فى دمشق فى القرن السادس الهجرى مثلا ثلاث مدارس فنية اثنتان للطب و واحدة للهندسة وكان فى حلب مدرسة للطب .

وكانت المدارس الحكومية تعطى فيها للأساتذة مرتبات ثابتة ، لكن بعض العلماء كان يرفض أخذ الأجر ثمنا للتعليم ، فقد امتنع النووى فى القرن الثامن أن يأخذ رزقا لتدريسه فى المدرسة الأشرفية . وكان بعض العلماء يورق ويأكل من كسب يده . إلا أن التعليم صار على توالى الأيام مهنة يعيش منها المشتغلون بها . وقد أورد الجاحظ أن النحوى العروضى كان يكتفى بستين درهما أجرة للتعليم فى الشهر . أما مؤدبو الأمراء فلم يرضوا بأقل من ألف درهم كيحيي بن ثعلب . وكان قائد لعبد الله بن طاهر مؤدب رزقه فى الشهر سبعون دينارا ، وذلك فى القرن الثالث الهجرى . وكان ابن دريد فى القرن الرابع الهجرى يتناول أربعين دينارا فى الشهر .

الأسواق الاسلامية

الأسواق ، بما يعرض فيها من سلع ، وبمن يؤمها من متاجرين ؛ تصف الدرجة التى وصلت إليها التجارة خاصة والحياة الاقتصادية عامة . فاذا رافق الاتجار لون من ألوان الأدب ، واحتفال بالمواسم الدينية ، كانت الأسواق صورة للحياة العقلية والاجتماعية كذلك . وكلما تعددت الأسواق ، وازداد ما يعرض فيها وكثر التبادل فيها ، دل ذلك على وجود النشاط فى حياة الجماعات ، وركود الأسواق على العكس من ذلك دليل على اضطراب شؤون المعاش والأحوال المالية وغيرها فى الدولة .

واذا عرضنا الأمم والشعوب وجدنا أن البدوى منها له أسواق موسمية تقام فى أماكن معينة ، مرة فى السنة أو الفصل أو الشهر أو الأسبوع . والسنوى أو الفصلى منها أعم وأشبع لارتباطه بالانتاج الزراعى والحيوانى . أما الجماعات الحضرية فتغلب عليها الأسواق الثابتة ، لأن لكل مدينة

أسواقها تباع فيها مصنوعاتها وغلاتها وتحمل إليها ما تحتاج إليه مما تنتجه البلاد الأخرى .

كان العرب فى الجاهلية تغلب على تجارتهم الأسواق الموسمية وكانت تقوم فى ملتق الطرق التجارية الكبرى فيفد إليها الناس من أطراف الجزيرة مثل عكاظ ودومة الجندل ، وقد يأتيها قوم من الخارج مثل أسواق عدن وصنعاء .

ولم تكن أسواق العرب فى الجاهلية تقتصر على التجارة ، بل كان يقصدها طالب الأمن يستجير ، ويؤمها طالب الفداء يحمل فداء أسيره فيفكه ، وقد عقد الصلح غير مرة بين المتخاصمين فى الأسواق . لكن المزية التى اختص بها كثير من أسواق العرب الحولية الكبيرة ، هى كونها سوقا أدبية . فقد كان الشعراء يتناشدون فيها شعرهم ، متنافسين متنافرين وكانت قبائل العرب تحتفل بالشاعر الفائز احتفالا كبيرا .

وقد وصلت إلينا أخبار كثيرة عن هذه الأسواق وأيامها ، وعما كان يدور فيها من المفاخرة والمعاظمة والمنافرة ، وعمن كان يقصدها من الماجنين والمتماجنين ، وهذه الأخبار ثروة أدبية فى قراءتها متعة ولذة . وعكاظ أشهر الأسواق التى حفظ لنا التاريخ والأدب أخبارها ولا ريب فى أنها كانت أكبر الأسواق التى وصلت إلينا أنباؤها ؛ وهى تربى على عشرين . فقد كانت مع تجارتها الواسعة ، مجتمعا أدبيا له محكمون تضرب لهم القباب ويتناشد الشعراء بين أيديهم وحكمهم لا يحتمل تجريحا بل ثمة من كان يأتى عكاظ ببناته بقصد تزويجهن وفيها كان الرجل يستلحق آخر بنسبه ، أو يتبرأ منه . ويلى عكاظ فى المقام المجنة وذو المجاز . وهذه الأسواق الثلاث كانت تقام فى موسم الحج .

أما بعد الاسلام، وبعد الفتوح التى مكنت العرب من أقطار من الأرض غنية واسعة فقد كفوا مؤونة الترحال، ومصروا الأمصار وسكنوا المدن، فصار لهم فى الأسواق الثابتة غنى عن الأسواق الموسمية. لكن الذى نود أن نوجه النظر إليه هو أن بعض الأماكن القريبة من منازل البداوة بقيت لها نزعة بدوية؛ فكانت تقام فى نواحيها الأسواق التى يؤمها أهل الترحال المستمر، يبيعون فيها ويشترون، شأن سوق المربد فى البصرة، وأسواق بزاعة الى الشرق من حلب، وسوق زاوية ابن أدهم فى جبله. والسوقان الأخيرتان روى خبرهما المتأخرون من الرحالين العرب. فالأول ذكره ابن جبير، والثانى حدثنا عنه ابن بطوطه.

والمربد سوق البصرة؛ أنشئ لما مصرت فى زمن عمر بن الخطاب. والأصل فيه أنه متسع للابل تعرض فيه للبيع، واتسعت تجارته فى عهد الراشدين فشملت السلاح والتمر، وصار مركزا للدباغين. ثم أصبح على عهد الأمويين سوقا عامة تتخذ فيها المجالس، وتتعدد الحلقات يتوسطها الشعراء والرجاز، ويؤمها الأشراف، فيتناشدون ويتهاجون ويتشاجرون وهكذا جمع المربد الى التجارة، الأدب والسياسة. فقد نزلت فيه عائشة أم المؤمنين بعد مقتل عثمان تطالب بدمه، وتؤلب الناس على علىّ. وكان والى البصرة لعلى ينقض قولها، حتى وقعت بين الفريقين معركة بالحجارة، تضرر منها كثيرون. وفى المربد تهاجى جرير والأخطل والفرزدق. أما فى العصر العباسى فكان المربد مدرسة يقصدها الشعراء كبشار وأبى نواس ليأخذوا عن أعرابه الملكة الشعرية، وكان يؤمه اللغويون، يأخذون عن أهله ويدونون ما يسمعون. لكن هذه السوق كانت فذة فى الاسلام.

فلسنا نعرف لها شبيها . ولا شك أن موقع البصرة ، على أول مدر من العراق وآخر حجر من الصحراء ، كان له تأثير كبير فى طبعها بهذا الطابع الخاص .

أما أسواق المدن الثابتة ، فقد كانت تتأثر فى شكلها وتنظيمها وتنسيقها ، وموقعها وسلعها وأعمالها بالإقليم والمدينة ، والمكان الذى تحتله الأسواق من المدينة كان يتوقف على عوامل كثيرة ، فدمشق وحلب ، وهما من المدن القديمة ، بقيت أسواقهما حيث كانت قبلا . ولما بنى أبو جعفر المنصور بغداد صير الأسواق فى طاقات مدينته من كل جانب ، فلما قدم عليه وفد ملك الروم أمر أن يطاف بهم فى المدينة ، ثم دعاهم ، وسألهم كيف وجدوها ، فقال رئيسهم " رأيت أمرها كاملا إلا فى خلة واحدة ، فان عدوك يخترقها متى يشاء وأنت لا تعلم ، لأن الأسواق فيها ، وهذه غير ممنوع عنها أحد " .

فزعموا أن المنصور أمر عندها باخراج الأسواق إلى الكرخ ، وكانت الدكاكين فى أسواق مصر وغرب آسيا تمتد على طول الشارع من الجانبين ، على كل جانب صف منها . وكانت أسواق حماة أيام أن زارها ابن جبير حسنة التنظيم ، بديعة الترتيب والتقسيم . أما فى المدن الايرانية فكانت الأسواق الجزء التجارى المنفصل عن المدينة الرسمية وعن القلعة . ولذلك جمعت الدكاكين فى مكان واحد .

وبنى عضد الدولة أسواقا عند مدينة جامع رام هرمز غاية فى الحسن ، كانت نظيفة مبلطة مبربقة مظللة .

والغالب على الأسواق أن تسقف وتظلل . فقد روى ابن جبير أن أسواق منبج فسيحة ، وسككها متسعة ، ودكاكينها وحوانيتها كأنها الخانات

والمخازن اتساعا وكبرا ، وأعالى أسواقها مسقفة . وعلى هذا الترتيب أسواق أكثر المدن فى شمال سوريا . وقال عن أسواق حلب أنها مسقفة بالخشب. وروى فون سوخم الفرنسى أن عكا كانت فى القرن الثالث عشر . (قبل وقوعها بأيدى المماليك) ذات أسواق مظللة بالحرير وغيره من ثمين القماش .

وكان يراعى فى اختيار أسماء الأسواق أمور كثيرة . فهناك سوق الثلاثاء فى شرق بغداد . وهذا يدل على أن السوق كانت أصلا أسبوعية ، ومثل ذلك سوق القيروان التى كانت تعقد فى يومى الأحد والخميس. وربما كان قوام كثير من هذه الأسواق فى بادئ الأمر دكاكين لا تمتلئ وتعمر إلا فى يوم السوق ، ثم تغيرت طبيعتها واحتفظت باسمها . وثمة الأسواق التى كانت تسمى باسم منشئها، فقد سميت (سوق أسد) بالكوفة نسبة الى أسد ابن عبد الله القسرى ، وسميت سوق وردان بالفسطاط باسم منشئها . وهناك الأسماء التى ترجع إلى القوم النازلين فيها ، كسوق البربر فى الفسطاط. ولكن الغالب على التسمية أن نعرف السوق باسم السلعة التى تغلب عليها أو العمل الذى يتم فيها. ومثل ذلك سوق الخشب فى الاسكندرية، وسوق الصرافين بأصفهان ، وكان يجلس فيها مائتان منهم ، وسوق العطارين والبزازين فى جامع رام هرمز ، وسوق الرقيق فى سامراء ، وسوق الأرز فى عكاء ، وسوق الوراقين — وجميع هذه الأسواق ، أسماؤها تابعة لسلعها ومتاجرها .

وكانت الأسواق مراكز للصناعة كما كانت للتجارة ، ومن ثم كانت أسواق للجوهريين وللدباغين والصيادلة والغزالين وللمرجان وغير ذلك . وقد بنى عضد الدولة بن بويه بمدينة كازرون دارا جعلها لنسج الكتان ، وكان

دخلها فى كل يوم عشرة آلاف درهم (أى أقل من أربعمائة جنيه بقليل) .

وفى رحلة كل من ناصر خسرو وابن جبير وابن بطوطة وغيرهم ، وفيما تركه جغرافيو العرب كثير من المعلومات عن الأسواق الإسلامية وأوصافها . فلما وصل ابن جبير إلى الاسكندرية استوقف نظره (حسن وضع البلد واتساع مبانيه) حتى أنه ما شاهد بلدا أوسع مسالك منه ولا أعلى مبنى ، ولا أحفل ، وأسواقه فى نهاية الاحتفال ، وتأتى أهليه الخيرات من جميع البلاد ، فينصرفون فى الليل بالبيع والشراء كتصرفهم به فى النهار . وكان فى الاسكندرية اثنا عشر ألف دكان ، ويصف ابن بطوطة رحلته من الاسكندرية إلى مصر ويذكر مروره بسمنود والمحلة الكبرى ثم يقول : (والأسواق متصلة بين الاسكندرية ومصر) وهذه الأخيرة مركز الوارد والصادر ، وكانت بغداد مشتبكة أرضها بالعمارة وأسواقها رائجة التجارة — فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين ، إذ أنها فى نهاية الاحتفال ، وقد جمعت أخلاط التجار إلا سوق الصاغة فيها فإنه منفرد بالفرس وقد بلغوا من الإجادة أنهم رصعوا الزجاج بالجوهر ، وكانت سوق الجوارى فيها الحبشيات والروميات والجرجيات والشركسيات . وكان الدلال ينادى بمن حوله من المشترين ويصف الجوارى بما لهنّ من الأوصاف الحسان وهم يتسابقون إلى شرائهن .

ويرى المحدثون من الباحثين أن الاسكندرية وبغداد كانتا تعينان أسعار الحاجيات على الأقل فيما يختص بالكماليات .

وقد تركت دمشق أثرا جميلا فى نفس ابن جبير فقال عنها (وأسواق هذه البلدة من أحفل أسواق البلاد ، وأحسنها انتظاما ، وأبدعها وصفا ، ولا سيما

قيسارياتها ، وهى مرتفعات كأنها الفنادق، مثقفة كلها بأبواب حديد كأنها أبواب القصور ، وكل قيسارية منفردة بصيغتها وأعلاقها الحديدة . ولها كذلك سوق تعرف بالسوق الكبيرة ، تجتاز المدينة من باب الجابية إلى باب شرقى) .

وكان البيع والشراء يتمان بالمقايضة وتغلب المناداة بأسماء البضائع قبل الاتفاق كالذى عرفناه عن سوق الجوارى ببغداد ، والمناداة بسرمين على ما رواه ياقوت وابن بطوطة . وقد روى أن المقايضة كانت أساسا للبيع والشراء فى بعض الأحوال كما أن ياقوت يذكر بلدة بالمغرب الأقصى اسمها البصرة عرفت « ببصرة الكتان » لأن البيع والشراء كان أساسه قماش الكتان لكن استعمال النقود كان القاعدة الشائعة والغالبة فى الاتجار فى العالم الإسلامى. بل إن التعامل المالى فى العالم الإسلامى عرف نظام الصرافين . فلم يكن عن الصراف غنى فى سوق البصرة . وكان العمل أن كل من معه مال يعطيه للصراف ويأخذ منه رقاعا ثم يشترى ما يلزمه ويحول ثمنه على الصراف، ولا يعطون شيئا غير الرقاع ما داموا فى المدينة .

وتدلنا الأمثلة التالية على الأموال الطائلة التى كانت تروج فى الأسواق وكان فى القرن الثالث الهجرى بمدينة همدان خان كبير تباع فيه الأمتعة المختارة قدر صاحبه دخله منه بمليون ومائتى ألف من الدراهم (نحو أربعين ألفا من الجنيهات). واشترى تاجران فى عصر المأمون غلات العراق فأشرفا على ربح عشرة ملايين درهم ثم اتضع السعر فخسرا ستة ملايين درهم . وروى ياقوت انه كان فى قيسارية البز فى حلب فى القرن الخامس للهجرة عشرون دكانا للوكلاء يبيعون فيها كل يوم متاعا قدره عشرون ألف دينار (نحو عشرة آلاف جنيه) وأن ذلك مستمر منذ عشرين سنة .

وكان المتحصل من مكس القمح بدمشق فى أواخر القرن الثامن الهجرى يزيد على مليون من الدراهم . وكانت رسوم الذبح فى طرابلس الشام فى الوقت عينه ثمانين درهما فى اليوم الواحد .

وروى ابن بطوطة لطيفة عن أسواق سرمين بين حماة وحلب ، جاء فيها : (وبها (أى سرمين) يصنع الصابون ... ويجلب الى مصر والشام ... وأهلها سبابون يبغضون العشرة ... حتى أنهم لا يذكرون لفظ العشرة ، وينادى سماسرتهم بالأسواق على السلع فاذا بلغوا الى العشرة قالوا تسعة وواحد) .

ونقل المحدثون عن الثعالبي أن أكثر ما كان يباع من الثمار فى الأسواق البطيخ ، ولذلك كانت سوق بيع الفاكهة تسمى دار البطيخ . وروى أن شاعرا مدح وزيرا بقصيدة أكثر فيها من ذكر الفاكهة فسماها عامة بغداد " دار البطيخ " تشبيها لها بمكان بيع الفواكه .

زار بتاحيا اليهودى الأوربى العراق فى عصره الزاهى وروى أن التاجر إذا وصل الى بغداد أو غيرها ، وضع أمتعته فى بيت رجل من الناس ورجع ، فيحملون هذه الأمتعة الى جميع الأسواق للبيع . فاذا دفع فيها ثمنها المقرر كان بها ، وإلا حملوها الى جميع السماسرة ، فإن رأوا أنها أقل قيمة باعوها بهذا الثمن القليل وكل هذا مع غاية الأمانة والذمة .

ولعل من أغرب ماروى عن طريقة الاتجار هو أنه كان وراء سجلماسة من أرض المغرب وبأقاصى خراسان مما يلى الترك قوم يتبايعون من غير مشاهدة ولا مخاطبة . فيتركون عند كل متاع ثمنه من أعمدة الذهب . فاذا جاء صاحب المتاع اختار الذهب وترك المتاع اذا وافقه وإلا أخذ سلعته وترك الذهب .

تنظيم المعايش فى الاسلام

إن الرقعة التى رفرف عليها علم العروبة والإسلام متباعدة الأطراف . متسعة الأرجاء، متباينة الوضع الجغرافى . مختلفة العامل الطبيعى من أودية وارقة الظلال إلى أحواض أنهار يانعة ، إلى سهول منبسطة غنية، إلى جبال مرتفعة إلى صحار قاحلة . فكان من الطبيعى أن تتنوّع موارد الرزق فى ربوعها. وتتعدّد مصادر العيش فى أنحائها. وتبع ذلك اختلاف فى وسائل العيش وطرق الارتفاع، وسبل تنظيمها . ولست أريد أن أتعرّض لهذه النواحى المتعدّدة ، كما أننى لست أنوى أن أتناول النظام المالى فى الدولة الإسلامية بالدرس والتحليل . وكل غرضى أن أنقل إليكم شذرات مختلفة عن تنظيم المعايش تسقطتها فى كتب الأدب والتاريخ .

لم يلبث العرب بعد استقرارهم فى البلاد التى فتحوها أن سكوا النقود . ولذلك كانت المعاملات التجارية فى أنحاء العالم الاسلامى، إلا فى النادر من الأحوال، تعتمد على النقد لا على المقايضة . وقد كانت الدنانير الذهبية والدراهم الفضية معا أساس النقد . وبذلك كان النظام النقدى ثنائيا . هذا بالإضافة إلى فروق محلية فى وزن الدرهم . ويمكن القول إجمالا أنّ الدينار كان ينقص قليلا عن نصف الجنيه الإنكليزى الآن . أما الدرهم فكان يساوى أربعين ملا (أربعين مليما أو أربعين فلسا) . والدرهم المقصود هنا هو الدرهم النقرة الذى يكون ثلثاه من الفضة الخالصة وثلثه من النحاس . وهو الدرهم الذى كان استعماله شائعا فى سوريا ومصر حول القرن الخامس الهجرى . أما الدرهم المقرى فقد كانت قيمته ثلث قيمة الدرهم النقرة . وقد عرف الناس النقود النحاسية فى زمن مبكر فى الدولة الإسلامية لكنها

لم تكن فى وقت من الأوقات تعد أساسا للمعاملة التجارية . على أنها راجت فى السوق فى القرن الثامن الهجرى وكانت ثمانية وأربعون فلسا منها تساوى درهما واحدا . لكنها لم تلبث أن فقدت قيمتها فأصبحت تقوّم الحاجيات بوزن من النقود على أنها نحاس لا على أنها نقد .

وكانت وحدة الوزن متباينة فى أنحاء العالم الإسلامى . ففى مصر كان الرطل مائة وأربعة وأربعين درهما على نحو ما نعرفه اليوم . أما فى سوريا فقد اختلف وزنه بين ستمائة درهم فى دمشق وصفد وطرابلس وبين سبعمائة وعشرين درهما فى حلب وحماة وغزة ، وهو على كل حال أقل من وزن الرطل المستعمل الان فى أنحاء سوريا . كذلك كانت وحدة المكاييل تختلف فى القطر الواحد عنها فى القطر الآخر اختلافا بينا . وإن كانت تتفق قطرا قطرا مع المستعمل منها إلى الآن . فالقدح والويبة والأردب كانت مستعملة فى مصر والمد والكيل والغرارة كانت شائعة فى سوريا منذ القرن السادس الهجرى .

والتحدّث عن تنظيم المعايش يقتضى الإشارة إلى أسعار الأشياء وكسب الناس ، لبيان العلاقة بين ما يكسبه المرء ومقدار ما ينفقه على شؤون العيش الضرورية . ودفعا للبس والتكرار اللذين يمكن أن ينشآ من ذكر أثمان وحدات الكيل والوزن المختلفة رأيت أن أورد الوزن بالكيلوغرام . والسعر بالملات . والمل الفلسطينى يقابل الفلس العراقى على التحقيق والمليم المصرى على وجه التقريب . فالسعر المألوف للقمح فى سوريا ومصر كان ملين للكيلو الواحد ومثله للأرز . أما الشعير فكان ثمن الكيلو الواحد ملا ونصف المل . وكان ثمن كيلو اللحم نحو أربعين ملا وثمن الدجاجة يتفاوت بين ثمانين ملا

ومائة من الملات . أما فى العراق فقد كان القمح أغلى . لذلك بلغ ثمن الكيلو الواحد ثلاثة ملات . وروى أن ثمن حمل حمار من القصب فى مراكش كان نحو خمسة عشر ملا، هذه هى الأسعار العادية . أما فى الأزمات مثل القحط أو انتشار الوباء أو الحروب فقد كانت الأسعار ترتفع خمسة أضعاف وقد بلغ ثمن رغيف الخبز فى زمن المستنصر الفاطمى فى مصر خمسة عشر دينارا .

أما الأجور والمكاسب فقد ترك لنا السلف الكثير من أخبارها . ومما لا ريب فيه أن العمال ومن جرى مجراهم لم يكونوا يتمتعون بحبوحة من الرزق ، فقد كان النساج يتداول فى بعض الأحيان نصف درهم فى اليوم . وقد نقل الأستاذ متز عن صاحب مصارع العشاق أن الرجل وزوجه فى عصر الرشيد كان يكفيهما ثلاثمائة درهم فى السنة للعيش المتوسط . أما أصحاب الأرضين فكانوا يؤجرون الفدان الواحد من الأرض الجيدة بأربعين درهما فى السنة فى أوقات الرخاء . وقد روى لنا القلقشندى الكثير عن أرزاق أصحاب الوظائف نكتفى الآن بالإشارة إلى بعضها . كان رزق الوزير فى مصر خمسة آلاف دينار فى الشهر ينفق منها على حاشيته، وكانت وظائف القصر المختلفة تتفاوت أرزاقها بين عشرة دنانير ومائة دينار فى الشهر . وكان الشيخ الكبير فى مجلس السلطان بتونس يتقاضى نيفا وألفا وثلاثمائة درهم نقرة فى الشهر الواحد . وروى أن محتسب مصر كان يتقاضى ثلاثين دينارا فى الشهر وأن قضاة مصر تباينت مرتباتهم بين الثلاثين والمائة والستين من الدنانير . وأن معلم النحو والعروض كان يتناول ستين درهما فى الشهر . ولا شك أن هذه الأرقام تعيننا على تفهم العلاقة بين الإيراد والمصروف .
وقد نالت المعاملات التجارية والمالية حظا وافرا من العناية والترتيب .

فكانت السفاتج وسيلة نقل الأموال من مكان إلى آخر . فقد روى ناصرى خسرو أنه لما ترك أسوان حمل معه سفتجة من صاحبه هناك إلى وكيله فى عيذاب فدفع له المبلغ لقاءها . وقد بلغت قيمة بعض السفاتج والصكوك ثلاثين أو أربعين ألفا من الدنانير . هذا إلى الخانات العديدة التى كانت مقصد التجار الغرباء يضعون بضائعهم ودوابهم فى أسفلها وينامون فى أعلاها، ويقفلون غرفهم بأقفال رومية . وبعض هذه الفنادق كان فيه أربع أو خمس طبقات . ولعل فنادق الإسكندرية كانت من أكبر ما عرف فى العالم الإسلامى .

ولم تكن الدولة تشرف على تنظيم الحياة الاقتصادية العامة ، لكننا مع ذلك نجد أن أولى الأمر كانوا يراقبون شؤون المعاش مراقبة دقيقة فى بعض الأحيان، رغبة فى ضبط الأمور ومنع الغش . فمن ذلك أن المكاييل والموازين كانت خاضعة لمراقبة المحتسب الشديدة . وقد روى المقريزى أنه كان فى كل سوق من أسواق مصر على أرباب كل صنعة من الصنائع عريف يتولى أمرهم . وكان العريف أحد المشتغلين بالبيع فى السوق . فإن عريف الخبازين بمصر كان له دكان يبيع الخبز بها ويظهر من قصة رواها المقريزى أن العريف كان يعزله الوزير إذا وقع الظن أنه أنكرشيئا . ونعرف مما نقله الأستاذ متز أن تجار الكتان فى دلتا مصر لم يكونوا يستطيعون أن يبيعوا ما ينسج باسمهم إلا للسماسرة الذين تعينهم الحكومة . أما فى فارس فقد كان غسل خيوط الكتان فى نهر معين يقتضى الحصول على إذن من ناظر النهر . ومتى تم النسيج عين السماسرة الرسميون ثمن الأقمشة وختموا اللفائف وسلموها إلى التجار الأجانب .

ومن هذا القبيل ما عرف عن نظام الاحتكار الذى لجأ إليه الفاطميون والمماليك وكان القصد منه زيادة واردات السلطان . فمن المعروف عن الفاطميين مثلا أنهم منعوا تصدير الأقمشة المصرية إلى العراق ، وقد يكون أساس هذا العمل سياسيا لا اقتصاديا . لكننا نرى من الجهة الأخرى ، أنه لكثرة التمر فى كرمان كان يعطى للمصدّرين جوائز . فكان الجمالون يحملون التمر مناصفة إلى خراسان ويعطى السلطان كل جمل دينارا .

وعرف صناع العالم الاسلامى ما يصح أن نسميه "الماركة المسجلة" فقد كانت البلاد المشهورة تنقش على ما يصنع فيها (عمل مدينة كذا) . على أن ذلك لم يمنع الغش . إذ صنعت بعض البلاد ثيابا غير جيدة، وكتبت عليها اسم بغداد لتروّج سوقها .

وبين الوظائف التى يذكرها القلقشندى نوع يسميه (الوظائف الصناعية) . وقد أورد أنها كانت معروفة فى مصر والشام . ومنها رئيس الجراحية والكحالين والأطباء ونحن نرجح أن هذا النوع من التنظيم كان يرمى فيه إلى تنظيم الناحية الخلقية الأدبية أكثر من تنظيم الناحية المعاشية . أضف إلى كل ذلك نوعا من النقابات التى كانت تشرف على العمل والتجارة التى نشأت عن تجمع الحرف وأصحابها فى أجزاء معينة من السوق ، فاقتضى الوضع ضبطا وتنظيما خاصين . ولعل أصحاب البنوك كانوا فى مقدّمة من نظم النقابات هذه .

وثمة ناحية من نواحى تنظيم المعايش فى الإسلام حرية بعنايتنا، ولا سيما فى هذه الايام، هذه الناحية هى الوسائل التى لجأ إليها أهل الحل والعقد فى تفريج أزمات القحط وما يتبع ذلك من ارتفاع الأسعار . وقد وقعت

على أخبار كان رواها المقريزى عن مصر ، رأيت فى نقلها لذة ومتعة ودرسا عمليا .

أصاب مصر فى أواخر القرن الرابع الهجرى قحط كان سببه نقص ماء النيل ، فارتفعت الأسعار وازدحم الناس على الخبز يطلبونه ويقتتلون من أجله . فجمع متولى السعر خزانى الغلال والطحانين والخبازين . وقبض على ما بالساحل من الغلال وأمر أن لا تباع إلا للطحانين ، وسعر القمح والشعير والحطب وسائر الحبوب والمبيعات ، وضرب جماعة بالسياط وشهر بهم وشدّد فى ذلك وكبست عدّة حواصل وفرق ما فيها على الطحانين بالسعر الرسمى فنرى من هذا أن وزير الحاكم بأمر الله لجأ إلى التسعيرة الجبرية وحظر توزيع الغلال إلا على الطحانين ليحول دون الاستغلال . وأصبحت التسعيرة الجبرية وسيلة يلجأ إليها فى الأزمات فى مصر فى القرون التالية لزمن الحاكم بأمر الله .

وثمة وسيلة أخرى لجأ إليها الوزير المصرى فى سبيل تخفيف الويلات فى القرنين الرابع والخامس للهجرة ، وهى ختم الغلال . فقد أمر الحاكم بأمر الله بفرض ما يحتاج إليه من الغلال على أرباب الغلات وخيّرهم بين أن يبيعوا بالسعر الذى يقرّره بما فيه الفائدة المحتمة لهم وبين أن يمتنعوا فيختم على غلاتهم ولا يمكنهم بيع شىء منها إلى حين دخول الغلة الجديدة فاستجابوا لقوله وأطاعوا أمره وانحل السعر . ثم وقع غلاء فى أيام الآمر بأحكام الله الفاطمى فى القرن الخامس للهجرة فختم القائد أبو عبد الله بن فاتك على مخازن الغلال وأحضر أربابها وخيرهم بين أن يبيعوا على سعر الدولة وبين أن يختم على غلاتهم . فمن أجاب باع ومن رفض ختم على ما عنده ونظر فى حاجة

السوق وفى المقدار المتيسر الحصول عليه وباع ما نقص إلى الطحانين بالسعر من غلات ديوان الدولة . فلما دخلت الغلة الجديدة بيعت الغلة المختوم عليها بسعر قليل وأصاب أصحابها خسارة كبيرة .

وقد كان من عادة السلطان بمصر أن يحتفظ باحتياطى من الحبوب القصد منه تفريج الأزمات إذا أصاب البلاد الجدب . فكان يبتاع له فى كل سنة غلة بمائة ألف دينار وتجعل متجرا . وفى زمن اليازورى جعل الخشب والصابون والعسل بين ما يخزن فى متجر السلطان . واليازورى هذا هو الذى حاول أن ينظم توزيع الغلات فى مصر بحيث لا يظلم مشتريها ولا يثرى بائعها بغير حق . فقد كان المعاملون أى عمال النواحى يطالبون الفلاحين بدفع الخراج قبل وقته ، فاذا عجزوا ابتاعوا منهم غلاتهم ، قبل إدراكها بالثمن البخس ، ثم يقومونها على الديوان بالسعر الرائج ويربحون الفرق بين السعرين . فأمر اليازورى عمال النواحى بتحرير مبلغ الغلة الذى وقع الابتياع عليه وتقويم ما وزنه التجار للديوان وختم المخازن وإخباره بمبلغ ما يحصل تحت أيديهم . ثم جهز المراكب وحمل الغلال إلى المخازن السلطانية بمصر وقرر أثمان الحبوب وسلم إلى الخبازين حاجتهم لعمارة الأسواق ، ووظف ما يحتاج إليه لبلدان القاهرة ومصر وغيرهما واستمر تدبيره هذا عشرين شهرا حتى قتل .

ولعل الغلاء الذى وقع بمصر أيام المستنصر كان شر ما عرفه القطر الشقيق فى زمن الفاطميين . وقد ترك لنا المقريزى صورا حية ناطقة عما أصاب الناس من الضنك وانعدام القوت ، حتى بلغ ثمن الرغيف الواحد خمسة عشر دينارا . ومع ذلك فقد وجد من حاول أن يستغل الضنك ويربح

على حساب المعوزين والمحتاجين فأنذر المستنصر الوالى بقطع رأسه إن لم يخفف البلاء . فذهب الوالى إلى الحبس وأخرج منه قوما وجب عليهم القتل وأفاض عليهم ثيابا واسعة وعمائم مدوّرة وطيالس سابلة وجمع تجار الغلة والخبازين والطحانين وعقد مجلسا عظيما وأمر بإحضار المحبوسين فدخل فى هيئته العظيمة حتى إذا مثل بين يدى الوالى قال له (ويلك ما كفاك أنك خنت السلطان واستوليت على مال الديوان إلى أن أخربت الأعمال ومحقت الغلال فأدى ذلك إلى اختلال الدولة وهلاك الرعية . اضرب يا غلام رقبته) فضربت فى الحال . واستدعى الوالى آخر فقام إليه الحاضرون من التجار والطحانين والخبازين وقالوا (أيها الأمير ! فى بعض ما جرى كفاية ونحن نخرج الغلة وندير الطواحين ونعمر الأسواق بالخبز ونرخص الأسعار على الناس) . و بعد ضراعة قبل ما قدموه ووفوا بالشرط .

الشرق العربى فى صبح الأعشى

(١) المؤلف والكتاب . (٢) مصر . (٣) العراق .
(٤) الجزيرة العربية . (٥) سورية .

١ — المؤلف والكتاب

عاش القلقشندى فى أواخر القرن الثامن وأوائل التاسع للهجرة، فى عصر المماليك البرجية . ويمتاز هذا الوقت بالنضج فى الحياة العلمية فى مصر والشام والعناية بالمدارس ونواحى الحياة الفنية المختلفة. ولبعض المؤلفات التى وصلتنا من هذا العصر ميزة خاصة هى الاحاطة والشمول ، أو ما يجوز أن نسميه كتابة الموسوعات . فقد اهتم المؤلفون بإخراج كتب تشمل اللغة والأدب والجغرافيا والتاريخ وأصول الشرع والادارة وقواعد المخاطبات السلطانية ، وغير ذلك مما يحتاجه أرباب الدواوين وأصحاب الوظائف والعمال . وكتاب " صبح الأعشى فى صناعة الإنشا " فى مقدمة هذه الموسوعات العربية التى خلفها لنا عصر المماليك .

والمؤلف هو شهاب الدين أحمد القلقشندى، ولد فى قلقشندة من أعمال قليوب فى دلتا مصر ، وأقام فى الأسكندرية حيث تفقه ومهر ، وتعانى الأدب وكتب فى الانشاء، وأجيز بالفتيا والتدريس ولم تكن سنه إذ ذاك تتعدى إحدى وعشرين سنة . وتصدر للافادة فانتفع الكثيرون من علمه. ثم نزل القاهرة والتحق بديوان الانشاء بالأبواب السلطانية بالديار المصرية، وفى منصبه هذا ألف كتابه صبح الأعشى، وهو أشهر كتبه وأعظمها قيمة . على أنه وصلت الينا من مؤلفاته " ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر" وكتاب " الغيوث الهوامع " و" نهاية الأرب فى معرفة قبايل العرب " .

والكتاب الذى نحن بصدده اليوم هو صبح الأعشى، كتبه المؤلف وهو بديوان الانشاء بمصر . وقد تناول الكاتب فى خطبة الكتاب بالتفصيل الغاية التى من أجلها كتب وألف . وهذه الخطبة هى فى الوقت ذاته نقد فنى لمن سبقه من المنشئين ، فهو يقول " والمؤلفون فى هذه الصنعة قد اختلفت مقاصدهم فى التصنيف ، وتباينت مواردهم فى الجمع والتأليف . ففرقة أخذت فى بيان أصول الصنعة وذكر شواهدها وأخرى جنحت الى ذكر المصطلحات و بيان مقاصدها ... ولم يكن فيها تصنيف جامع لمقاصدها ... بل أكثر الكتب المصنفة فى بابها والتأليف الدائرة بين أربابها، لا تخرج عن علم البلاغة المرجوع فيها إليه ، أو الألفاظ الرائقة فيما وقع الاختيار عليه " .
ثم يعرض القلقشندى لكتابين فينقدهما : الأول التعريف بالمصلح الشريف للمقر الشهابى بن فضل الله العمرى ، والثانى تثقيف التعريف لابن ناظر الجيش . فيقول عن الأول " أنه قد أهمل من مقاصد المصطلح أمورا لا يسوغ تركها كالبطائق واللطفات" وأما الثانى فقد ترك الوصايا والأوصاف ومراكز البريد وأبراج الحمام . ثم يجمل القول فى الاثنين "فصار كل من الدستورين منفردا عن الآخر بقدر زائد ، ولم تقع الغنية بأحدهما عن الآخر، وإن كانا فى معنى واحد " .

وقد وضع صبح الأعشى على درجتين : أما الأولى فكانت لما استقر المؤلف بديوان الانشاء إذا أنشأ مقامة بين فيها حاجة الانسان إلى حرفة يتعلق بها ومعيشة يتمسك بسببها ، وأوضح أن الكتابة هى الصناعة التى لا يليق بطالب العلم من المكاسب سواها . وفضل فيها كتابة الانشاء، ورجحها على كتابة الأموال . ثم نبه فيها على ما يحتاج إليه كاتب الانشاء من المواد ، وضمنها

أصول الصنعة وقوانين الكتابة . لكن القلقشندى أدرك بعد حين أن مقامته "وقعت موقع الوحى والإشارة ، ومالت إلى الايجاز فاكتفت بالتلويح عن واسع العبارة" . فرأى أن يفصلها ويوضح أبوابها فأتبعها بمصنف مبسوط اشتمل على قواعدها وتكفل بحل رموزها . فكان من هذه المحاولة أن أخرج المؤلف صبح الأعشى فى صناعة الانشاء .

والكتاب مرتب على مقدمة وعشر مقالات وخاتمة بناها بالاجمال على التعريف بحقيقة ديوان الانشاء وأصله فى الاسلام وانتشاره بعد ذلك فى العالم الاسلامى . وتناول ما يحتاج إليه كاتب الانشاء من الأمور العلمية والعملية . فالخط وتوابعه ولواحقه فيه موضحة ، ومعرفة المسالك والممالك فيه مبوبة ، ومشاركة المكاتبات والولايات والألقاب والأسماء والكنى والمواضع فيه مبوبة ، هذا الى وصف الولايات وطبقاتها والبيعات والعهود ، وذكر الوصايا الدينية وما يكتب فيها ، والاقطاعات وأصلها فى الشرع وعقود الأمانات . وتكلم فيه عن البريد ووضعه فى الجاهلية والاسلام وبين معالمه ومواضعه . والحق أنه على قول مصححه الأستاذ المرحوم محمد عبد الرسول إبراهيم . "كتاب ممتع ودائرة معارف أدبية كبرى ، يشهد لمؤلفه بالفطنة والذكاء وطول الباع فى فن كتابة الانشاء" .

ونحن ندرك أن صبح الأعشى لايمكن أن يلم به المرء فى حديث أو اثنين لذلك نكتفى بناحية أو اثنتين من نواحيه المتعددة نتناولها بشىء من التفصيل . فنحن نجد أن الفصل الثالث من الباب الأول من المقالة الأولى يتناول معرفة الأزمنة والأوقات وأيام الشهور والسنين على اختلاف الاسم فيها ، وتفاصيل أجزائها والطرق الموصلة اليها ومعرفة أعياد الأمم . وهو يتناول كل

هذه بتفصيل من الناحية الشرعية والناحية الفلكية، فيحكى المذاهب المختلفة ثم يلاحظ فى دقة أن اليوم ينظر إليــه باعتبارين. ” أما الطبيعى فالليل من لدن غروب الشمس الى طلوعها وظهورها من الأفق ، والنهــار من طلوع نصف قرص الشمس الى غيبوبته. وأما الشرعى فالليل من غروب الشمس الى طلوع الفجر الثانى والنهار منــه الى غروب الشمس . وتراه ينتقل من الأيام الى الشهور فيذكر أنواعها ويقارن الشمسية منهــا بالقمرية، ويعين ابتــداء القبطية منهــا بالنسبة للشمسية . والسنة عنــده إما طبيعيــة وهى القمرية، وإما اصطلاحية وهى الشمسية . ويتناول فى هــذه مصطلحات القبط والفــرس والسريان ثم مصطلح المنجمين ، ويوضح علاقاتها ببعضها البعض . ويعقد صاحبنا فصلا فى التوفيق بين السنين وعلاقة ذلك بالخراج والأعشار لارتباط المتوج الزراعى بالسنين على اختلاف الاصطلاح . وهذا الفصل من خير ما عثرت عليه عند كتاب العرب عن الموضوع .

وإذ ينتقلنا الى الحديث عن الفصول نشعر أن المؤلف دقيق الاحساس رقيقه، هذا الى طول باع فى رواية الشعر الرفيع . فهو يتحدّث عن الفصول ويروى فيها الأشعار والقصائد .

وتنال المواسم والأعياد حظها من عناية صاحبنا، فهو لا يترك منها موسما أو عيدا إلا ويعين موعده ويردّه الى أصله .

والمقالة الثانيــة من كتاب الصبح فى المسالك والممــالك . فيهــا تعرض المؤلف لذكر الأرض على وجه الإجمال فتعرف إلى شكلها وإحاطة البحر بها وأقاليمها الطبيعية وأنواع البحار وحدّثنا عن كيفية استخراج جهات البلدان والأبعاد الواقعة بينها . ثم بحث الخلافة ومن وليها من الخلفاء ومقراتهم

وما انطوت عليه الخلافة من الممالك فى القديم وما كانت عليه من الترتيب إلى عصره . ووصف وظائف أرباب الأقلام والسيوف ثم تناول دول الأرض دولة دولة . فبدأ بالمملكة المصرية ومضافاتها ووضعها ومحاسنها وخواصها وعجائبها وزرعها ورياحينها ومطعومها وحيوانها وطيورها وقواعدها. ثم فصل كورها ومدنها وأخبارها وملوكها جاهلية و إسلاما، وترتيب أحوالها فى معاملاتها ونقودها وأنواع أراضيها ودواوينها وجيوشها ومواكب أمرائها وملوكها. وانتقل من المملكة المصرية إلى بقية أقطار العالم الاسلامى أولا ثم الى ماخرج عنه . وهو فى أخباره وأنبائه دقيق الملاحظة، شديد العناية بإسناد ماينقله عن غيره، سريع الى النقد . فيقول مثلا " أما شكل الأرض فقد تقرر فى علم الهيئة أن الأرض كرية الشكل ... ... وقيل هى مسطحة وقيل كالترس وقيل كالطبل . والتحقيق هو الأول " . ويحدثنا عن خطوط الطول والعرض ثم يلاحظ أن أكثر المعمور من الأرض إنما هو فى النصف الشمالى والعمارة فيه فيما بين خط الاستواء الى نهاية ست وستين درجة ونصف فى العرض. ويقسم المعمور من الأرض إلى أقاليم سبعة ينقلها وحدودها عن أبى الفداء .

ويحظى البحر المتوسط بقسط وافر من عناية الكاتب ، وهو يسميه ، مثل بقية الجغرافيين المعاصرين له ، بحر الروم، ولكنه يذكرنا أنه يسمى البحر الشامى أيضا . فالمدن الموجودة عليه تذكر كلها، وتعين أعراضها وأطوالها وتبين المسافات التى تفصل بينها .

فاذا خلص الكاتب إلى الخلافة قدم لها بأخبار الفتوح باختصار ومر بمقرات الخلافة فى المدينة والشام والعراق ومصر ، لأن الذى يعنى به هو

الخلافة على أنها نظام للحكم. فيروى لنا ما كانت عليه ترتيباتها فى أيام الراشدين والأمويين والعباسيين وينقل عن ابن الأثير وصفا لموكب الخليفة المقتدر لما وصلت رسل ملك الروم إلى بغداد سنة (٣٥٠) إذ كان عدد العسكر مائة وستين ألفا والحجاب كانوا سبعمائة والخدم سبعة آلاف هذا فضلا عن أنواع الأسلحة والزينة والستور والبسط. فقد كان عدة البسط اثنين وعشرين ألف بساط.

وشعار الخلافة وهى الخاتم والبردة والقضيب وثياب الخلافة والأعلام والخلع بألوانها مفصلة فى هذا الباب. كما نجد تفصيل الوظائف الوزارية وغيرها كالحجابة وهى حفظ باب الخليفة والاستئذان للداخلين عليه، وولاية المظالم، والنقابة على ذوى الأنساب والقضاء والحسبة والولاية على المساجد. فإذا فرغ من ذكر الترتيبات على ما عرفت قبلا، أى قبل انتقال الخلافة الى مصر، تخلص الى ذكر ما أصابها بعد ذلك، فقال "والذى استقر عليه حال الخلفاء بالديار المصرية أن الخليفة يفوض الأمور العامة إلى السلطان ويكتب له عنه عهد بالسلطنة ويدعى له قبل السلطان على المنابر، إلا فى مصلى السلطان خاصة ... ... ويستبد السلطان بما عدا ذلك، من الولاية والعزل وإقطاع الإقطاعات حتى الخليفة نفسه، ويستأثر بالكتابة فى جميع ذلك.

ولست أشك فى أن خاتمة كتاب صبح الأعشى هى أمتع فصول الكتاب كله. فهى تتناول الكلام على البريد ومطارات الحمام الرسائلى وهجن الثلج ومراكبه والمناور والمحرقات.

فمعنى البريد مسافة معلومة مقدرة باثنى عشر ميلا وهى أربعة فراسخ، وقد كان البريد معروفا عند الأكاسرة والقياصرة أما فى الاسلام فأول من وضعه معاوية وأحكمه عبد الملك. وقد أهمل أمره أواخر عهد الدولة

الأموية وأوائل عهد العباسيين حتى عنى به المهدى واتبعه فى ذلك الرشيد فعاد إلى البريد أثره فى تسهيل مهام الحكم. ومع أن البويهيين أهملوه ليحولوا دون الخلفاء وأخبار الأمصار، فقد أعاده السلاجقة وشمله الزنكيون بالعناية، فأعادوا له النجب المنتخبة.

وكان للبريد ألواح من فضة مخلدة بديوان الانشاء تحت أمر كاتب السر بالأبواب السلطانية منقوش على وجهى اللوح نقشا مزدوجا ما صورته «لا إله إلا الله محمد رسول الله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. ضرب بالقاهرة المحروسة. "وعلى الوجه الآخر" عز لمولانا السلطان الملك الفلانى فلان الدين والدنيا خلد الله ملكه «وفى ذلك اللوح ثقب معلق به شرابة من حرير أصفر ذات بندين يجعلها البريدى فى عنقه متى خرج إلى جهة من الجهات، فكل من رأى اللوح والشرابة علم أنه بريدى وبواسطة ذلك تذعن له أرباب المراكز بتسليم خيل البريد.

ومراكز البريد التى تقف فيها خيل البريد لتغييرها فرسا بعد فرس ليست كلها على المقدار المحرر — أى على بعد اثنى عشر ميلا — بل هى متفاوتة الأبعاد إذا ألجأت الضرورة الى ذلك، تارة لبعد الماء، وتارة للأنس بقرية حتى أنك لترى فى بعض المراكز البريد الواحد بقدر بريدين.

ويختم المؤلف حديثه عن البريد بذكر طرقه فى مصر وبلاد الشام وما جاورهما. ثم ينتقل الى ذكر الحمام الرسائلى. فيعدد أنواعه ويذكر ألوانه ويبين صفة الطائر الفاره، ويقص أخبار من اعتنى به من خلفاء بنى العباس كالمهدى، وتنافس رؤساء الناس وفى العراق فى اقتنائه، حتى بلغ ثمن الطائر الفاره منه سبعمائة دينار وثمن البيضتين منه عشرين دينارا. وكان

عندهم دفاتر بأنساب الحمام كأنساب العرب . وكان لا يمتنع الرجل الجليل ولا الفقيه ولا العدل من اتخاذ الحمام والمنافسة فيها، والإخبار عنها والوصف لأثرها . وبعد أن يعرض المؤلف الى استخدام الحمام فى الرسائل أيام زنكى وخلفائه والتصانيف عن الحمام الرسائلى يروى أن العزيز ثانى خلفاء الفاطميين بمصر ذكر لوزيره يعقوب بن كلس أنه ما رأى القراصية البلجيكية ، وأنه يحب أن يراها . فكان بدمشق حمام من مصر، وبمصر حمام من دمشق ، فكتب الوزير بطاقة إلى دمشق يأمر فيها أن يجمع ما هناك من الحمام المصرى ويعلق فى كل طائر حبات من القراصية البلجيكية ويرسلها إلى مصر . فلم يمض النهار حتى حضرت تلك الحمائم بما علق عليها من القراصية . فجمعه الوزير وطلع به الى العزيز فى يومه، فكان ذلك من أغرب الغرائب لديه.

وآخر فصل فى صبح الأعشى يتناول نقل الثلج من الشام إلى مصر . فقد كانت له هجن تنقله فى البر وسفن تنقله فى البحر، حتى يصل إلى قلعة القاهرة . وقد كانت هذه المراكب ثلاثا فى السنة فى أيام الملك الظاهر بيبرس ثم أخذت فى الزيادة حتى بلغت أحد عشر مركبا . والمراكب تأتى دمياط فى البحر ثم يخرج الثلج فى النيل إلى ساحل بولاق فينقل منه على البغال السلطانية ويحمل إلى الشرابخانة الشريفة . وقد جرت العادة أن المراكب إذا سفرت سفر معها من يتداركها من ثلاجين لمداراتها .

ومما حدث فى زمن الدولة الناصرية استعمال الهجين لنقل الثلج وكانت هذه الهجن تخرج من دمشق الى الصنين ثم الى بانياس ثم الى أربد ثم الى بيسان بجنين فقاقون فاللد فغزة فالعريش فالواردة فالمطيب فقطيا ثم منها إلى الصالحية فبلبيس . والمستقر فى كل مركز ست هجن ، خمسة للأحمال

وهجين للهجان ، تكون كل نقلة خمسة أحمال . ولا تستقر هذه الهجن بالمراكز إلا أوان حمل الثلج وهى من حزيران الى تشرين وعدة نقلاته إحدى وسبعون نقلة متقارب مدد ما بينها . ويجهز مع كل نقلة بريدى يتداركها ويجهز معها ثلاج خبير .

ليس الذى عرضنا له واستشهدنا به إلا القليل مما عند القلقشندى . وليس باستطاعتنا أن نفعل غير ذلك . فثمة فصول وأبواب لم نشر حتى إلى أسمائها كالفصول التى تناول فيها المؤلف الايمان وأحكامها فى الشرع وأثرها فى المعاهدات ، وتلك التى بحث فيها الخط ورسم الحروف وقواعد الكتابة وتطور الخطوط وفى الكتاب مئات من الرسائل البليغة كان المؤلف كتبها فى مناسبات مختلفة فاستشهد بها وضمنها كتابه .

وقد أقبل الأدباء والمتأدبون على صبح الأعشى إقبالا كبيرا قال فيه المؤلف « لكنى أحمد الله تعالى على رواج سوق تأليفى ونفاق سلعته ، والمسارعة الى استكتابه قبل انقضاء تأليفه . حتى أرى قلمى التأليف والنسخ يتسابقان فى ميدان الطرس الى اكتتابه ، ومرتقب نجازه للاستنساخ ويساهمها فى ارتقابه ، فضلا من الله ونعمة ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

ولا بد لنا فى مختتم هذا الحديث من الاشارة الى أن الطبعة المتداولة من صبح الأعشى هى طبعة دار الكتب وهى فى أربعة عشر جزءا . ولا ريبة عندى ، وعند من أتاحت له ظروفه أن يتعرف إلى صبح الأعشى ، فى أن هذا الكتاب فى مقدمة الكتب التى وصلت إلينا من السلف الصالح .

٢ — مصــر

نالت مصر من عناية القلقشندى الحـظ الكبير . ولا غرابة فى ذلك فهو مصرى ،ومصر كانت فى ذلك الوقت مقرّ الخليفة والسلطان وفيها العاصمة ومنها تدار الأقطار التابعة للمماليك .

يبدأ المؤلف بحثه عن مصر بذكر فضائلها ومحاسنها، وخواصها وعجائبها وآثارها، ويعرض للنيل من مبدئه الى مصبه، ويتابعه فى زيادته ونقصه ، ثم يتناول خلجان مصر وبحـيراتها و زروعها ورياحينها ومواشيها ووحوشها وطيـورها . فاذا انتهى من ذلك روى تاريخها مختصرا وما مرّ عليهـا من أدوار وانتقل إلى ترتيبها وإدارتها فى عصره . وهنا تظهر قيمة صبح الأعشى كمصدر للتاريخ، على اختلاف اتجـاه الكتّاب . فهو يحدّثنا عن المعاملات والأثمان والتنظيم الاقتصادى ومصادر الثروة،وسياسة الدولة المـالية فى دخلها وخرجها . وهذه المسائل هى التى سنحاول تلخيصها فى هذا الحديث .

فمصر « مع ما اشتملت عليه من الفضائل،وحذت به من المـآثر،أعظم الأقاليم خطرا ، وأجلها قدرا، وأفخمها مملكة، وأطيبها تربة ، وأخفها ماء ، وأخصبها زرعا، وأحسنها ثمارا وأعدلها هواء وألطفها سا كنا . ولذلك ترى الناس يرحلون إليها وفودا،و يفدون عليها من كل ناحية، وقل أن يخرج من دخلها ، أو يرحل عنها من ولجها ، مع ما اشتملت عليـه من حسن المنظر، وبهجة الرونق ولا سيما فى زمن الربيـع ، وما يبدو بها من الزروع التى تملأ العين وسامة وحسنا، وتروق صورة ومعنى . وبعد أن يعدّد نباتها ورياحينها وفـوا كهها يقـول « وأما أصناف المطعوم ففيها ما يستطاب من الألبـان والأجبان ،والعسل الذى لا يساوى حسنا ولا يشبهه غيره من سائر الأعسال،

والسكر الكثير من المكرر والتبع والوسط والنبات ، ومنها يجلب إلى أكثر البلاد » .

وقد أقام القلقشندى زمنا فى كل من القاهرة والاسكندرية فوصف المدينتين وصفا خلابا . فالقاهرة « قد اتسعت خططها و زادت العمارة حولها وصار ما هو خارج سورها أضعاف ما هو داخله ...وهذه عمارتها تتزايد ومعالمها تتجدّد حتى صارت على ما هى عليه فى زماننا (أى زمن المؤلف) من القصور العلية والدور الفخمة والمنازل الرحيبة والأسواق الممتدة والمناظر النزهة والجوامع البهجة والمدارس الرائقة والخوانق الفاخرة، مما لم يسمع بمثله فى قطر من الاقطار ، ولا عهد نظيره فى مصر من الأمصار ، وغالب مبانيها بالآجر،وجوامعها ومدارسها و بيوت رؤسائها مبنية بالحجر المنحوت ،مفروشة الأرض بالرخام، ومؤزرة الحيطان به ، وغالب أعاليها من أخشاب النخل والقصب المحكم الصنعة، وكلها أو أكثرها مبيضة الجدر بالكلس الناصع البياض ، ولأهلها القوّة العظيمة فى تعلية بعض المساكن على بعض حتى أن الدار تكون من طبقتين الى أربع طبقات بعضها على بعض ، فى كل طبقة مساكن كاملة بمنافعها ومرافقها ، وأسطحة مقطعة بأعلاها بهندسة محكمة وصناعة عجيبة . أما الاسكندرية فيقول المؤلف فى وصفها «وهى الآن بالنسبة الى ما تشهد به التواريخ من بنائها القديم جزء من كل ، وهى مع ذلك مدينة رائقة المنظر، حسنة الترصيف ، مبنية بالحجر والكلس مبيضة البيوت ظاهرا و باطنا كأنها حمامة بيضاء ، ذات شوارع مشرعة، كل خط قائم بذاته كأنها رقعة الشطرنج ،يستديربها سوران منيعان،يدور عليهما من خارجهما خندق فى جوانب البلد المتصلة بالبر، ويتصل البحر بظاهرها من الجانب الغربى

مما يلى الشمال الى المشرق... وبهما أبراج حصينة عليها الستائر المستترة والمجانيق المنصوبة. «وبمثل هذا الأسلوب الظريف» يصف المؤلف مراكز النيابات والولايات والموانئ التجارية على البحر الأحمر وغيره. وإن كنا نأسف لشىء، فنحن نأسف لأنه لم يذكر عدد السكان فى هذه المدن، أو فى مصر كلها.

ومع أن القلقشندى لم يكتب فصلا خاصا فى موارد الثروة المصرية، فاننا نستطيع أن نعثر على الذى نريد تحت أبحاث المال الخراجى وواردات بيت المال وما شابه ذلك. فالمصدر الأصلى لثروة المصريين فى ذلك الوقت الزراعة والتجارة. فهو يعدد أنواع الأرض فيصل الى ثلاثة عشر نوعا أحسنها الباق وهو أغلاها سعرا لأنه يصلح لزراعة القمح والكتان، وأردؤها السباخ وهو الأرض التى يغلب عليها الملح حتى لم ينتفع بها فى زراعة الحبوب. وهو عند ذكر كل نوع يبين غلاته وعلاقة ذلك بالماء والرى. وهو إلى ذلك يجعل فى بدء مقاله عن مصر ما تنتجه البلاد وما يجود فيها وحاجته إلى الماء وأساليب الرى. ويذكرنا بأن مصر (لا يوجد فيها الجوز والفستق والبندق والإجاص إلا مجلوبا بعد جفافه. وإن زرع بأرضها شىء من ذلك لم يفلح. والزيتون فيها بقلة، ولا يستخرج منه زيت البتة وإنما يؤكل ملحا.

ويتناول التجارة عند ذكره المكوس، فيعطينا صورة واضحة للنشاط التجارى إذ يصف عيذاب والقصير والطور والسويس والاسكندرية ودمياط وقطيا.

ولم يغفل المؤلف معادن مصر، فيستخرج الزمرد بالقرب من قوص، والشب فى بلاد الصعيد والواحات، وقد بيع منه فى الاسكندرية وحدها ثلاثة عشر ألف قنطار وثمنه يقرب من سبعين ألف دينار (حول ٤٠ ألف

جينـه) والنطرون موجود فيها بكثرة ، ومعدن النفط يجمع على ساحل بحر القلزم .

وصبح الأعشى غنى فى الصور الدقيقة التى يعرض فيها المؤلف للتنظيم المالى والادارة فى عصره . فالأموال الديوانية تقابل فيـه ما نسميه موارد الدولة فى أيامنا . وهذه مفصلة هناك ، وهى مقسمة إلى شرعى وغير شرعى ، والشرعى ما اقتضته ظروف الادارة وأحوال العمران وتنظيم الملك الاسلامى . والأموال الديوانيـة الشرعية هى المال الخراجى وما يتحصل مما يستخرج من المعادن والزكاة والجوالى أى الجـزية ، وما يتحصل من دار الضرب بالقـاهرة ، والمواريث الحشرية وما يؤخذ من تجار الأورو بيين الواصلين إلى الديار المصرية بالبحر . وهذه الأنواع السبعة مبوّبة كلها مبينة أحكامها . ومما يجدر ذكره هو أن المال الخراجى فى الوجه القبلى أى الصـعيد يدفع إلى بيت المال عينا أى من غلات الأرض أما الوجه البحرى أى الدلتـا فغالب خراجه دراهم . وكانت المعادن حكرا للسلطان . أما الأموال الديوانية غير الشرعية بالديار المصرية فهى المكوس ، سواء فى ذلك ما اختص بالديوان السلطانى وما كان تابعا للاقطاعات .

فاذا رغبنا فى التعـرّف الى مصروفات السلطان وجدنا أن القلقشندى كفانا مؤونة البحث فى مختلف الأماكن . فقـد جمعها تحت عنوان عادة السلطان فى إجراء الأرزاق . وهـذه عنده على ضربين الجارى المستمر والانعام وما يجرى مجراه . فالاقطاعات ورزق أرباب الأقلام من الضرب الأول . والخلع والتشاريف والخيول التى تهدى مرتين فى العام للأمراء ، والكسوة والحوائص والمأكول والمشروب من الضرب الثانى . والاقطاعات

فى هـذه المملكة تجرى على الأمراء والجند ، وعامة إقطاعاتهم بلاد وأراض يستغلها مقطعها ويتصرف فيها كيف شاء، وربمـا كان فيها نقد يتناوله من جهات، وهـو القليل، وتختلف باختلاف حال أربابها . أما رزق أرباب الأقلام فيتوقف مقـداره على العمل ، فالوزير له فى الشهر مائتان وخمسون دينـارا . والى الاقطاعات والأرزاق توجد الرواتب الجارية لمن بالحضرة السلطانية من اللحم والتـوابل والخبز والعليق والزيت والسكر والكسوة . أما الخلع والتشاريف فقد نقل المؤلف عنها قول صاحب المسالك "ولصاحب مصر فى ذلك اليد الطولى حتى بقى بابه سوقا ينفق فيـه كل مجلوب ويحضر النـاس اليه من كل قطر ، حتى كاد ذلك ينهك المملكة ويودى بمتحصلاتها عن آخرها » .

أشار المؤلف الى التغيير الذى أدخله صلاح الدين على ترتيب المملكة ثم قال "وجاءت الدولة التركية — وهو يعنى الممـاليك — وقد تنقحت المملكة وترتبت، فأخذت فى الزيادة فى تحسين الترتيب وتشيد الملك وقيام أبهته . ونقلت عن كل مملكة أحسن ما فيها، فسلكت سبيله ونسجت على منـواله حتى تهذبت وترتبت أحسن ترتيب، وفاقت سائر الممـالك وفخر ملكها على سائر الملوك". وهذا الترتيب والتهذيب الذى يشير إليه القلقشندى هو التنوع والتعقيد فى الادارة الحكومية الذى اقتضته أحوال الدولة الاسلامية فى القرن الثامن الهجرى . ونحن ندرك هذا إذا تذكرنا الأمور التالية :

(١) كانت مصر فيهـا ثلاث نيابات للاسكندرية والوجه القبـلى والوجه البحرى .

(٢) وكانت مقسمة إلى ثمانية عشر عملا تدار إدارة مدنية هذا فضلا عن العربان الذين كانت لهم نظمهم الخاصة .

(٣) إننا إذا عرضنا لوظائف أرباب السيوف وجدناها خمسا وعشرين في الحضرة السلطانية وإحدى وعشرين خارج الحضرة السلطانية .

(٤) أنه كانت هناك خمس وظائف دينية رئيسية أهمها قضاء القضاة وكانت الوظائف الدينية الخارجة عن الحضرة السلطانية لا حصر لها .

(٥) كانت الوزارة فى مقدّمة الوظائف الديوانية لكنه كان بالاضافة اليها ما يزيد على عشرين من الوظائف الهامة . هذا وحده يرينا دقة الاداة الحكومية ، فإذا أردنا أن نعدّ هذه الوظائف طال بنا الحديث ، لكن إجمال الأعمال التى كانت تقوم بها الدولة مجتمعة تكفينا . فقد كانت تشمل النيابة عن السلطان وتنظيم شؤون الجند والإشراف على ديوان الرسائل والجباية وشدّ الدواوين المالية وولاية الحسبة والشرطة والقضاء والنظر فى الأملاك السلطانية والعناية بخزائن السلاح وقضاء العسكر وإفتاء دار العدل . ولنذكر نوعين من الأعمال لهما علاقة خاصة بالحياة الاجتماعية : أولهما تولى شؤون الأطباء والكحالين ومن شاكلهم ، وثانيهما الإشراف على التداريس المختلفة من الفقه والحديث والتفسير والنحو واللغة وغير ذلك مما لا ناظر له خاص به .

وتمثل الحضارة المصرية بقدر ما يصوّرها لنا صاحب الصبح ، وهو ليس مؤرّخ حضارة بالمعنى الفنى الدقيق ، تمثل فى حديثه عن الجسور ووصف حواصل السلطان والمدارس والمواكب والأسمطة التى يعطينا عنها الشىء الكثير ، وإنما ذكرنا الجسور لعلاقتها بالرى . فالجسور توزع المياه على الأرض ، وهى على نوعين السلطانية والبلدية . والأولى جارية مجرى سور المدينة فيجب على السلطان الاهتمام بعمارتها والنظر فى مصلحتها وكفاية العامة أمر الفكرة فيها . وأما البلدية فجارية مجرى الآدر والمساكن

التى داخل السور . وينكر القلقشندى على الناس إهمال الجسور البلدية والسلطانية . وفى هذا الانكار ما يدل على ترك الدولة شأن الزراع مع أنها كانت تعنى بالتاجر .

أما حواصل السلطان ، فإن دلتنا على شيء ، دلتنا على درجة الحضارة المادية التى نعم بها المماليك فى قصورهم ، والتى نرى صورها معكوسة فى قصص ألف ليلة وليلة . فمن هذه الحواصل أو البيوت بيت الشراب المشتمل على أنواع الأشربة وأوانيها النفيسة مما تساوى الآنية الواحدة منها ألف درهم ، ومنها بيت الطشت حيث تغسل الأيدى والقماش ويحفظ فيه ما يلبسه السلطان ومنها بيت الفراش وفيه الفرش والبسط والخيام ومنها بيت السلاح أو بيت الزرد وفيه تحفظ السيوف والقسى والنشاب والرماح والدروع الزردية وغير ذلك ، هذا إلى المطبخ وبيت الطبل وغيرهما .

وعناية المماليك بالمدارس معروفة ، فقد اتخذوها وسائل للتقرب الى الناس وللتكفير عن أخطائهم . وقد بنى برقوق مدرسته الظاهرية أيام القلقشندى ، فجاءت فى نهاية الحسن والعظمة وجعل فيها خطبة وقرر فيها صوفية على عادة الخوانق ودروسا للأئمة ، ونظم الشعراء فيها ، واقترح بعض الأكابر على المؤلف نظم شيء فى المدرسة فقال :

وبالخليلى قد راجت عمارتها	فى سرعة بنيت من غير ما مهل
كم أظهرت عجباً أسواط حكمته	وكم غدت مثلا ناهيك من مثل
وكم صخور تخال الجن تنقلها	فانها بالوحا تأتى وبالعجل

ومواكب السلطان أو هيئاته كما يسميها القلقشندى تصوّر عظمته وفخامة حاشيته إلى درجة كبيرة ، وتتناول مواكب الأكل والجلوس للنظر فى المظالم وحضور صلاة العيدين والجمعة والركوب لكسر الخليج عند وفاء النيل .

”فأعظم أسمطـة السلطان تكون بالايوان الكبير أيام المواكب . إذا خرجت القضاة وسائر أرباب الأقلام من الخـدمة ، مدّ السماط بالايوان الكبير من أوله الى آخره بأنواع الأطعمة المنوّعة الفاخرة ، ويجلس السلطان على رأس الخـوان والأمراء يمنـة ويسرة على قدر مراتبهم فى القـرب من السلطان . فيأكلون أكلا خفيفا ثم يقومون ويجلس من دونهم طائفة بعد طائفة ثم يرفع الخوان . وأما فى بقية الأيام فيمدّ الخوان فى طرف النهار لعامة الأمراء ... ففى أوّل النهـار يمدّ سماط أول لا يأكل منـه السلطان شيئا، ثم سماط ثان قـد يأكل منه السلطان وقد لا يأكل ، ثم سماط ثالث بعـده ، يسمى الطارئ، ومنه مأكول السلطان ... وفى أخريات النهار يمدّ سماطان... وقد يؤتى بثالث ... وأما فى الليل فيبيت بالقرب من مبيت السلطان اطباق من أنواع المآكل المختلفـة والمشروب الفائق ، ليتشاغل أصحاب النـوب بالمأكول والمشروب عن النوم ...“ .

وجلوس السلطان بدار العدل لخلاص المظالم تناوله المؤلف بمـا مؤداه من عادة هـذا السلطان إذا كان بالقلعة فى غير شهر رمضان أن يجلس بكرة يوم الاثنين بايوانه الكبير المسمى بدار العدل ... ويكون جلوسه على الكرسى الذى هو موضوع تحت سرير الملك . ويجلس عن يمينه قاضيان من القضاة الأربعة هما الشافعى والمالكى وعن يساره الحنفى والحنبلى . ويحضر مجلسه قضاة العسكر ومفتو دار العدل ووكيل بيت المـال والناظر فى الحسبة والوزير وأمراء المشورة ويقف من وراء السلطان ممـاليك صغار ... ويقف خلف هـذه الحلقة المحيطة بالسلطان الحجاب لاحضار قصص أرباب الضرورات المساكين ، وتقرأ عليه القصص فمـا احتاج فيه الى مراجعة القضاة راجعهم

فيه، وما كان متعلقا بالعسكر تحدث فيه مع الحاجب وناظر الجيش، ويأمر فى البقية بما يراه .

وقد يركب السلطان لكسر الخليج عند وفاء النيل . وفى هذه الحالة يقتصر على السناجق ... ويتوجه الموكب إلى المقياس فيمد هناك سماط للأكل وتكون حراقة السلطان قد زينت بأنواع الزينة وكذلك حراريق الأمراء وقد شحن البحر بمراكب المتفرجين ... حتى يأتى الجمع الخليج ويصل السد، فيقطع بحضوره ويركب وينصرف الى القلعة .

هذا قل من كثر مما فى صبح الأعشى عن مصر، وقراءته فيها متعة ولذة، فضلا عن المعلومات ، وأننى أرجو من حضرات القرّاء أن يستمتعوا به متى قرأوه .

٣ — العراق

فى السنة ٨٠٣ للهجرة (١٤٠٠ للميلاد) غزا تيمورلنك سوريا واحتل شمالها ودمر مدنه ونهب سكانه . وكانت مملكة تيمور واسعة النطاق تشمل العراق وايران وأواسط آسيا (تركستان) فضلا عن بلاد أخرى كانت له عليها سلطة . وبعد موت تيمور بدأت الدسائس تلعب دورا كبيرا فى الوراثة فقتل أحد خلفائه وسجن الآخر حتى وصل الدور الى ابنه شاه رخ الذى وجه همه إلى الاصلاح وتقرير الأمن، وعنى برفاهية شعبه فى مدة الثمانى والثلاثين سنة التى حكم فيها . وعادت بعده الفوضى وأخذت الدولة فى الضعف حتى تغلب عليها الصفويون فى السنة ٩٠٥ (١٤٩٩) .

والصورة التى يرسمها القلقشندى للعراق ترجع الى القرن الثامن للهجرة ذلك أن المؤلف لم يعرف العراق معرفة شخصية ، فاضطر الى نقل معلوماته

عن المصادر التى وصلت إليه : مثل مسالك الأبصار للتاريخ ، وياقوت وأبى الفدا للوصف الجغرافى . لكنه يورد بين آن وآخر بعض أخبار سمعها من التجار وغيرهم . وعندها تكون أخباره حديثة العهد .

ويعتبر الكاتب العراق جزءا من إحدى ممالك بنى جنكيز خان ، أى مملكة إيران ، التى يقسمها قسمين الجنوبى والشمالى . والجنوبى منها فيه ستة أقاليم . الجزيرة الفراتية والعراق وخوزستان والأهواز وفارس وكرمان وسجستان والزنج . والذى نعنى به الآن الاقليمان الأول والثانى — أى الجزيرة الفراتية والعراق — اللذان يكونان العراق كما نفهمه اليوم .

يتناول صاحب صبح الأعشى كل اقليم فيتحدث عن مدنه وقواعده ثم يشير الى الأنهار المشهورة ويبحث فى الطرق الموصلة الى قواعده ويذكر بعض المسافات ويعنى بالنفائس العلية القدر والعجائب الغريبة الذكر والمتنزهات المرتفعة الصيت . ثم يورد أخبار من ملكه فى الجاهلية والإسلام مشيرا إلى العمال . ويختم فصوله بالمعاملات والأسعار ورزق أصحاب المناصب والجند وترتيب أمور السلطان وديوان الإنشاء .

فالجزيرة يحيط بها الفرات من حدود بلاد الروم ، وهو طرف الحد الغربى الجنوبى ، حتى الأنبار ثم يعطف الحد الى تكريت على دجلة ثم الى الموصل فجزيرة ابن عمر فآمد فحدود أرمينية . أما العراق فيقع جنوبى الجزيرة الى بحر فارس ويحده من الغرب البادية ومن الشرق بلاد الجبال الفارسية . ووصف المؤلف لنهرى العراق الكبيرين — دجلة والفرات — وما يصب فيهما من الروافد ، هذا الوصف دقيق للغاية ، يلاحظ فيه اتجاه الأنهار وانحدارها والاستفادة منها فى الرى والمواصلات .

والقواعد التى يذكرها القلقشندى هى بابل ونينوى الاشورية والمدائن الفارسية قبل الاسلام والكوفة وواسط حتى يصل الى بغداد وسامراء . وتنال المدن من عناية المؤلف الشىء الكثير . فهو بالإضافة إلى تعيين موقعها الجغرافى يذكر متنزهاتها وما اشتهرت به . فقد قال عن حصن كيفا مثلا "والذى أخبرنى به بعض قصاد صاحبها فى سنة تسع وتسعين وسبع مائة أن الملك القائم بها يومئذ اسمه سليمان بن داود ... وذكر أنه يقول الشعر فنظمت له أبياتا وبعثت بها إليه صحبة قاصده أولها .

سليمان الزمان بحصن كيفا	له فى الملك آثار كرام
زكا أصلا، فطاب الفرع منه	وطاب الغصن إذ طاب الكمام
بنو أيوب أبقوا منه ذخرا	ونعم الذخر والقيل الهمام

وكانت حران مدينة عظيمة أما اليوم فخراب ، وشمشاط بلدة الأشجار ، خصوصا شجر البندق . ونصيبين " مخصوصة بالورد الأبيض لا يوجد فيها وردة حمراء وفى شماليها جبل عظيم يقال إنه الجودى الذى استقرت عليه سفينة نوح عليه السلام ، منه ينزل نهرها حتى يمر على سورها وعليه بساتينها ... وبها عقارب قتالة . " وليس بالجزيرة نخل إلا فى سنجار " . ويذكرنا أن عانة الواقعة على جزيرة فى وسط الفرات ، مثل الحديثة ، وانها (أى عانة) تشتهر بالخمر المذكور فى الأشعار . (وسعرت) كثيرة الأشجار من " التين والرمان والكروم جميع ذلك عذى لا يسقى . " ومن المدن الأخرى التى فى الجزيرة — آمد وتكريت البلدة التى ولد فيها صلاح الدين ، وبرقعيد والعمادية وحانى . ويلفت المؤلف نظرنا الى أن بعض البلاد الواقعة فى الجزيرة طبيعيا هى تابعة لحلب من الناحية السياسية ، أى أنها فى ملك المماليك ، مثل الرها وقلعة جعبر وما والاهما .

وتحتل بغـداد مكانا كبيرا فى نفس الكاتب ، فيقص تاريخها منذ أن بناها المنصور الى أن دخلها هولاكو ، ويشير الى ما أضافه خلفاء العباسيين من القصور أو الأسواق أو الأسوار والأبواب وينقل من مسالك الأبصار أنه كان بين جانبي المدينة . القائمين على ضفتى دجلة ، " جسران منصوبان على النهر شرقا بغرب على سـفن وزوارق أوقفت فى المـاء . ومدت بينهـا السلاسل الحـديدية المكعبة بالمكعبات الثقال ، وفوقها الخشب الممـدود وعليها التراب يمر عليها أهل كل جانب الى الآخر بالحمر والجمال والحمول وعلى ضفتى دجلة قصور الخلافة والمدارس والأبنية العلية بالشبابيك والطاقات المطلة على دجلة ، وبناؤها بالآجر " .

" ومن بيـوتها ما هو مفروش بالآجر أيضا ملصق بالقـير وهو الزفت ولهـم الصنائع العجيبة فى الترويق بالآجر ، وبهـا وجوه الخير من الجوامع والمساجد والمدارس والخوانق والربط والبيمارستان والصدقات الجـارية ووجوه المعونة ، وناهيك أنهـا كانت دار الخلافة ومقـر ملوك الأرض . ومنها قلائد الأعناق ، وترابها لمى القبل وأثمـد الأحداق " . والظاهر من رواية صاحب المسالك " أن أوقافهـا ظلت جارية فى مجاريهـا لم تعترضها أيدى العـدوان فى دولة هولاكو ولا فيما بعدها بل كل وقف مستمر بيـد متوليه ، ومن له الولاية عليه . وانما نقصت الأوقاف من سوء ولاة أمورها لامن سواها . ويجدر بنا فى هذا المقام أن نذكر أن ابن بطوطه الذى زار بغداد بعـد هولاكو بنحو مائة عام وصف المدرسة المستنصرية ممـا يدل على أنها سلمت من أيدى التخريب .

وتحيط ببغـداد " البساتين المونقـة والحدائق المحدقة وبها تمـر النخل المفضلة على سـواها من الرطب والتمر وبهـا أنواع الرياحين والخضراوات

والغلال" . وسعرها متوسط فى الغالب لا يكاد يرخص . ولا يفوت القلقشندى أن يلاحظ أن بغداد "وان كانت أم الممالك ودار الخلافة ، فقد اغفل ملوك التتر الالتفات إليها وصرفوا عنايتهم إلى تبريز والسلطانية وغيرهما" .

وأما سرّ من رأى فقد خربت عن قريب من عمارتها ولم يبق فيها عامر سوى مقدار يسير كالقرية .

ويروى أخبار الكوفة والبصرة عمن سبقه من الجغرافيين ، ويشير الى المربد — مربد البصرة — نقلا عن ياقوت . "والأبلة ، فى الجنوب ، مدينة فى فوهتها نهر طوله أربعة فراسخ (نحو عشرة كيلو مترات) شقه زياد بينها وبين البصرة ، على جانبيه قصور وبساتين ومدن على خط واحد كأنها بستان واحد . وهو أحد متنزهات الدنيا الأربعة وهى نهر الأبلة وشعب بوان وصغد سمرقند وغوطة دمشق ... ونهر الأبلة يتسلسل مجراه ، وتتهلل بكره وعشاياه ، ويظله الشجر وتغنى به زمر الطير" وفيه يقول القاضى التنوخى — .

واذا نظرت إلى الأبلة خلتها	من جنة الفردوس حين تخيل
كم منزل فى نهرها آلى السرو	ر بأنه فى غيرها لا ينزل
وكأنما تلك القصور عرائس	والروض حلى وهى فيه ترفل

وعبادان بلدة من العراق ... وتقع على بحر فارس ، وهو محيط بها لا يبقى منها فى البر إلا القليل . وعندها مصب دجلة ... وفى جنوبها وشرقيها علامات للمراكب ببحر فارس لا تتجاوزها المراكب ، وهى خشب منصوبة عند حد الجزر . "وعبادان فى طريق العراق من الجنوب مثل الأبلة كما أن حلوان من الشرق وهيت والقادسية من الغرب" .

واهتمام القلقشندى بالطرق والمسافات لا يقل عن اهتمامه بالمدن أما الطرق فينقلها عن ابن خرداذبه ، متخذا حلب مبدأ لها . وانما اتخذ حلب لأنها آخر المملكة المضافة الى الديار المصرية من جهة الشرق . فالطريق من حلب الى الموصل تمر بمنبج ورأس عين ونصيبين . وتتصل بعد الموصل بالطريق المؤدية الى تبريز والسلطانية . ومن حلب الى السلطانية ثلاثون يوما . ومن الموصل الى بغداد عن طريق الحديثة وسر من رأى والقادسية وقد كانت ثمة طريق أخرى تتجه من ماردين إلى بغداد . وتستمر هذه الطريق إلى البصرة مجتازة واسط والبطائح .

ويعين صاحب الصبح المسافات على أساس الفراسخ والمراحل والأيام . وقد يستعمل مرحلة خفيفة أى أقصر من المرحلة العادية ، على نحو ما نعرف عن الادريسى أنه يستعمل اليوم الطويل .

ولم يذكر القلقشندى نفائس عن العراق ، إلا أنه أشار إلى مغاص اللؤلؤ ببحر فارس وقال عنه أنه من أحسن المغاصات وأشرفها وأعلاها قدرا ونقل عن مسالك الأبصار أن الماردينى الأبيض من أفخر أنواع القماش .

وثمة وصف عام لما كانت عليه مملكة إيران قبيل أيام تيمور جاء فيه، "ثم هم (أى بنو جنكيزخان) فى دهماء مظلمة ، وعمياء مقتمة ، لا يفضى ليلهم الى صباح، ولا فرقتهم الى اجتماع ، ولا فسادهم الى صلاح . فى كل ناحية هاتف يدعى باسمه ، وخائف أخذ جانبا إلى قسمه ، وكل طائفة تتغلب وتقيم قائما تقول هو من أبناء القان ، ثم يضمحل أمره عن قريب، ولا تلحق دعوته حتى يدعى فلا يجيب ."

وأمراء مملكة إيران، التى كانت العراق جزءا منها، على أربع طبقات أعلاها النوين وهو أمير عشرة آلاف، ثم أمير الألف فأمير المائة فأمير العشرة يحيط بالسلطان أربعة أمراء يعرفون بأمراء الألوس وهؤلاء لا يفصل أمر إلا بهم، ولا يمضون أمرا إلا بالوزير. أما الوزير فيمضى الأمر دونهم. والوزير هذا هو حقيقة السلطان وهو المنفرد بالحديث فى المال والولاية والعزل حتى فى جلائل الأمور. فمتحصلات البلاد ودخلها وخرجها إلى الوزير، وإليه يرجع أمر كل ذى قلم، ومنصب شرعى، وله العطاء والمنع. ولا يشاور السلطان إلا فيما جل من المهمات، وقل من الأمور. أما السيف فيقطع فيها كبير أمراء الألوس. وقد كان الجيش الاحتياطى لمملكة إيران مائتى ألف جندى، لكنهم كانوا يستطيعون تجنيد عدد أكبر من هذا بكثير.

أما القضاة فى هذه المملكة فيعينهم قاضى قضاء الممالك الذى يكون فى صحبة السلطان. أما بغداد فقد كان لها قاضى قضاء مستقل بها يولى فيها وفى بلادها، من جميع عراق العرب.

ومن هذه الملاحظات ومن غيرها نستنتج أمرين رئيسيين عن إدارة المملكة. الأول أن إدارتها كانت من النوع اللامركزى، أى أننا نجد فى أنحاء مختلفة عدة ملوك يحكمون بالنيابة عن القان الأكبر، وهم له كالعبيد منقادون إليه وداخلون تحت طاعته. والثانى أن إدارة هذه المملكة كانت إدارة عسكرية فيها شىء من النظام الاقطاعى. ومن ثمة نلاحظ أن العراق قلت غلاته، رغم اتساع سواده، تحت إدارة لم تعن بغير الجيش والضريبة.

ويؤكد لنا صحة هذا الاستنتاج المرتبات الكبيرة التى كانت تصرف لقواد الجيش فلكل نوين أى أمير العشرة الآلاف، ستون ألف درهم وقد يصل

ثلاثة ملايين درهم . والجندى الواحد كان له ستمائة درهم . وأضف إلى ذلك « أنه كان لكل طائفة أرض لتزولهم توارثها الخلف عن السلف منذ ملك هولاكو البلاد، فيها منازلهم ولهم بها مزدرع لأقواتهم لكنهم لا يعيشون بالحرث والزرع » ويقول فى مكان آخر « والذى للأمراء والعسكرية لا يكتب به مرسوم لأن كل طائفة ورثت مالها من ذلك عن آبائها وهم على الجهات التى قررها لهم هولاكو لم تتغير بزيادة ولا نقص . وفى هذه المملكة ما لا يحصى من الادرارات والرسومات ... وهذه تبقى لصاحبها كالملك يتصرف فيه كيف شاء من بيع وهبة ووقف لمن أراد .

وقد تناول صاحب الصبح المغول كشعب فذكر ما كانت عليه شرائعهم، وما اتصفوا به من تسامح، وعاداتهم فى المؤاكلة وطاعتهم لملكهم. "فهم من أعظم الأمم طاعة لسلاطينهم ، لا لمال ولا لجاه بل ذلك دأب لهم ، حتى إنه إذا كان أمير فى غاية من القوة والعظمة و بينه و بين السلطان كما بين المشرق والمغرب من أذنب ذنبا يوجب عقوبة ، وبعث السلطان إليه من أخس أصحابه من يأخذه بما يجب عليه ألقى نفسه بين يدى الرسول ليأخذه بموجب ذنبه ، ولو كان فيه القتل .. ... ورعاياهم قائمون بما يلزمون به من جهة السلطان طيبة به نفوسهم . وإن غاب أحد من الرجال قام النساء بما عليهم".

نرى من هذه الصورة أن العراق الذى كان قلب العالم العربى الخفاق قرونا طويلة، قد أخذته فى هذه الفترة سنة من الكرى . فقد أصبح تابعا لدولة غريبة عنه، غريبة الوجه واليد واللسان، على نحو ما قال المتنبى فى شعب بوان . لكن الذى بقى فى العراق على حاله ولم تتغير هو عروبة الأدب وعروبة اللغة وعروبة الشعور . وهذا لن يتغير أبدا .

٤ — الجـزيرة العربيـة

(يحدّ جزيرة العرب من جهة الغرب بحر القلزم « البحر الأحمر » ومن جهة الجنوب بحر الهنـد ومن جهة الشرق بحـر فارس ومن جهـة الشمال الفرات . فهي تحتوى الحجاز ونجدا وتهامة واليمن واليمامة والبحرين وقطعة من بادية الشام وقطعة من بادية العراق). هذه الجزيرة العربية على ماحدّدها القلقشندى وقسمها .

وقد نال الحجاز الحظ الأوفى من عناية المؤلف وذلك لسببين: أما الأول فوجود مكة المكرمة والمدينة المنورة فيه، وأما الثانى فان الحجاز كان عنـدها من مضافات المملكة المصرية ، ويلى الحجاز اليمن . أما ما تبـقى من أجزاء الجزيرة فيعرض له عرضا بسيطا مقتضيا . يلاحظ الكاتب أن جميع أرض الحجاز جبال وأودية ليس فيها بسيط من الأرض، وجباله أكثر من أن تدخل تحت العد و يأخذها الحصر، وأشهرها جبـال مكة والمدينة والينبع . وليس بالحجاز، بل بجزيرة العرب جملة ، نهر يجرى فيه مركب . و إنمـا فيه العيون الكثيرة المتفجرة من الجبال المعتضدة بالسيول والأمطار ، الممتـدّة من واد إلى واد، وعليها قراهم وحدائقهم و بساتينهم مما لايحصى . واليمن كثير الأمطار وأكثر مطره فى أخريات الربيع إلى وسط الصيف . وهو إلى الحرّ أميل . وبه الأنهار الجارية والمروج الفيح والأشجار المتكاثفـة فى بعض الأمكنة . أما الأجزاء الباقية من جزيرة العرب فلا يعطينا القلقشندى وصفا عاما لهـا، لكنه إذ يعرض لمدينة خاصة أو منطقة معينة يذكر شيئا عن جوّها . فعمان شديدة الحرارة واليمامة نجاد من الرمال والاحساء جمع حسى وهو الرمل الذى يغوص فيه المـاء « حتى إذا صار إلى صلابة الأرض أمسكته فتحفر عنـه العرب وتستخرجه » .

والحجاز له فضله وخواصه وعجائبه . يروى القلقشندى عنه حديثا نقله عن مسلم هو «غلظ القلوب والجفاء فى المشرق والإيمان فى أهل الحجاز» ثم يضيف قوله «وفى ذلك دليل صريح لفضل الحجاز نفسه ، وذلك أن هواء كل بلد يؤثر فى أهله بحسب مايقتضيه الهواء ... وناهيك بفضل الحجاز وشرفه أن به مهبط الوحى ومنبع الرسالة ... » وبعد تعديد عجائبه يتناول زرعه وفواكهه ورياحينه ومواشيه . فالبر والشعير والذرة والبطيخ والرطب هى بعض غلاته الزراعية ، وخيله يفوق الوصف حسنها و يعجز البرق إدراكها. واليمن ينتج مثل الحجاز أو يزيد . وعمان كثيرة النخل والفواكه . واليمامة كثيرة الحنطة والشعير .

ويحدثنا المؤلف عن الوضع السياسى فى جزيرة العرب . فالحجاز من مضافات المملكة المصرية ، ولمكة أمراء علويون وصاحب الأمر منهم عندئذ حسن بن أحمد ، وللمدينة مثلهم وأمرتها متداولة بين بنى عطية وبنى جماز . و إمرة مكة إمرة إعرابية يمشى أميرها فيها على قاعدة أمراء العرب دون عادة الملوك فى المواكب وغيرها . وأتباعه عرب ، وأكثرهم من بنى الحسن أشراف مكة ، وربما استخدم المماليك الترك .

أما اليمن فمقسوم بين بنى رسول حكام التهائم وبين أئمة الزيدية حكام النجود ، و إمارة الزيدية أعرابية وأئمتهم على مسكة من التقوى وترد بشعار الزهد يجلس أحدهم فى ندى قومه كواحد منهم . وهو (أى الامام) يعتقد فى نفسه ويعتقد أشياعه فيه أنه إمام معصوم ، مفترض الطاعة تنعقد به عندهم الجمعة والجماعة .

وأما اليمامة فقد غلب عليها قيس عيلان كما غلب بعرب بنى قحطان على البحرين .

تغلب على المؤلف كما أشرنا قبلا، العناية بالمدن وأرباضها . وذلك لأن الحياة فى جزيرة العرب تتركز فى هذه الواحات التى تنشأ حولها المدن والقرى ، فاذا أردنا أن نرسم لأنفسنا صورة واضحة لجغرافية بلاد العرب فى أى وقت كان يحتم علينا أن نعرف مواقع مدنها معرفة دقيقة على أنا لا نستطيع أن نفعل ذلك الساعة، فنكتفى ببعض المدن التى عرض لها لعلنا نظفر ببعض الذى نريد .

وليس الغريب أن تشغل مكة والمدينة جزءا كبيرا من الفصول الخاصة بجزيرة العرب . فالمؤلف يصف البيت الحرام ومشاعر الحج والمسجد النبوى وصفا دقيقا يعتمد على أصح المصادر وأوثق الرواة . فمعاملات مكة تقوم على أساس الدنانير والدراهم النقرة ، ونوع آخر من الدراهم المربعة الشكل . وأسعارها فى الغالب مرتفعة عن أسعار الشام . وأكثر متحصل أموالها مما يؤخذ من التجار الواردين من الهند واليمن وغيرهما . "وأما تجهيز ركب الحجيج إليها ففى كل سنة يجهز إليها المحمل من الديار المصرية بكسوة البيت مع أمير الركب، ويكسى البيت بالكسوة الجديدة (المجهزة مع المحمل) ويأخذ سدنة البيت الكسوة القديمة (التى كانت على البيت) فيها دون الملوك وأشراف الناس ... ومن عادة أمير مكة أنه إذا وصل المحمل إلى ظاهر مكة خرج لملاقاته ، فاذا وافاه ترجل عن فرسه ... خدمة لصاحب مصر..." .

أما المدينة فتقع فى مستو من الأرض والغالب على أرضها السباخ . وفى شماليها جبل أحد وفى جنوبها جبل عير . ونقودها مثل نقود مكة ، لكن مقاييسها الذراع الشامى . أما أسعارها فنحو أسعار مكة ، بل ربما كانت مكة أرخى سعرا منها لقربها من ساحل البحر بجدة .

جدّة فرضة مكة على ساحل بحر القلزم . وهى "ميناء عظيمة" محل حط وإقلاع، اليها تنتهى المراكب . ونخل هى قرى مجتمعة ذات عيون وحدائق ومزدرع، وغالب فواكه مكة وقطانيها وبقولها منها . والطائف بلد خصيب كثير الفواكه المختلفة مما يشابه فواكه الشام وغيرها ، وهى طيبة الهواء إلا أنها شديدة البرد حتى أنه ربما جمد بها الماء لشدّة بردها .

ومدن اليمن التى يتحدّث عنها كثيرة ، فتعز حصن فى الجبال مطل على التهائم، أى المنخفض من بلاد اليمن، وفوقها متنزه يقال له مهلة قد ساق له صاحب اليمن المياه من الجبال التى فوقها ، وبنى فيها أبنية عظيمة فى غاية الحسن فى وسط بستان هناك . منها قبة ملوكية ومقعد سلطانى فرشهما وأزرهما من الرخام الملون ... أما البستان ففيه أشجار نقلت اليه من كل مكان تجمع بين فواكه الشام والهند ... "لا يقف ناظر على بستان أحسن منه جمعا، ولا أجمع منه حسنا، ولا أتم صورة ولا معنى" . وعدن على ساحل البحر ذات حط وإقلاع وهى أعظم المراسى باليمن ... وبها قلعة حصينة ، وهى خزانة مال ملوك اليمن إلا أنه ليس بها زرع ولا ضرع ، وهى فرضة اليمن ومحط رحال التجار، ولم تزل بلد تجارة من زمن التبابعة وإلى زماننا . عليها ترد المراكب من الحجاز والسند والهند والصين والحبشة . ويمتار أهل كل إقليم منها ما يحتاجون إليه من البضائع ... ولا يخلو أسبوع من عدّة سفن وتجار واردين عليها وبضائع شتى ومتاجر متنوعة . والمقيم بها فى مكاسب وافرة وتجائر مربحة . ولحط المراكب عليها وإقلاعها مواسم مشهورة . فاذا أراد ناخوذة (أى وكيل السفينة) السفر بمركب إلى جهة من الجهات ، أقام فيها علما برنك خاص به، فيعلم التجار بسفره، ويتسامع الناس . فيبق

كذلك أياما ، ويقع الاهتمام بالرحيل وتسارع التجار فى نقل أمتعتهم ، وحولهم العبيد بالقماش السرى والأسلحة النافعة ، وتنصب على شاطئ البحر الأسواق ويخرج أهل عدن للتفرج هناك ... والمقيم فى عدن يحتاج إلى كلفة فى النفقات لارتفاع الأسعار بها فى المآكل والمشارب ويحتاج المقيم بها إلى ما يتبرد به فى اليوم مرات فى زمن قوة الحر ... لكن أهلها لا يبالون بكثرة الكلف ، ولا بسوء المقام ، لكثرة الأموال النامية .

وتشبه صنعاء دمشق بكثرة مياهها وأشجارها ، واعتدال هوائها ، تتقارب فيها ساعات الشتاء والصيف ويقع بها الأمطار والبرد ... وعمارتها متصلة ، وليس فى بلاد اليمن أقدم منها عمارة ولا أوسع منها قطرا .

والمدن فى بقية أنحاء بلاد العرب لا يعنى بها المؤلف عناية خاصة ، فلا نحصل منه على معلومات مثل التى نقلناها عن عدن . فعمان "كثيرة النخيل والفواكه ولكنها حارة جدا" ، والقطيف "على شط بحر فارس وبها مغاص لؤلؤ وبها نخيل الاحساء ... ولها خور فى البحر تدخل فيه المراكب الكبار الموسقة فى حالة المد والجزر ، وبينها وبين البصرة ستة أيام ، وبينها وبين عمان مسيرة شهر" .

وفى صبح الأعشى فصول متفرقة عن الطرق الموصلة بين أجزاء بلاد العرب ينقلها عن ابن خرداذبة ومسالك الأبصار ، لكننا لا ننوى التعرض لها الآن .

وفى بعض مارواه القلقشندى عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى اليمن ، يجد فيه القارئ متعة ولذة وفائدة . فقد عرض لواردات الدولة ونظام المجتمع فأعطانا صورا حرية بالنقل فهو يقول :

" لليمن ارتفاع صالح من الأموال غالبه من موجبات التجار الواصلين من الهند ومصر والحبشة وتجتمع لهم الأموال لقلة الكلف على الدولة فيبنون بذلك القصور المتعددة حتى أن صاحب اليمن لاينزل فى أسفاره إلا فى قصور مبنية له فى منازل معروفة فى بلاده على أنه ليس باليمن أسواق مرضية دائمة. وإنما يقام لها سوق يوم الجمعة. تجلب فيه الأجلاب ويخرج فيه أرباب الصنائع والبضائع بضائعهم وصنائعهم، فيبيع من يبيع ويشترى من يشترى. ومن أعوزه شىء فى وسط الجمعة يكاد لا يجده إلا المآكل.

على أن لأهل اليمن سيادات بينهم محفوظة، وسعادات عندهم ملحوظة. ولأكابرها حظ من رفاهية العيش والتنعم والتفنن فى المآكل. يطبخ فى بيت الرجل منهم عدة ألوان، ويعمل فيها السكر والقلوب، وتطيب أوانيها بالعصر والبخور. ويكون لأحدهم الحاشية والغاشية وفى بيته العدد الصالح من الأماء، وعلى بابه جملة من الخدم والعبيد. ولهم الديارات الجليلة والمبانى الأنيقة، إلا الرخام ودهان الذهب واللازورد فانه من خواص السلطان لا يشاركه فيه أحد".

وصاحب التهائم من اليمن أى سلطان بنى رسول قليل التصدى لاقامة رسوم المواكب والخدمة، والاجتماع بولاة الأمور ببابه. فاذا احتاج أحد من أمرائه أو جنده الى مراجعته فى أمر، كتب اليه قصة يستأمره فيها فيكتب عليها بخطه ما يراه. وكذلك اذا رفعت اليه قصص المظالم فهو الذى يكتب عليها بخطه بما فيه إنصاف المظلوم. وأرباب الوظائف القائمون على خدمته منهم النائب والوزير والحاجب وكاتب الجيش وديوان المال وكتاب الانشاء. وصاحب اليمن هذا لا عدو له لأنه محجوب ببحر زاخر، وبر منقطع من كل جهة وللمسالمة بينه وبينهم، فهو لهذا قرير العين خالى البأس.

ولباس السلطان وعامة الجند باليمن، أقبية إسلامية، ضيقة الأكمام، مزندة على الأيدى، وفى أوساطهم مناطق مشدودة، وعلى رؤوسهم تخافيف قلانس وفى أرجلهم الدلاكسات وهى أخفاف من القماش الحرير الأطلس والعتابى ... وشعار السلطان وردة حمراء فى أرض بيضاء ... والسنجق اليمنى الذى رفع فى عرفات سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة كان أبيض فيه وردات حمر كثيرة .

وملوك اليمن مقصودون من آفاق الأرض ، فكل مجيد فى صنعة من الصنائع يصنع للملك شيئا ثم يجهزه اليه ، فيقبله منه ويحسن نزله ويسنى جائزته . فان أقام ببابه أقام مكرما محترما أو عاد محبوا محبورا . ولا يسمحون لغريب بالعودة مع أمواله إلا اذا قدم القول بأنه أتاهم راحلا لا مقيما . وإلا جردوه مما استفاد عندهم، وخرج عنهم على أسوأ حال . ولكثرة من يقصدهم من مهرة الصناع، اشتهرت اليمن بجودة الصناعة .

أما النجود من اليمن، وهى بلاد أئمة الزيدية الشرفاء فهى جبال شامخة ذات عيون دافقة ، ومياه جارية ، على قرى متصلة الواحدة الى جانب الأخرى . وليس لواحدة تعلق بالأخرى ، بل لكل واحدة أهل يرجع أمرهم الى كبيرهم ولا يضمهم ملك ملك ولا يجمعهم حكم سلطان . وإمامها يجلس فى ندى قومه كواحد منهم، ويتحدث فيهم ويحكم بينهم ، سواء عنده الشريف والمشروف والقوى والضعيف . وربما اشترى سلعته بيده ومشى بها فى أسواق بلده، لا يغلظ الحجاب ولا يكل الأمور الى الوزراء والحجاب، يأخذ من بيت المال قدر بلغته من غير توسع ولا تكثر . هكذا هو وكل من سلف قبله مع عدل شامل وفضل كامل . والأئمة فى هذا البيت أهل علم يتوارثونه، إمام عن إمام، وقائم عن قائم .

وأهـل النجود أهل سـلامة وخير وتمسـك بالشريعة و وقوف معها ويعضون على الدين بالنواجد ، ويقرون كل من يمر بهـم ويضيفونه مدّة مقامه حتى يفارقهم . واذا ذبحوا لضيفهم شاة قدموا له جميع لحمها ورأسها وأكارعها وكبدها وقلبها وكرشها فيأكل ويحمل معه ما يحمل . ولا يسافر أحد منهم من قرية الى أخرى إلا برفيق يسترفقه منها فيخفره .

وإن كنا نأسف فلأن صاحب الصبح لم يحدّثنا عن المجتمع العـربى فى نجد وغيرها من بلاد الجزيرة . وكم كان بودنا لو أنه فعل .

٥ — سـورية

يتحدّث القلقشندى عن سورية باعتبارها المملكة الشامية ومضافاتها من بلاد الأرمن والروم وبلاد الجزيرة بين الفرات ودجلة . وهـذه المضافات ، إلا الأخيرة منها ، قليـلة . لذلك فالمملكة الشامية ، على ما يحدّدها صاحب الصبح ، تتفق مع ماقبله جغرافيو العرب عامة من أن الشام يمتد من الفرات شرقا الى بحر الروم غربا ومن جبال طوروس شمالا إلى صحراء سيناء جنوبا ، وحدوده السياسية هنا عمل العريش .

يبدأ القلقشندى حديثه بذكر فضل الشام . فيروى حديثا خلاصته أنه " طوبى لأهل الشام ... لأن الملائكة باسطة أجنحتها عليه " . ثم يضيف " هذا وقد بعث به الكثير من الأنبياء ، وفيه ضرائحهم ، وفيه المسجد الأقصى الذى هو أحد المساجد الثلاثة التى تشد إليها الرحال " ثم يعود فينقل حديثا آخر هو " إن الله بارك فيما بين العريش إلى الفرات وخص فلسطين بالتقديس " .

وينتقل المؤلف بعد ذلك الى ذكر خواص الشام وعجائبه . فأما خواصه فان به الأماكن التى تعظمها الأمم على اختلاف عقائدهم كالأقصى والصخرة

وكنيسة القيامة وطور نابلس وكنيسة صور . وأما عجائبه فكثيرة يذكر منها الكاتب حمة طبرية ، ووادى الفرات قرب حصن الأكراد ، وقبة العقارب فى حمص ، " وهى قبة بالقرب من مسجدها الجامع ، إذا أخذ شىء من تراب حمص وجبل بالماء وألصق بداخل القبة وترك حتى يجف ويسقط بنفسه، من غير أن يلقيه أحد، ثم أخذ ووضع شىء منه فى بيت، لم يدخله عقرب، أو فى قماش لم يقربه . " ومن عجائب الشام حمام القدموس، وهى قلعة من عمل طرابلس، يخرج منها أنواع كثيرة من الحيات تظهر من أنابيب مائها وتدخل فى ثياب داخلها ، ولم يشتهر أنها أضرت أحدا قط على ممر الدهور وتطاول الأزمنة . وفى سور قلعة الخوابى " صدع " إذا لدغ أحد بحية فأتى إلى ذلك الموضع فشاهده بعينه، أو أرسل رسوله فشاهده، سلم من تلك اللدغة ، ولم يضره السم . وينقل صاحب الصبح عن ابن الأثير أن بقرى حلب قرية تسمى براق يقال أن بها معبدا يقصده أصحاب الأمراض ويبيتون به . فأما أن يرى المريض فى منامه من يقول له استعمل كذا وكذا فيبرأ، أو يمسح عليه بيده فيبرأ .

ويعرض المؤلف لما بين الكتاب من خلف حول حدود الشام وتسميته وبدء عمارته . ولكن القلقشندى كاتب فى ديوان الإنشاء فهو يعنى بالوضع الذى كان فى عصره أكثر مما يعنى بالتاريخ، وتهمه الأحوال السياسية الإدارية أكثر مما تهمه خلافات المؤرخين . فيترك ذلك عاجلا وينتقل إلى أنهار الشام العظيمة وبحيراته وجباله المشهورة وزروعه وفواكهه ورياحينه ومواشيه ووحوشه وطيوره فيشير إليها إشارة مختصرة لكنها دقيقة، والمؤلف حريص على أن يقابل زروع الشام بمثلها فى مصر. فالشام تنبت فيه حبوب

مصر كلها ولكن لا يوجد فيـه الكتّان ولا البرسيم . ويزرع قصب السكر في أغواره، إلا أنه لا يبلغ في الكثرة حدّ مصر . وفواكه الشام أكثر أنواعا وأبهج منظرا من فواكه مصر، وتزيد عليها في الجـوز والبندق والأجاص والعناب والزعرور . والزيتون في الشام في غابات كثيرة، ومنه يعتصر الزيت وينقل إلى أكثر البـلدان . أما البلح والرطب فمعدمان في الشام أصـلا . ورياحينه تزيد عن رياحين مصر، خصوصا في الورد، حتى إنه يستقطر منه ماء الورد وينقل منـه إلى سائر البلدان . وأما من المواشي فالشام فيـه جميع مواشي مصر من الإبل والبقر والغنم والخيل والبغال والحمـير . إلا أن أبقاره لا تبلغ في العظم مبلغ أبقـار مصر، وأغنامه لا تبلغ في اللحم مبلغ أغنامها، وحميره لم تبلغ في الفراهة مبلغ حميرها . وبعد أن عدد طيوره نقل عن مسالك الأبصار أن الفراريج لا تكون في الشام إلا بحضانة، ولا تنجح فيها المعامل التي تعمل لاخراج الفراريج في مصر . ويذكر أن رجلا من أهل مصر عمل في الشام معملا فصعد له العمل في الصيف دون الخريف .

وإذ يتناول القلقشندي تقسيم الشام السياسي يعرض للتقسيم القديم الذي كانت عليه البلاد بعيد الفتح الاسلامي، أيام كانت خمسة أجناد هي من الجنوب إلى الشمال، فلسطين والأردن ودمشق وحمص وقنسرين، ثم ينتقل إلى تقسيم سوريا في عهده، أي في زمن المماليك . وقد كانت البلاد عندها ست قواعد، كما يسميها، هي : دمشـق، وحلب وحماه وطرابلس وصفد والكرك . وكانت قاعدة حلب تشـمل أقصى شمال سوريا فتدخل فيها أنطاكية غربا، والثغور والعواصم شمالا، وما كان المماليك قد احتلوه من أرمينيا، وبعض أجزاء الجزيرة الفراتية ممـا كان تحت سلطانهم . وقاعدة

حماة تقتصر على المدينة نفسها والمعرة والقرى التابعة للمدينتين بين البادية السورية وجبال النصيرية . وكانت قاعدة طرابلس تمتد من جهات أنطاكية شمالا إلى شمال بيروت جنوبا وتشمل سفوح لبنان الغربية والقلاع الرئيسية فى لبنان وجبال النصيرية، فتتبعها اللاذقية وجبلة والمرقب وحصن الأكراد والقدموس . أما قاعدة صفد فكان يدخل فيها صور والشقيف وطبريا والناصرة وجنين وعكاء، فهى تشمل شمال فلسطين وجنوب لبنان الحاليين . والكرك كانت تتبعها الشوبك ومعان وزغر . وما تبقى من سوريا كان يدخل فى قاعدة دمشق فكانت حمص وبيروت وصيدا والقدس والغور وما تبقى من فلسطين تابعة لدمشق رأسا .

ويحدثنا المؤلف عن الأعمال التابعة لكل من هذه القواعد، وعندها يعرض للمدن بوصف مجمل . فدمشق " مدينة حسنة الترتيب ، جليلة الأبنية ... وغوطتها أحد مستنزهات الدنيا العجيبة ... وبها الجوامع والمدارس والخوانق والربط والزوايا ، والأسواق المرتبة والديار الجليلة المذهبة السقف المفروشة بالرخام المنوع، ذات الماء الجارى . وربما جرى الماء فى الدار الواحدة فى أماكن منها ... وغالب بنائها بالحجر ، ودورها أصغر مقادير من دور مصر لكنها أكثر زخرفة منها ... ويستعمل فى عمارتها خشب الحور بدلا من خشب النخل ... وجانب المدينة الشمالى يسمى العقيبة وهو مدينة مستقلة بذاتها ... يسكنها كثير من الأمراء والجند . وبإزاء المدينة فى سفح جبل قاسيون مدينة الصالحية . وهى مدينة ممتدة فى سفح الجبل بإزاء المدينة فى طول مدى يشرف على دمشق وغوطتها . ذات مساجد ومدارس وربط وأسواق وبيوت جليلة ... " وغزة على طرف الرمل بين مصر والشام ،

آخذة بين البر والبحر بجانبيها ، مبنية على نشز عال على نحو ميل من البحر ، متوسطة فى العظم ، ذات جوامع ومدارس وزوايا وبيمارستان وأسواق . " والرملة قصبة فلسطين وميناها مدينة يافا ، وهى مدينة صغيرة بالساحل . وقد كانت اللد قصبة فلسطين فى الزمن الأول حتى بنى سليمان بن عبد الملك الرملة فتحوّل الناس إليها وتركوا اللد . وفاقون هى مدينة غير مسوّرة ، بها جامع وحمام وقلعة لطيفة ، أما فى زمننا هذا ففاقون قرية صغيرة .

والقدس مبنية على جبل مستدير ، وعرة المسالك ، بناؤها بالحجر والكلس ، وشرب أهلها من ماء المطر المجتمع بصهاريج المسجد الأقصى وعين تجرى إليها عن بعد وكذلك عين سلوان ... وكانت المدينة كلها قد غلب عليها الخراب ثم تراجع أمرها للعمارة ، وصارت فى نهاية الحسن ، بها المدارس والربط والحمامات والأسواق وغيرها . ونابلس مدينة يحتاج إليها ولا تحتاج إلى غيرها . وليس بفلسطين بلدة فيها ماء جار سواها وبيسان مدينة صغيرة بلا سور ذات بساتين وأشجار وأنهار وأعين ، كثيرة الخصب واسعة الرزق ولها عين تشق المدينة . وصرخد بلدة صغيرة ذات بساتين وكروم وليس بها ماء سوى ما يجتمع من ماء المطر فى الصهاريج والبرك ، وليس وراء عملها من جهة الجنوب وإلى الشرق إلا البرية . ومنها تسلك طريق تعرف بالرصيف إلى العراق يصل المسافرون منها إلى بغداد فى عشرة أيام ... وبها قلعة محدثة البناء بدئت قبل نور الدين الشهيد بقليل ، ولما وصلت عساكر هولاكو ملك التتار إلى الشام هدموا شرفاتها وبعض جدرانها فجددها الظاهر بيبرس وهى على ذلك إلى الآن . وبعلبك مختصرة من دمشق فى كمال محاسنها وحسن بنائها وترتيبها ... وفيها يعمل الدهان الفائق (من الماعون وغيره) ،

ويحمل منها إلى غالب البلدان مع كونها واسعة الرزق رخيصة السعر. وكانت دار ملك قديم، وحمص من أصح بلاد الشام هـواء، وبوسطها بحيرة صافية الماء ينقل السمك إليها من الفرات حتى يتولد فيها والطير مبثوث فى نواحيها ... وقماشها يقارب قماش الاسكندرية فى الجودة والحسن وإن لم يبلغ شأوه فى ذلك. وبيروت مدينة جليلة على شاطئ البحر الرومى ... وبها جبل فيه معدن حديد، ولها غيضة من أشجار الصنوبر سعتها اثنا عشر ميلا تتصل إلى تحت لبنان ... وهى فرضة دمشق، ولها ميناء جليلة. وحماة على ضفة العاصى مكينة البناء ... بها القصور المملوكية والدور الأنيقة والجوامع والمساجد والمدارس والربط والزوايا والأسواق التى لا تعدم نوعا من الأنواع ... وكان الصيت لحمص دونها، فلما آلت إلى بنى أيوب مصروها بالأبنية العظيمة ... وعظموا أسواقها وجلبوا إليها من أرباب الصنائع كل من فاق فى فنه إلى أن كملت محاسنها ... وهى فى غاية من رفاهة العيش ... وحولها مروج فيح ممتدة، يكثر فيها مصايد الطير والوحش. وطرابلس، أو أطرابلس كما يسميها القلقشندى، مدينة متمدنة كثيرة الزحام وبها مساجد ومدارس وزوايا و بيمارستان وأسواق جليلة وحمامات حسان، وجميع بنائها بالحجر والكلس مبيضا ظاهرا و باطنا وغوطتها محيطة بها وتحيط بغوطتها مزدرعاتها ... ومیناها جليلة تهوى إليها وفود البحر الرومى وترسو بها مراكبهم وتباع بها بضائعهم، وهى بلدة متجر ومزدرع.

وحلب مدينة عظيمة من قواعد الشام القديمة وهى فى وطاءة حمراء ممتدة، مبنية بالحجر الأصفر أنيقة المنازل، واسعة الأسواق، حسنة القياسر بهجة الحمامات، كثيرة الجوامع والمساجد والمدارس والخوانق والزوايا وغير

ذلك من سائر وجوه البر، وبها بيمارستان حسن لعلاج المرضى وبها عسكر كثيف وأمم من طوائف العرب والأكراد والتركمان. وعينتاب مدينة حسنة واسعة الأرجاء، كثيرة المياه والبساتين ذات أسواق جليلة مقصورة للتجار والمسافرين. وأنطاكية قاعدة بلاد العواصم، وميناؤها السويدية.

واذا نحن عدنا إلى الأجزاء الجنوبية من الشام وجدنا القلقشندى يحدثنا عن صفد بقوله «هى بلدة متوسطة بين الكبر والصغر وربضها منتشر العمارة على ثلاثة أجبل، وأكثر ما يدخل أهلها حمامات الوادى لقلة الماء بها وسوء بناء حماماتها ... وكل ما يوجد فى دمشق يوجد فيها: إما من بلادها، وإما مجلوب إليها من دمشق. ونيابتها نيابة جليلة ونائبها من أكبر المقدمين. أما عكاء فهى خراب الآن، لأن المماليك خربوها لما فتحوها سنة ٦٩٠ خوفا أن يتحصن بها العدو.

والكرك ذات قلعة حصينة وأسواق عامرة وبساتين كثيرة وفواكه وبواديها حمام. والشوبك قطعها المعظم عيسى فاعتنى بأمرها وجلب إليها غرائب الأشجار حتى تركها تضاهى دمشق فى بساتينها وتدفق أنهارها وتزيد عنها بطيب مائها. ومعان كانت مدينة صغيرة وكان يسكنها بنو أمية ومواليهم لكنها خربت هى وعملها ولم يبق بها أحد.

ويظهر من كلام صاحب الصبح أن النقود كانت موحدة الأساس (إلى درجة كبيرة) بين سوريا ومصر. فالدنانير والدراهم النقرة كانت شائعة فى عواصم القواعد الست. أما الوزن والكيل فكانا مختلفين، فدمشق وطرابلس كانتا تستعملان رطلا وزنه ستمائة درهم، بينما كان الرطل الحلبى يزن سبعمائة وعشرين من الدراهم. وبينما كان كيل دمشق الغرارة كانت حلب وطرابلس تستعملان المكوك للكيل. والغرارة تساوى مكوكين ونصف المكوك.

وجيوش سوريا كانت على ما كانت عليه جيوش مصر فى اجتماعها من الترك والجركس والروم والروس والتركمان، وهؤلاء كانوا يقطنون أماكن متعددة فى شمال سوريا .

والوظائف فى القواعد الشامية ، مثل الوظائف السلطانية فى مصر ، أما وظائف أرباب السيوف أو وظائف ديوانية أو وظائف دينية . وتنتظم الأولى نهاية السلطنة فى قواعد كل من الأقسام الستة ، يضاف اليها نيابتان منفردتان لكل من قلعتى دمشق وحلب ويدخل فيها الحجوبية ونقابة الجيش وولاية المدينة وتقدمة البريد . وتشمل الوظائف الديوانية عشر وظائف : منها الوزارة وكتابة السر ونظر الخاص والجامع الأموى والأسواق . وأما الوظائف الدينية فأهمها قضاء القضاة ، وإفتاء دار العدل وقضاء العسكر ونقابة الأشراف والحسبة والتداريس . على أن القلقشندى يُعطينا أنواعا أخرى من الوظائف ، ففى دمشق وحلب نجد رياسة الطب والكحالين والجرائحية . ويذكر وظائف زعماء أهل الذمة بدمشق مثل بطرك النصارى اليعاقبة ، وبطرك الملكانية . وفى حلب يوجد بيمارستانان : أحدهما يعرف بالعتيق ، والآخر بالجديد . ولكل منهما ناظر يخصه ،وهذه وظيفة خاصة . كما أن طرابلس بها شاد للمبناء بسبب كثرة السفن التى ترسو فيها .

ونحن وقد انتهينا من استعراضنا للصور التى حصلنا عليها للشرق العربى من صبح الأعشى ، نود أن نعود فنذكر القراء الكرام بأن القلقشندى كتب موسوعته الكبرى لمنفعة المشتغلين بديوان الانشاء ، وعنى بالإدارة والنيابات وما يترتب على معرفتها من استعمال الصيغ الصحيحة فى مخاطبة أربابها . وأما معلوماته الوصفية فقد أخذ منها الكثير عن الثقات من الجغرافيين ، ونقل عن الرحالين ، وروى عمن اجتمع بهم . وكلما بعد القطر

عن مصر نقص اهتمامه به نسبيا، وفقد سبيل الاتصال المباشر به أو بأهله وهذا سبب ما نرى من اقتضاب فى أنباء الأجزاء النائية من العالم العربى .

وقد قبل القلقشندى كثيرا من الأساطير فى تسمية البلدان كالذى نقله من أن راهبا اسمه عجلون كان يقيم فى مكان، فلما بنيت مدينة هناك سميت باسمه، أو أن سليمان بن عبد الملك وفد على امرأة أكرمت نزله . ولما سألها عن اسمها قالت رملة ، فلما بنى مدينته هناك سماها الرملة باسمها .

لكن الذى نأسف له أكثر من كل شىء، هو أن صاحب الصبح إذ يعرض لمدينة من المدن يذكر سعتها وبيوتها وجوامعها ومدارسها وزواياها فى عبارات عامة بحيث تتشابه الأماكن كلها ، دون أن يعطينا ولو مرة واحدة ، أعدادا تبين السكان والمدارس أو غيرها مثلا .

على أن هذه الهفوات أمر يسير بالنسبة إلى ما فى الكتاب من علم وأدب وتاريخ . إنه كتاب من خير ما ترك لنا السلف الصالح .

شكر

ألقيت بأصول هذا الكتاب إلى دار المعارف بمصر، والأصول أشد ما تكون حاجة إلى من يوليها عنايته وجهده فتخرج الصور فيها واضحة .

وقد كفانى صديق الكريم الأستاذ محمد عبد الغنى حسن مؤونة هذا العناء. فراجع الأصول وصحح الطبع، فخرج الكتاب على ما هو عليه بفضله وعنايته . فحق على أن أقدم إليه الشكر الجزيل ،

نقولا زيادة

(مطبعة دار الكتب المصرية ٢٠٠/١٩٤٣)

